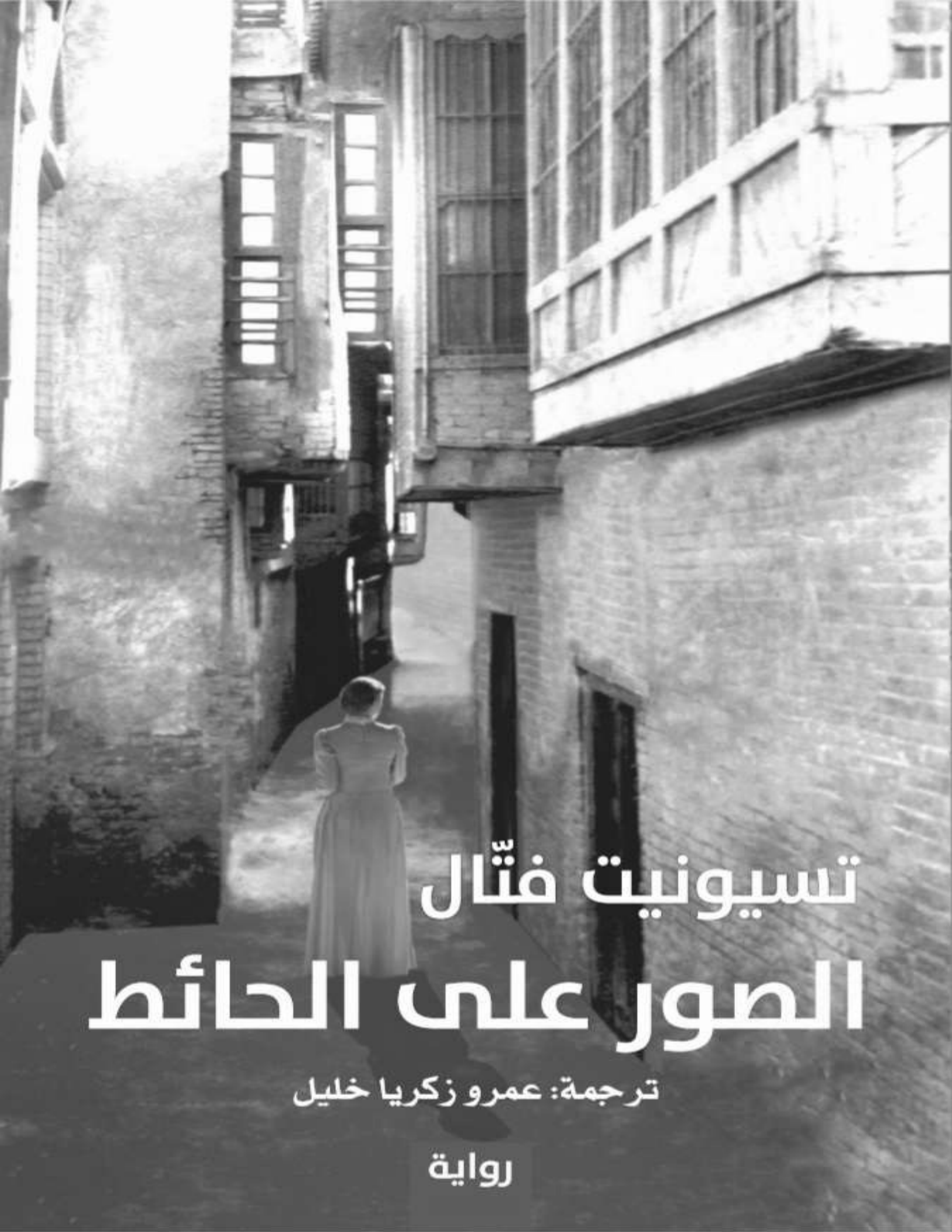

تسيونيت فتّال

الصور على الحائط

ترجمة: عمرو زكريا خليل

رواية

الصور على الحائط
تسيونيت فتال

ترجمة: عمرو زكريا خليل

التحرير اللغويّ: صالح عليّ سواعد

تقديم الارشادات وترجمة الاصطلاحات بلهجة يهود العراق: لطيف بارطو

الصور على الحائط

رواية

تسيونيت فتال

The Pictures on the Wall

Novel

Tsionit Fattal

اصدار دار ميزوبوتاميا للنشر والتوزيع

صورة الغلاف هي رسم توضيحيّ عن صورة فوتوغرافيّة لزقاق في بغداد

شكرًا لـ "مركز تراث يهود بابل"، أور يهودا

جميع الشخصيّات في هذا الكتاب هي من نسج خيال المؤلّفة

© جميع حقوق نشر الكتاب، بما في ذلك الترجمة إلى اللغة العربيّة، محفوظة للمؤلّفة تسيونيت فتال.

حقوق الملكيّة الفكريّة بما فيها حقوق الطبع والحقوق الأدبيّة محفوظة. يمنع طباعة أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أو تخزين في مستودع معلومات أو إذاعة أو التقاط أيّ جزء من المادّة في هذا الكتاب بأيّ طريقة أو بأيّ وسيلة الكترونيّة، أو بصريّة أو ميكانيكيّة أو أخرى، أو أيّ استعمال تجاريّ من أيّ نوع كان لمادّة هذا الكتاب، إلّا بموافقة خطّيّة من مؤلّفة الكتاب تسيونيت فتال.

First Published by Dar Mesopotamia

For Publishing and Distribution – Baghdad – Iraq 2017

Tsionit Fattal © Revised copyright

The right to be identified as the

Author of this work is asserted in accordance

.With the Copyright, Designs and Patents Act 1988

إهداء إلى روحيّ والديَّ

ديزي (ربيع) وعزرا فتال

مدخـل

كانت نوريَّة تحترق من لظى التيّارات الحارّة التي تخرج من كفّي يديها. كان صعبًا عليها الاعتياد على الهدوء الذي يسود ما وراء باب بيتها، منذ أن فُجِعت، واشتاقت إلى الأيّام التي كانت فيها النسوة اللواتي لم يستطعن الحمل، والأمّهات اللواتي أجهضن، والعوانس اللواتي أرَدنَ معرفة حظّهن، يتهافتن طارقات بابها بحثًا عن حلّ لما أصابهنّ. الحرارة في كفّي يديها، هي التي وجّهت حواسّها مباشرة صوب المكان المخبّأ فيه السحر الأسود، في ساحات بيوتهنّ، همسات ولعنات، جلبت لهنّ الحظّ السيّئ، وعين الحسد التي سدّت طريق السعادة أمامهنّ.

أثارت الرعشة التي سيطرت عليها قلقها. وكأنّ أعضاء غريبة خارجة عن السيطرة زُرعت في جسمها. صمّ أذنيها بكاء ابنة الجيران التي باءت مساعيها للحمل بالفشل في هذا الشهر أيضًا؛ وقلبها خفق بقوّة حين تذكّرت معاناتها عندما انسدّ رحمها، وفظاعة نساء الزقاق اللواتي أبعدنها عنهنّ كي لا تجلب لهنّ الحظّ السيّئ. احمرّ وجه نوريَّة من شدّة النيران التي اشتعلت في داخلها، وارتعد جسمها من شدّة الامواج التي توسّلت لتحقيق هدفها، وأصبحت في داخلها جمرًا مستعرًا. بدأت بشرة يديها تجفّ وتتقشّر، لم تدرك بعدُ أنّ جسدها يتآكل من الداخل.

خلعت ملابسها ودخلت حوض ماء بارد. غطّى الماء أذنيها، فملأت رئتيها بأنفاس طويلة وعميقة حتّى هدأت. وبدأت يداها تطفوان على الماء فرسمت الحرارة الحارقة التي انبعثت منها مويجات على سطح ماء الحوض. الأنفاس ورذاذ المياه الخفيف أعادا لها هدوءها، وشعرت بنفسها كجنين يتحرّك في رحم أمّه. أغمضت عينيها ببطء، ومرّت أمامها سنوات عمرها الستّ والخمسين.

طفت وجالت في خاطرها القصص التي انتقلت همسًا في ساحات البيوت التي عاشت فيها – كيف أصبح اليوم الذي وُلدت فيه يوم حداد لوالديها، وكيف رقدت أمّها في الفراش، وندبت حظّها لأنّها مرّة أخرى لم تنجح في أن تُنجب لزوجها ابنًا يبعده عن فراش الراقصات ويرفع رأسها بين نساء الحيّ. أثارت هذه المشاهد حفيظتها، لكنّها مع ذلك ابتسمت. وهُيّئ لها أنّ فمها يُصدر فقاعات ماء ملوّنة عندما كانت تتذكّر نزوات شبابها، التي كانت في نظرها أيّام السعادة القليلة التي عاشتها. حين كانت ضحكتها صافية مدوّية، وعيناها تلمعان بلونهما الأخضر، وشعرها الذهبيّ مجدولًا بضفائر طويلة وكثيفة، لقد تمتّعت بالحرّيّة التي أخذتها لنفسها، فراحت تخرج للتنزّه في أزقّة الحيّ اليهوديّ، في بغداد، من دون أن يراقب أحد خطواتها، أو يزعجها بالأسئلة. مرَّ أمامها أيضًا مشهد شباب الحيّ، الذين كانوا يتبعونها بصمت، عندما كانت تمرّ هناك بملابسها الملونة، مخلّفة وراءها نفحة رقيقةً من رائحة الياسمين. ذكريات شبابها أصابت رأسها بالدوار، فسارعت في جمع قواها ووثبت من مكانها. تبدّلت الذكريات القصيرة الجميلة بدموع الألم.

انقبض جسدها حين تذكّرت كيف رفعت يديها بغضب، في الوقت الذي نظرت إليها عمّتها وحيدة بعينين تبثّان الرعب؛ لأنّها رفضت الزواج من ابنها نعيم. لقد سخرت من عمّتها التي ادّعت بأنّ لابنها حقّ الأولويّة فيها، وأعلنت أنّها ستختار عريسها بنفسها. أصيب أهل البيت بالصدمة. وكانت هذه أوّل مرّة ترفع فيها فتاة في العائلة صوتها في وجه وحيدة وتخالف أمرها. أيقظتها عينا وحيدة الشرّيرتان من ذكرياتها الكئيبة، فسارعت إلى الخروج من حوض الماء وارتداء ملابسها.

فجأةً، فُتح باب بيتها، ودخل الحجرة، ومن دون أن ينبس ببنت شفة، أزال صور الأولاد عن الحائط، فتقلب قلبها في أحشائها.

صورة عائليّة

بغداد، 1925

.1

كانت هذه المرّة الأولى التي تجرؤ فيها نوريَّة على الابتعاد بمفردها عن المناطق المحاذية للحيّ اليهوديّ. وخفق قلبها من الانفعال قبيل لقاء المطربة المحبوبة زيزي، التي عرف الجميع أغانيها ورُدّدت في كلّ بيت في بغداد. قبل أن تغادر المنزل، صعدت في عجل الدرج الخشبيّ إلى الكَبِشْكان، إلى غرفة صغيرة تقف على أعمدة بين شرفة الطابق الثاني وسطح البيت. هناك، توجّهت إلى أحد الأواني الفخاريّة الكبيرة، التي كانت تملأ الغرفة المستخدمة كمكان لتخزين الأطعمة الجافّة. أخرجت من هذا الإناء صرّة من القماش الأبيض، خبّأت فيها، عن عيني زوجها أَدْوَر، خيوطًا بيضاء لإزالة الشعر، وكريمات صنعتها بنفسها، وعشرة دنانير. حمدت الله على المال الذي نجحت في ادّخاره من عملها الشاقّ والخفيّ، وعلى مساعدته لها في التعامل مع بخل زوجها، الذي اعتقدت ذات مرّة بأنّه سيتعامل معها بطريقة مختلفة عن التي اعتادت عليها في أسرتها. أخفت النقود في صدريتها بصمت، ولفَّت الكريمات والخيوط مرّة أخرى في قطعة القماش البيضاء وصرَّتها في منديل ملوّن مع رغيف خبز، خيار مقشّر، وقطعة من الجبنة البيضاء.

في الطابق الثاني من البيت المبني حول فناء داخليّ، دخلت إلى الغرفة الوحيدة المطلّة على الكُوچَة، الزقاق، ووقفت خلف نافذة الشناشيل، المصنوعة من الزجاج وعليها قضبان. أطلَّت على الشارع الضيّق لتتأكّد أنّ لا أحد من بنات عائلتها، اللواتي سكنَّ في الجوار، في الخارج؛ وعندما أيقنت أنّ الطريق خالية، نزلت بسرعة إلى الطابق الأوّل وأوصدت الباب خلفها. قبل أن تترك مدخل بيتها نظرت ثانية في كلّ الاتّجاهات، ونثرت الملح أمامها، وصلّت أن يبدأ هذا اليوم بالقدم اليمنى من دون أيّ عقبة. حينها فقط خطت خطوات سريعة في الشوارع الملتوية للحيّ القديم. وكانت، بين الفينة والأخرى، توقِف خطواتها السريعة، وترفع طرف عباءتها منتقلة من جانب إلى آخر في الطريق كي لا تطالها مياه المجاري، التي كانت تتدفّق بشكل دائم من منازل الحيّ إلى الأزقّة الضيّقة، مكوّنة وحلًا طينيًّا، يوسّخ أحذية وملابس المارّة، الذين لا يأخذون حذرهم في أثناء السير. مع اقترابها من مدخل سوق جِنُّونِي المعروف أيضًا بسوق اليهود، التفّ حولها الباعة المتجوّلون، وحاول كلّ منهم جاهدًا إقناعها بأن تشتري منه معدّات الخياطة، والعطور والسجائر؛ لكنّها فضّتهم من حولها كما لو كانوا سربًا من الذباب المزعج، ثمّ اجتازت السوق، الذي استيقظ على صباح جديد بألوانه الزاهية، وروائحه المنعشة. كان أصحاب المحلّات ينادون المارّة بأصوات عالية لمشاهدة بضائعهم، التي فرشوها للتوّ أمام الجميع، لكنّها، على غير عادتها، مرّت كطرفة عين، عْيُون بْلاَ عْيُون، أمام هذه الوفرة من الخضروات والفاكهة، متجاهلة ألوان البقول الزاهية، والحبوب والعُطَارَة وأكوام الخبز الطازج، من دون أن تمسّ أيًّا منها أو تشمّ رائحتها. لفَّ وجهها البخار الذي تصاعد من السماورات الكبيرة في الچـايخانات، المقاهي، المحاذية للسوق، الأمر الذي جعلها تبطئ من خطاها، وعندما تشتّت هذا الضباب، ظهرت أمامها مجموعة من الشباب يملؤهم النشاط، وفي أيديهم صوانٍ ذهبيّة مكدّسة بـ□لأستيكانات، الأكواب الزجاجيّة الصغيرة، عارضين على المستيقظين باكرًا في المَحلّات والدكاكين أن ينعشوا أنفسهم بالچـاي الساخن الذي تفوح منه رائحة الهيل الحارّ. لوهلة، أرادت الاستراحة قليلًا، مثل الرجال في الحوانيت، لتشرب الچـاي الساخن لكن "عِيب عْلِيهَا" – هو ما سيقوله الناس عنها، إذا شربت الشاي في صحبة رجال غرباء.

في الزقاق الثاني اتّجهت يمينًا ومرّت بخشوع من أمام المدرسة الدينيّةِ زلخة، التي عُرف عنها أنّ النور الذي كان يخرج من مصابيحها الزيتيّة لم ينطفئ طوال العام. أخبرها أَدْور قبل خمس عشرة سنة، أي في الأيّام الأولى من زواجهما، عندما كان لا يزال لطيفًا وصبورًا معها، أنّه في هذه المدرسة التي خرَّجت

عظماء حكماء بابل، يدرّسون التوراة بلا توقّف؛ لأن الله أوصى بني إسرائيل بتلاوة التوراة ليلًا ونهارًا. ثمّ لمزها قائلًا: "لو أنّني أكملت الدراسة في أليشيبَا: المدرسة الدينيّة اليهوديّة، لما غادرتها أبدًا حتّى يعلنوا عنّي طالبًا موهوبًا في التوراة، مثل جدّي، ووالد جدّي". وعندما أرادت أن تعرف لماذا لم يُكمل دراسته، صمت وتجاهل سؤالها، وامتنع سنوات طويلة عن الإفصاح عمّا يُضمره في قلبه.

خرجت تنهيدة عميقة من صدرها، وواصلت السير في جِدّ حتّى بلغت نهاية الزقاق ووقفت أمام المدخل الرئيسيّ للكنيس الكبير المسمّى "صْلاَةْ لِكْبِيغِي". وهنا أبطأت خطاها، وشدّت المنديل الذي كان على رأسها وطأطأت جسدها قليلًا عندما تذكّرت كلام أَدْوَر مرّة أخرى: عليك أن تكتسي بما يليق مهابة الله عندما تقفين أمام هذا الكنيس الكبير فأجدادنا الذين جاؤوا إلى هنا مع المنفيين إلى بابل والملك يهوياخين، قبل ألفين وخمسمائة عام، بنوا الكنيس من تراب وحجارة الهيكل المقدّس الأوّل. هذا المكان مقدّس، لأنّ " (ا)لشْخِينَة" (الوحي الإلهيّ) اختارت أن يكون مقرّها الجديد هنا، عندما سبى نبوخذ نصّر معظم اليهود من أورشليم إلى مسقط رأس أبينا إبراهيم، ألا وهي محبوبتنا بابل". كما أراها حجرًا بجوار المدخل الرئيسي للكنيس الكبير وقال لها بعيون فيها بريق: "جَلبَ هذا الحجر من أرض إسرائيل، قبل أكثر من أربعين سنة، الحاخام الصدّيق يوسف حِيِّيم رحمه الله، الذي توفّي قبل عام بالضبط". حينها طلب منها أن تلمس الحجر وتُقبِّل أصابعها، مثلما كان يفعل كلّ زوّار الكنيس، وتمنّى بصوت مرتفع: "بفضل هذا الحجر المقدّس وبفضل الصدّيق سنحظى بالبنين والعمر المديد". صاح كلّ من وقف إلى جوارهما بصوت واحد: "آمين، لتكن هذه مشيئته"، ثمّ أطلقت النساء ألسنتهنّ بصيحات هلاهل، تعبيرًا عن الفرحة، وتقديرًا لهما.

حاولت نوريَّة أن تطرد عنها الحزن الذي غطّى وجهها بسبب ذكرى الأيّام القليلة في أثناء زواجها، التي ذهبت إلى غير ذي رجعة، والتي خلالها حتّى الأرض ناءت بحمل سعادتها، عندما شعرت بأنّ الله قد وهبها زوجًا على هواها أنقذها من الزواج من ابن عمّتها المريض. دخلت باحة الكنيس وبحثت عن المتسوّل عبد الله بين الفقراء الكثيرين الذين تجمّعوا في ظلّ الجدران وتطلّعوا بعيون توّاقة إلى رحمات أبناء طائفتهم. حين شاهدها عبد الله، قفز بانفعال من جانب إلى آخر ولوَّح لها بيديه، كالطفل الذي يتوق إلى لبن أمّه، حاول استقبالها بصيحات الفرح، لكن لم يُسمع من حنجرته سوى أصوات متقطّعة كالصرير. استأذنته نوريَّة بالجلوس إلى جوار حصيرته وفتحت أمامه الصرّة التي أحضرتها معها. تابعت عيناه رماديّتا اللون الغائرتان في محاجرهما، يديها الرقيقتين، وهما تضعان أمامه بلطف الخبز مع الجبن والخيار، وابتلعتا وجبة الافطار حتّى قبل أن يفتح فاه ليكشف عن أسنانه المحطّمة والمنقّطة بالسواد.

لم يعرف أحد من هو عبد الله، ومن أين جاء وما هي قصّته. حتّى اسمه الحقيقيّ لم يعرفه أحد. فقد جاء عندما كان طفلًا إلى باحة الكنيس الكبير، واستقرّ هناك ليصبح جزءًا من المشهد الإنسانيّ للمكان. انتشرت حكايات كثيرة عن المتسوّل السعيد صاحب الشعر الأشعث غير الممشّط، الذي يقفز باتّجاه كلّ من يُحسن إليه ويرقص حوله. بعضهم قالوا إنّه فقد النطق عندما قتل □لْعِسْمَلِّي - الأتراك كما أطلق عليهم يهود العراق – والده واغتصبوا والدته أمام عينيه، ففرّ إلى العاصمة بغداد بمفرده؛ وقال آخرون إنّ أبويه تركاه لرحمة الله بجوار الكنيس الكبير، خشية منهما أن يكون الشيطان قد مسَّه وهو الذي يصدر أصوات الصرير من حلقه.

مستمدّة التشجيع من ابتسامات عبد الله ومن عيون الملك فيصل، أوّل ملك للعراق، التي رافقتها من الصور المعلّقة على المباني المجاورة بمناسبة الذكرى السنويّة الرابعة لجلوسه على العرش، أسرعت نوريَّة باتّجاه حيّ الأثرياء بجوار نهر دجلة، المنطقة التي تسكن فيها زيزي. قبل أن تجتاز حدود الحيّ اليهوديّ أخفت وجهها السافر بپـوشي (حجاب)، ومع العباءة السوداء التي لفّت جسمها الرشيق، لم يكن من الممكن تفريقها عن النساء المسلمات.

عكّرت مياه نهر دجلة العكرة مزاجها الصافي بعض الشيء، ضجيج المحرّكات وصافرات السائقين الضجرين الذين شوّشت العربات وجموع الناس حركتهم؛ وأصابت رأسها بالدوار وامتزجت بصهيل الجياد ونداءات الباعة المتجوّلين الذين فرشوا بضاعتهم عند أقدامهم على الأرصفة الضيّقة، وعلى عربات متحرّكة. فاحت بقوّة الروائح المسكرة للسمبوسك المحشوّ بالحمّص المطحون مع البصل والكمّون، والعمبة الحارّة، والخبز الطازج، ملأت أنفها، وحفّزت معدتها، رغم أنّ الوقت كان وقت صباح. وفجأة لاحظت بائع زنْگـولَة ينظر إليها وخرج إليها من دكّانه وفي يده قطعة من كعكة حلزونيّة الشكل مغموسة في شراب السكّر وماء الورد- وقبل أن يحاول دفع هذه الكعكة اللزجة إلى فمها من خلف البوشي وأن يمدّ يديه بفظاظة إلى أردافها، نجحت في صدِّه عنها ولعنته في سرّها، لأنّها خافت أن يتعرّف إلى يهوديّتها من خلال صوتها. ارتعد جسدها غضبًا من ازدواجيّة أخلاق الرجال، الذين يحرصون على شرف نسائهم في بيوتهم، لكنّهم في الوقت نفسه يتعاملون مع نساء الآخرين كما لو كنَّ ملكًا عامًّا، يُسمح لهم بمدّ أيديهم المدنِّسة إليه.

من دون وعي، وجدت نفسها تشقّ طريقها بين الجموع الغفيرة، التي احتشدت على رصيف ضيق بطول دجلة. مرّ بها جنود بريطانيّون مبتسمون، أصبحوا منذ هزيمة الأتراك جزءًا من المشهد البشريّ للعراق الجديد، والذين أعدّوه لنيل استقلاله. وعلى الرغم من أنّ الجنود الغرباء جعلوها تشعر بأنّها محميّة من الرجال الشهوانيّين من أبناء المكان، الذين يفكرون فقط في كيفيّة الاحتكاك بها وملامسة عوراتها، احتضنت الصُرَّة بقوّة وضمتها جيدًّا إلى صدرها لحماية كنزها المخبّأ بين ثدييها، متجاهلة أيادي الناس الكثيرة التي تلمسها، وتدفعها وتسحبها بقوّة في أثناء سيرها السريع، ورائحة التبغ الرخيص والعرق التي انبعثت من ملابسهم، ونظرت إلى النهر الذي رافقها في طريقها، وهي تفكّر في الحظّ الذي كان من نصيبها- هي بالذات، التي لا تملك أيّ معرفة أو خبرة، اختيرت للعناية بجسد ووجه المطربة المشهورة.

وما إن توجهت من الشارع صوب الحيّ الراقي الذي تسكن فيه المطربة، اختفى الضجيج المزعج والروائح النتنة فجأة، ليحلّ محلّهما زقزقة فرِح تُطلقه العصافير التي كانت تحلق بين الأشجار مغمورة بالسعادة.

"سبحان الله! يا له من منظر طبيعيّ مفتوح ورائع!" قالت نوريَّة في ذهول، وكان يبدو لها أنّ الشارع قد لفَّه أريج الحرّيّة التي لم تعرف مذاقه. ففي الحيّ الذي كانت تسكن فيه نجحت أشجار قليلة فقط في أن تضرب جذورها وتجد لقممها متنفسًا بين الأزقّة الحبيسة، البيوت القديمة، المرقّعة بألواح خشبية وصفيح صدئ، والتي بنيت بشكل متلاصق دون نظام أو شكل؛ هناك لم تسمع أيّ تغريد عصافير تقريبًا، سوى هديل حمام جارها نِسيم.

وفقط عندما شاهدت منظر بغداد الجديدة الباعث على الحرّيّة، أدركت كيف أنّ حياتها مكبَّلة داخل البيوت المزدحمة الخانقة – لكنّها مكشوفة في الوقت نفسه للجميع. فشبابيك الشناشيل التي تطلّ على أزقّة الحيّ اليهودي كانت قريبة جدًّا حتى أصبحت متلاصقة، وجدران المنازل تسندها جدران منازل مجاورة، وكانت الساحات الداخليّة، الخفية عن عيون المارّة في الأزقّة، كالكتاب المفتوح أمام كلّ من يطلّ عليها من الأسطح المشتركة. هكذا عرفوا كلّ شيء عن بعضهم البعض، ولم يستطع أيّ من سكّان الحيّ الحفاظ على خصوصيّاته – خاصّة من النساء النمَّامات اللواتي اعتدن التحدّث عن أسرار الجميع في أوقات العصاري، بعد أن يُنهين أعمالهنّ المنزليّة، فكن يجلسن على التختات، مناضد خشبيّة، في مداخل البيوت ويتبادلن أحاديث النميمة مِنْ شِيحونْ لِبيحون، عن هذا وذاك: عن زوج مسعودة الذي شوهد يتسلّل إلى بيت الأرملة إيـ□ون في الجهة المقابلة؛ وعن ابنة الغسّالة سعاد التي اضطرّت إلى الزواج من أرمل له أولاد، لأنّها لا تملك المال المطلوب للمهر؛ وعن العروس الجديدة لعائلة نوما التي لم تحمل أبدًا؛ وعن الصراخ الذي

يُسمع من بيت داوود السكّير في منتصف الليل. كلّ يوم وأخباره.

الشمس الحارقة ضربتها بأشعتها الملتهبة، ووقفت هي في مكانها ولم تعرف إلى أين تذهب. فحجم الشوارع والبيوت التي لم تشهد مثلها في حياتها من قبل، جعلها ترتبك وتفزع. كانت الشوارع هادئة وخالية.

"يا له من هدوء! هنا لا حوانيت أو مقاهٍ أسفل البيوت وبينها، وهنا لا أحد يعلن عن بضاعته أو صنعته بصوت مرتفع مثلما يحدث عندنا في الحيّ"، فكّرت في نفسها. "ناس مهمّون كريمو النسب يسكنون هنا، ومحظور إقلاق راحتهم، كما أنّه لا وقت لديهم للتجوّل هكذا في الخارج مثلنا، نحن البسطاء، أو للتدخّل في شؤون الآخرين. ماذا فكّرت في نفسي – بمجرّد أن أصل وأتقوّه باسم المطربة، سيسعد الجميع بمساعدتي للحصول على مرادي؟ كيف جرؤت على المجيء إلى هنا؟ هذا مكان غير مناسب لامرأة مثلي"، أنتابها غضب من غطرستها وتبجّحها.

الجوّ الحارّ جعل تنفّسها صعبًا، وبدت قطرات العرق على وجهها الصافي الخالي من التجاعيد. التفتت برأسها يمينًا فلاحظت امرأة تتقدّم نحوها من بين البيوت، وإلى جوارها فتًى يرتدي بدلة مضبوطة بمقاسه. تردّدت في البداية في التوجّه إليها. لكن، بما أنّها لم ترَ أحدًا غيرهما في الشارع، تشجّعت وطلبت منها باللهجة الخاصّة بمسلمي العراق، أن تخبرها كيف تصل إلى بيت المطربة زيزي. نظرت المرأة إليها من أخمص قدميها حتّى رأسها بنظرة استهزاء، بدت لها كمن تقول في نفسها: "كيف تجرؤ امرأة ترتدي عباءة من قماش غليظ ورخيص وتنتعل قبقابًا خشبيًّا، على التوجّه إليّ ومضايقتي؟!" شعرت نوريَّة بخجل وارتباك شديدَين، وكانت كلّ رغبتها في أن تختفي من هذا المكان كهبَّة ريح عابرة؛ لكنّ المرأة لوَّحت بيدها بحركة متكلّفة من دون أن تفتح فاها لتنطق بكلمة، وأشارت إلى بيت يختبئ داخل مجموعة من أشجار النخيل. أومأت نوريَّة برأسها للسيّدة تعبيرًا عن شكرها لها، وعبرت الطريق بحذر، على الرغم من عدم مرور أيّ سيّارة أمامها، وسارت نحو أشجار النخيل التي بسقت من وراء البيوت، وكلّما اقتربت من البيت الذي ظهر أمام عينيها بكامل بهائه، زاد اضطرابها.

أمام الباب الكبير المصنوع من الخشب المزخرف بالنحاس، رتّبت ملابسها وجفّفت عرقها الذي تصبّب من وجهها تحت البوشي؛ وفقط بعد أن نظّفت قبقابها من غبار الطريق وطرقت الباب برفق. فتح لها الحارس الباب الثقيل فتراءى لها بيت فخم وواسع، بدت مظاهر الثراء في كلّ ركن فيه؛ فأخذتها الدهشة من منظر الأبّهة والفخامة. تنحنح الحارس ليوقظها من جمودها وطلب منها معرفة ماذا تصنع هنا. أجابته نوريَّة بتردد، في الوقت الذي واصلت فيه النظر إلى غرفة الاستقبال وغرفة الضيوف من ورائها، ولم تنجح في فهم كيف يخرج النور من النجفة المعلّقة على الحائط من دون أن يشتعل النفط فيها. كانت واثقة من أنّ مثل هذه البيوت مذكورة في الحكايات فقط – وها هي، التي تسكن في بيت صغير وفقير في الحيّ اليهوديّ القديم الآيل للسقوط على ساكنيه، تحظى بدخول بيت جديد وفاخر، كان من الممكن أن ترسمه بأثاثه الفاخر وأدواته في خيالها فقط. تركها الحارس لحظة وذهب لإخبار صاحبة البيت بمجيئها، وبقيت هي مع الخادمة الشابّة، التي تجاهلت وجودها تمامًا، واستمرّت في جمع زجاجات الكونياك الفارغة، وأعقاب السجائر وبقايا الطعام، التي دلّت على أنّ حفلًا ماجنًا جرى هنا في الأمس.

خرجت إليها امرأة صغيرة وهزيلة، أظهرت نحافتها عينين سوداوين كبيرين، وقادتها إلى غرفة واسعة، دافئة ولطيفة، تغطّي صورها كل جدرانها. دُهشت نوريَّة من اكتشاف الفارق الكبير بين المرأة التي تقف أمامها وتبدو مكبوتة فاقدة للبريق، والشخصيّة المشرقة للمطربة التي تبدو في الصور. أرادت سؤالها كيف سمعت بها، لكنّها خجلت؛ وعندما ابتسمت لها زيزي وسألتها ماذا تريد أن تفعل، اضطربت نوريَّة للغاية، لدرجة أنّها نجحت في التمتمة ببعض الكلمات بصعوبة كبيرة:

"ارقدي هناك ... هناك على ال.... السرير، من دون ... من دون ملابس، فقط ... فقط غطّي نفسك بالشرشف".

تمدّدت زيزي على السرير كما أمرتها، وأسرعت نوريَّة في خلع عباءتها كاشفة رداءً مزينًا بالزهور الزرقاء الرقيقة التي أثنت على قوامها الممشوق. فكّت الصرّة التي أحضرتها معها ووضعت أمامها الخيوط والكريمات. وقبل أن تبدأ عملها، نفثت في كفّيها، وخلطت الكريم برفق ودهنت به وجه زيزي وجسدها بمهارة، ثمّ أخذت الخيط الأبيض وربطت طرفه الأوّل بيدها وصنعت منه دائرة بين أصابعها، ووضعت طرفه الآخر في فمها، وبحركات متناغمة وسريعة بين اليدين والفم، أزالت الشعر من وجه وجسد السيدة النحيفة من دون أن تسبّب أيّ ألم أو تترك أيّ علامة.

"أصبح جسمك ناعمًا الآن وليست عليه أيّ شعرة زائدة"، ثمّ مررت يدها على جسم زيزي ونظرت إلى نتاج عملها بفخر.

بعد ذلك غطّتها بالشرشف، ونفثت في يديها مرّة أخرى ومرّرتهما على جسدها. تحرّكت زيزي في مكانها منزعجة، وتعجّبت من مصدر هذه الحرارة التي تجري من نوريَّة إليها.

"الحرارة التي تشعرين بها من يديّ"، قالت لها مبتسمة، تأثّرت زيزي بشدّة الحرارة. فجأة، بدت علامات الجدّيّة على وجه نوريَّة، وتوقّفت يداها فوق الجزء السفليّ من بطن زيزي كما لو كانت ترفض الاستمرار في العمل.

"يداي لا تريدان التحرّك"، فزعت نوريَّة من يديها المتحجّرتان. صمتت زيزي ونظرت إليها بخوف. دمعت عينا نوريَّة.

"لماذا تبكين؟" قالت زيزي بخوف.

"لا أعرف ما الذي حدث، لكنّ الألم الذي يأتي من منطقة بطنك يمزّق بطني تمزيقًا. يجب أن أعرف ماذا حدث لك في هذه المنطقة لأستطيع الاستمرار والعناية بك"، أجابت وهي تتأوّه من الألم.

قفزت زيزي من مكانها ولفّت جسمها بالملاءة. تحرّرت يدا نوريَّة من هذا الجمود، وتراجعت إلى الخلف، كما لو أنّ شيئًا ما دفعها من مكانها. شحب وجه زيزي خوفًا، وطلبت من نوريَّة مغادرة منزلها على الفور، من دون أيّ تفسير.

اكتست وجنتا نوريَّة باحمرار خفيف، وجمعت أغراضها بسرعة، وضعتها داخل قطعة القماش البيضاء وخرجت من البيت مسرعة، مهزومة وخجلة، من دون أن تودّع الحارس في المدخل لئلّا يلاحظ دموعها التي علقت في عينيها الخضراوين. "اجتهدتُ كثيرًا من أجلها، وتأثّرت كثيرًا بطلبها لي، واستخدمت كلّ قواي التي أوتيت. ماذا قلت، وما الخطأ الذي اقترفته، الذي جعلها تطردني من بيتها؟" حاولَت البحث عن تقصير في عملها أو في الكلام الذي قالته، لكنّها لم تجد شيئًا. وما إن دخلت بيتها مغطّاة الرأس مرتبكة، حتّى واجهت نظرة أُدْوَر الغاضبة.

"إنّ شرف ابنة الملك داخل دارها "، أخرج من بين أسنانه بسخرية لاذعة تعبيرًا باللغة المقدسة، أحد التعبيرات الكثيرة التي اعتاد اقتباسها من التوراة وكتب الْهَلاَخَاه (الشريعة اليهوديّة) واستخدامها في كلامه. ثمّ أخرج من جيب ثوبه علبة تبغ مصنوعة من الصفيح، وأخذ منها بأطراف أصابعه حفنة من التِتِنْ، النشوق، وقرّبها من أنفه، وعندما شمّ رائحته بدت عيناه العسليّتان صافيتان جدًّا.

أمّا نوريَّة، التي كانت ما زالت غاضبة من فشل زيارتها لزيزي، فلم تنتبه حتّى ذلك الحين إلى مدى تأخّرها في العودة. حتّى العجوز أبو جعفر، الذي يشعل مصابيح الحيّ الزيتيّة، كان قد انتهى من ملأ

المصابيح المنتشرة في الأزّقة المظلمة بالزيت، وإشعال فتائلها. لم تنجح في فهم العبارة العبريّة التي ألقاها عليها، باستثناء كلمات "شرف"، و"ملك"، وانفلت من فمها سؤال: "شرف من؟" من دون أن تقصد أن تفتح حوارًا معه.

"قال حاخاماتنا العظام، إنّ على المرأة اليهوديّة الشريفة الحفاظ على عفَّتها، وأن تبقى حبيسة في بيتها وتخرج منه مرّة واحدة فقط في الشهر. فإلى أين تذهبين بدلًا من رعاية أطفالك في بيتك؟" أراد أن يعرف.

"لا أقترف أيّ سوء. فأنا امرأة عفيفة، وشرفك لم يُمسّ؛ فجُلّ ما أفعله هو تكسُّب بعض المال بشرف"، ردّت عليه بغضب لعدم ثقته بها.

"إنّ شرف البنات اليهوديّات في بيوتهنّ وتحت رعاية أزواجهنّ الذين يعولونهنّ، لا التجوّل بمفردهنّ في شوارع المسلمين"، وتطاير الغضب من عينيه العسليّتين.

نفرت نوريَّة من معنى كلماته اللاذعة. وفكّرت في نفسها كيف مرّت خمس عشرة سنة من دون أن يقول ولو كلمة واحدة عن هذه المصادفة البشعة التي جمعت بينهما لأوّل مرّة في زقاق بعيد. والآن، وبعد أن اكتشفت قواها وغايتها، ها هو يوجّه إليها إشارات لاذعة عن ذلك الحدث الذي غيّر حياتها وربّما حياته هو أيضًا.

.2

حدث ذلك في اليوم الذي رفضت فيه نوريَّة الزواج من نعيم ابن عمّتها وحيدة، الشقيقة الكبرى والوحيدة لأبيها حوگـي، المعروف أيضًا بـ"حوگـي الكسلان". كان البيت الأزرق الذي سكنت فيه عائلة نوريَّة وعائلة وحيدة معًا، في حالة من الهرج والمرج في ذلك اليوم، حتّى إنّ جدران البيت الدقيقة قد اهتزّت من الصراخ الذي تصاعد منه وجذب إلى مدخله الجيران الفضوليّين. تذكّرت نوريَّة أنّها سألت ذات مرّة لماذا يسمّون بيتهم "البيت الأزرق" – على الرغم أنّه كان من الأصحّ تسميته "البيت الرماديّ" للونه الباهت مثل بيوت كثيرة في الزقاق، وأخبرتها أمّها نزيمة بأنّه في الماضي البعيد قبل أن تُضاف غرف في مقدّمته، كان البيت مدهونًا باللون الأزرق لحماية أفراد البيت من "هَذوكّي لنّيسْ" هؤلاء الناس. هكذا كانت تطلق النساء على الجنّ، الذين عاشوا معهم في الحيّ من دون أن تسمّيهم بأسمائهم خشية أن يظهروا لهنّ.

لم تشاهد نوريَّة، مثلها مثل الكثير من جيرانها، الجنّ أبدًا، لكنّها سمعت عنهم منذ أن كانت صغيرة، وعندما كانت تجلس بجوار أمّها في المساء على الكراسيّ الخشبيّة في مدخل البيت، والجارة رحمة، التي التصقت بها كنية "إم كِلّو"، لأنها كانت تُقحم أنفها الطويل في كلّ شيء ولم يَخْفَ عن سمعها أو بصرها أيّ شيء، كانت تخبر جميع النساء حولها عن رجال الحيّ، الذين ضايقهم الجنّ عندما كانوا يسلكون طريقهم ليلًا بمفردهم في أزقّة الحيّ المظلمة. كان الجنّ، في كلّ حكاية، يغيّرون أشكالهم، فمرّة يظهرون في صورة بشر، ومرّة في صورة حيوانات، وأحيانًا مجنّحين وكذلك مثل الزواحف. عندما كبُرت علِمت أنّ عمّتها وحيدة وأختيها الكبيرتين أيضًا، استخدمن قوى هذه المخلوقات الخفيّة من أجل تغيير المصير الذي حدّده الله للبشر – على خلاف المذكور في التوراة. لذلك اعتقدت، مثل بقية سكّان الحيّ، بأنّ الجنّ موجودون بالفعل ويعيشون إلى جانبهم، دائمًا وأبدًا، في الأزقّة الضيّقة المظلمة. كما أخبرتها رحمة أنّها تعرف سيّدات يمسحن أرضيّة بيوتهنّ بالماء البارد فقط، لأنّهنّ يعتقدن بأنّ الجنّ سيظهر لهنّ إذا استخدمن الماء الساخن ويصبّ جامّ غضبه عليهنّ.

كان أَدْوَر الوحيد، في محيطها القريب، الذي شكّك في هذه الحكايات وزعم أنّها أوهام سُكارى فقدوا إحساسهم وضلّوا طريقهم ليلًا، ونساء يُعانين الملل تنشر هذه الحكايات في كلّ حدب وصوب وتجعل السُذَّج أمثالها يصدّقونها. لكن، كيف تستطيع تصديق أقوال أَدْوَر؟ فهو الذي يشكّك في كلّ شيء غير وارد في الكتب المقدّسة ولم يذكره الحاخامات. كما لم تكن هناك حاجة إلى مجادلته لأنّ كلّ عبارة عنده تنتهي باقتباس غير مفهوم باللغة المقدّسة أو يقول ببساطة: "غْمَادَة (غير ذي قيمة مثل الرماد)، لا تضيّعي وقتي!" وعندما تحدّث إليها بهذه الطريقة أوّل مرّة، استشاطت غضبًا مثل رياح الصحراء في أيّام الصيف الحارّة التي تعصف بكلّ ما يقف في طريقها، وأرادت أن تصبّ جامّ غضبها عليه بسبب خيبة أملها منه. ذكّرها تصرّفه هذا بالمهانة التي كانت تلقاها من أبيها وأخيها، والتي أَمَلَت أن تنتهي من حياتها بزواجها من رجل مثقّف شجاع مثله. لكنّها فضّلت إخماد غضبها سواء في المرّة الأولى أو في المرّات الكثيرة بعدها. وعندما كانت تفكّر أحيانًا في حياتها، لم تفهم كيف أصبحت هي التي أقدمت على التمرّد على تقاليد العائلة، عصفورًا حبيسًا تحت رقابة مستمرّة من الزوج الذي اختارته لنفسها.

*

هيمنت العمّة وحيدة على كلّ سكّان البيت الأزرق هيمنة لا نزاع فيها، وأصبح الجميع أمامها كأنّهم لا شيء. حتّى أمّها نزيمة كانت تضطرّ إلى طأطأة رأسها أمام أخت زوجها والانصياع لها – على الرغم من أنّها كانت تغتاظ منها لإعطائها المال لحوگـي ليقضي الليالي في حفلات ماجنة مع العاهرات، بدلًا من أن ينام بجوارها. "هذه طريقتها للانتقام منّي لما سبّبته لها في شبابنا من مهانة، عندما فضّلني جميع الخُطّاب

الذين أحضرتهم الخاطبات إلى البيت الأزرق، أنا اليتيمة الفقيرة – على الرغم من الجهاز والمهر الكبير الذي كان خالي، رحمه الله، مستعدًّا لدفعه لمن يرضى بها زوجة له ويخلّصه من نقمته"، قالت ذلك نزيمة ذات يوم لنوريَّة، في الوقت الذي كانت تنثر فيه على جسد رحمة إم كِلُّو البودرة وتنزع بالخيط الشعر الزائد عن جسمها.

"وماذا عن صالح، ابن خالتك المسكين؟ ألم تخبريها؟" غضبت رحمة إم كِلُّو من كلامها، واستدارت نحو نوريَّة، التي كانت خجلة من منظر عورات جسدها المرتخي، وثديي جارتها المحبوبة الهزيلين. "نوريَّة حبيبتي، ماذا أقول لك؟ إنّ حُبّ صالح لأمّك كان مثل الحكايات التي حكيتها لك عن قيس وليلى، وروميو وجوليت. لقد شاء الحظّ السيّئ أن أصبحا يتيمي الأب، لذلك كانا مرتبطين بأفضال خالهما، أبو الـچِّرَگ، والد وحيدة. مسكين صالح! لقد انتظر بفارغ الصبر حتّى تتزوّج السليطة، لأنّها كانت الابنة الكبرى في العائلة، ولم يكن من الممكن تزويج نزيمة قبل وحيدة؛ لكن عندما لم تنجح جميع الخاطبات المراوغات في إخفاء عيوبها، بالرغم من المال الذي يملكه، وعندما رأى الخُطّاب عينيها الصغيرتين، فكّيها المنطبقين ووجهها العابس والطويل مثل الحصان، فرُّوا جميعًا وأرادوا أمّك فقط. ماذا أقول لك؟ عندما كانت تقف وحيدة بجوار أمّك، فإنّها تكون كالظلمة تقف بجوار النور. وحيدة نحيفة مثل □لْعُودَا السُّودَا (العصا السوداء)، ولم ترتسم ابتسامة على وجهها أبدًا؛ لأنّها لم ترغب في أن يشاهدوا أسنانها البارزة. أمّا أمّك، سبحان الله، كانت ضحكتها تُسمَع من على بُعد مثل الأجراس، وكان ترتدي ملابس ملوّنة تُبرز وجنتيها الحمراوين، وجسدها المكتنز، الذي كان يرغب كلّ رجل في الحيّ في أن يعجنه بيديه. وماذا فعل أبو الـچِّرَگ عندما هرب كل الخُطّاب؟ زوَّج صالح المسكين من وحيدة، مع أنّه أصغر منها، وزوّج أمّك من ابنه، حوگـي الكسلان. عصفوران بحجر واحد. هكذا تخلّص مرّة واحدة من أبنائه وحافظ على المال ليبقى داخل العائلة. وما الذي كان بوُسع جدّتك وأم صالح، الأرملتان المسكينتان، أن تفعلاه؟ لا شيء. لقد قرّر أخوهما، ولا يجب مخالفته. واضطُرّتا إلى إقناع نفسيهما بأنّ هذا التزويج صحيح، وكما يقال: الشيطان الذي تعرفه خير من الذي لا تعرفه. من المؤكد أن أم صالح تتقلّب في لحدها أسفًا على ابنها، الذي كان يبدو يومًا ما كالنخلة الباسقة، غزير الشعر، مبتسم الوجه، ذا عينين واسعتين ولامعتين كالماس. لقد مَصَّت السليطة دمّه وجعلته يخمد وينطفئ كالشمعة. حتّى شعره تساقط من فرط تعاسته"، هكذا اختتمت رحمة كلامها، رمشت بعينيها السوداوين الواسعتين، وبدا وجهها المستدير الذي كان دائمًا مضيئًا، عابسًا إلى درجة أنّ الغمّازة التي في ذقنها كانت تبدو أعمق عن ذي قبل. سمعت نوريَّة الحكايات التي كانت مليئة بالتفاصيل بشغف كبير. وعرفت منها، ليس فقط ما يدور في بيتها وبيوت جيرانها، بل مايدور في الحياة في ما وراء الحيّ أيضًا، ذلك الحيّ الذي لم تخرج منه، وبدت لها بعيدة بعد السماء.

بعد موت والد وحيدة اتّضح أنّه حَرَم حوگـي الكسلان من الميراث، وأورث كلّ ماله – بما في ذلك دكّان المخبوزات في سوق حِنُّونِي- لوحيدة، البنت الكبرى، واستحلفها وهو في فراش الموت ويدها اليمنى الكثيرة التجاعيد فوق كتاب التوراة، بأن ترعى العائلة وتحافظ على تماسكها. غضب رجال الحيّ من صنيعه هذا، الذي خرج عن المعهود، وخافوا أن يفتح ذلك بابًا لنساء أخريات ليطالبن بضمّهن إلى ميراث آبائهن. لذلك شجّعوا حوگـي الكسلان على المطالبة بميراثه حسب أحكام التوراة، لكنّه فرح بالحرّيّة التي مُنِحَها كي يذهب لقضاء لياليه في أحضان الراقصات في الكِلاَچِيِّي، في بيت الدعارة في حيّ الميدان، من دون أن يهتمّ بإعالة أسرته.

وبما يليق بمكانة وحيدة، تم تحديد جدول الأعمال في البيت، وحسب رغبتها هي فقط. فقد كانت الأولى في كلّ شيء: في المِكْ□يه (المغطس) البيتيّ وفي المطبخ. في الصباح تكون مشغولة بتجهيز الطعام، وهناك، في المطبخ، في الطابق الأوّل من البيت، كانت تُعدُّ أيضًا مشروبات محظورة وتصنع التمائم لكثير من النساء، اللواتي يتوجّهن إليها طلبًا للمساعدة من أجل تغيير أقدارهن وأقدار الآخرين من دون علمهم. وكان

من بينهنّ نساء متزوّجات أردن تعلّق أزواجهنّ، الذين لم يكونوا سعداء معهنّ، أو فتيات غير متزوّجات أرَدْنَ إجبار الخُطّاب على الزواج منهنّ؛ كما كانت هناك سيّدات أرَدْنَ عمل السحر وإحلال اللعنات والحسد على خصومهنّ.

بعد ذلك كانت تستريح على الكرسيّ الموجود بشكل دائم في □لطَّرْمَة، شرفة المنزل المُظلّلة، في الطابق الثاني وتراقب منها حُجُرات الطابقين الأوّل والثاني، المحيطة بالفناء الداخليّ، والتي كانت تلتهب بتأثير أشعّة الشمس في أيّام الصيف. هكذا استطاعت مراقبة حركة سكّان البيت من مكانها. وكانت تمسك في يد واحدة بعصا مربوط في رأسها جرس، وفي كلّ مرّة تضرب بها الأرض ويُسمع صوت الجرس، كان على نعيمة ومريم ابنتي أخيها، والشقيقتان الكبيرتان لنوريَّة، المثول أمامها وتنفيذ أوامرها، التي كانت تمطرها عليهما كالسيل العارم؛ وفي اليد الأخرى تمسك بمروحة مصنوعة من الكرتون تهشّ بها الذباب من عليها، وتلطّف بها حرارة جسدها، وعندما وُلد أحفادها كانت تستخدم المروحة لتسكتهم كي لا يشوّشوا أفكارها.

في المساء، بعد أن كان ينتهي زوجها وأبناؤها من تناول الطعام، كانت تغمر جسمها، الذي يحظى بالقليل من الطعام الدسم، في المكـ□يه (المغطس) البيتيّ؛ ثمّ تمسك بعدها المصباح النفطي وصُرَّة حلويات وتنزل إلى قبو البيت المظلم الذي كان دخوله مسموحًا به لها فقط، وتبقى هناك ساعات طويلة من دون أن يتبعها أحد.

لم تغادر عتبة دارها منذ أن تزوّجت. "بيتي هو حصني"، هكذا قالت، واعتقدت بأنّ البيت الأزرق يحميها من زحمة الحياة الرهيبة في الخارج. وعندما كبُرت نعيمة ومريم ابنتا أخيها، توقّفت أيضًا عن مصاحبة الأغراب، وأصبحتا مبعوثتيها في كلّ ما تحتاجه. فقابلتا النساء اللواتي طلبن مساعدتها وجهًا لوجه، في الوقت الذي كانت تجلس مختفية وراء ستار، ترشد بنات أخيها ماذا يطلبن من النساء إحضاره لنجح السحر. كانت، في بعض الأحيان، تكتفي بشعرة أو قُلامة أظفر من جسم المراد سحره، وفي أحيان أخرى كانت تطلب صورة له وقطعة من ملابسه أيضًا. كما أنّها هي التي كانت تحدّد تكلفة السحر، وهنّ يجمعن المال. كما اشترين لها بعض الموادّ المستخدمة في السحر أيضًا، التي اشتملت، فضلًا عن موادّ العطارة البسيطة التي كان من الممكن الحصول عليها من أيّ مكان، موادّ خاصّة، مثل: الجلود، المخالب، عيون ودم الحيوانات، وكذلك بعض المساحيق النادرة، التي كان بالإمكان الحصول عليها لدى الشيوخ الرحل في أسواق المسلمين فقط. وفي بعض الأحيان، حسب شدّة اللعنات والطقوس الخاصّة، كانت تطلب منهما أن تحضرا لها ترابًا من المقابر في غاس الچول، عند بداية الصحراء الواقعة خارج الحيّ اليهوديّ. في المقابل كانت تعلّمهما أسرار المهنة المحرَّمة، رغم امتعاض نزيمة. هكذا تعلّمن تركيب المشروبات، وتجهيز التمائم، والوشوشة وإلقاء اللعنات، وحظيتا، بفضلها، بالقوّة وبتقدير النساء اللواتي طلبن مساعدتهما، وفي بعض الأحيان بتقدير أولئك اللواتي خِفْن منهما، ومن مريم خاصّة.

"ممّن تعلّمت التعامل بالسحر الأسود؟ لم تتعامل أيّ من بنات عائلتي بالسحر. كنَّ جميعًا سيّدات طيّبات، تعيسات في حياتهنّ، ولم يؤذين أحدًا أبدًا. حتّى أمّها، المتذمّرة طوال اليوم، لم تضرّ أحدًا"، تعجّبت نزيمة، بصوت مرتفع، أمام جاراتها اللواتي كانت تتشاور معهنّ في كلّ شيء.

وجّهت رحمة إم كِلُّو نظرات جدّيّة للحظة، وارتفع حاجباها إلى أعلى عندما قطّبت جبينها المستدير. بعد ذلك أوضحت لنزيمة، كخبيرة في الأمور التي لا يعرف أحد خباياها، أن التعامل بالسحر الأسود ليس مهنة متوارثة بالضرورة، وأنّ النساء يحصلن على القوّة السحريّة عندما يوافقن على بيع أنفسهنّ للجنّ ويسمحن لهم بدخول أجسادهنّ. "من يدري، ربّما وعدت هَذوكّي □لنّيسْ، هؤلاء الناس، أنه إذا تزوجت ستسمح لهم بالسيطرة عليها لتنتقم من كلّ أولئك الذين لم يرغبوا في الزواج منها؟" قالت ذلك من دون أن تذكر لفظ الجنّ صراحة.

"أنت محقّة"، قالت نزيمة مؤكّدة أقوالها، ومالت إلى الأمام نحو جاراتها كي يستطعن سماع همسها. "الآن أفهم لماذا تخلَّصت بعد الزواج من الملابس الجميلة التي اشتراها لها أبوها لتلقى الخُطّاب بها، ولبست فقط الملابس السوداء، التي غطّت جسدها المتجعّد من أخمص قدميها حتّى رأسها". على الفور انتابها خوف على مصير ابنتيها الكبيرتين، اللتين تورّطتا هما أيضًا بالعمل المحرّم. وعندما أعربت لوحيدة عن قلقها، أسكتتها وأبعدتها عنها صارخة: "حمقاء ثرثارة، احذري من أنّ لا تدفعك كثرة نميمتك كلّ يوم مع جاراتك إلى نبش 'خرائك'".

حتّى زوجها صالح الذي كان يبيع العطارة ويركّب الأدوية من الأعشاب الطبّيّة، طلب منها التوقّف عن التعامل بالسحر الأسود، وحذّرها من المصائب التي ستجلبها عليهم من جرّاء العمل في هذا المجال. "لقد حكم الله على الساحرات بالحرق"، قال متوسّلًا؛ لكنّها نظرت إليه نظرة حادّة وقالت ساخرة: "لم أعلم أنّك تحوّلت، بين عشيّة وضحاها، من عطّار إلى حاخام كبير في التوراة؟ اذهب واطحن الأعشاب الجافّة بدلًا من أن 'تطحن رأسي'".

أثمرت بطن وحيدة ثلاثة أطفال مرضى، لم يَنْجُ بعدهم أيّ طفل من الذين أنجبتهم. هامي، الابن البكر، عانى من التهاب في المفاصل؛ وروبين، الابن الثاني، عانى من مرض عصبيّ؛ أمّا نعيم، الابن الأصغر، فقد عانى من عيب خلقيّ في قلبه، فَمُنِع من الانفعال أو بذل أيّ مجهود. "كل الأمراض التي أصابت أبناءها بسبب سحرها ولعناتها. التدخّل في القدر حرام، لأنّه تحدٍّ لله"، قالت نزيمة لنوريَّة.

جارات نزيمة ناشَدنها مغادرة البيت الأزرق قبل أن تُعاقب هي وأولادها بسبب أعمال وحيدة؛ لكن لم يكن في مقدورها المغادرة، إمّا لعدم وجود مكان آخر تذهب إليه، أو لأنّه لم يكن هناك من يدعمها بدلًا من وحيدة. حتّى عندما كان يعمل حوگـي الكسلان أحيانًا في محلّ الفطائر ويربح بعض المال من عمله أو من سرقة خزينة المحلّ، وفي غفلة من نعيمة، كان ينفق المال على شهواته والاهتمام بمظهره. إذ كان يحب التأنّق في ملبسه، وتعطير جسمه البدين، وصبغ شعره وحاجبيه وشاربه مرّة في الشهر ليخفي الشيب الذي كان يهدّد بكشف عمره. فمنذ أن مات أبوه تجاهل تمامًا مسئوليّاته تُجاه أطفاله، وعندما ولدت يعقوب، بعد ثلاث بنات، توقّف أيضًا عن إشباع رغباتها والمبيت في فراشها. كانت القروش التي تكسبها من إزالة شعر جسد جاراتها بالكاد تساعدها في شراء الخبز والقشطة (القيمر)، والزبدة للفطور، ولولا وحيدة لقضت هي وأطفالها جوعًا منذ وقت طويل.

عندما كبرتا، نعيمة ومريم، أختي نوريَّة الكبيرتين، قرّرت وحيدة تزويجهما لهامي وروبين. ولقد سعد حوگـي الكسلان بأنّه لن يكون في حاجة إلى دفع مهر لهما، أمّا نزيمة فقد انطوت على نفسها لأنّها لم تنجح في تزويج ابنتيها لأزواج من خارج العائلة، لتخرجهما من هذا البيت الملعون.

كان قلب نزيمة ينفطر عندما كانت ترى تدهور الحالة الصحّيّة لهامي وروبين، والأمراض تنهش كل جزء سليم في جسديهما. فقد كان وجهاهما يشحبان من عام إلى آخر، كاشفين عن عيون غائرة وعظام وجه بارزة، وأنفاهما المقوّسان زادا بروزًا حتّى أصبح وجهاهما يشبهان الموت؛ وحتّى هي التي أشفقت عليهما، اضطرّت إلى الإشاحة بنظرها عنهما. لم تنجح كلّ محاولات وحيدة في إشفاء أبنائها بمساعدة قواها، حتّى أعشاب صالح الطبّيّة لم تفلح. "إنّ قوى وحيدة الشرّيرة أقوى من قوى الخير عند صالح، وهي قادرة فقط على الإضرار بأبنائها المساكين، لا الإحسان إليهم"، قالت نزيمة لنوريَّة ببساطة، كلّ ما علمته من رحمة إمّ كِلّو.

عندما وُلدت نوريَّة قبل خمس عشرة سنة من اليوم الذي رفضت فيه الزواج من نعيم، كان ذلك ثالث يوم حداد لنزيمة لأنّها لم تستطع إنجاب الولد لحوگـي الكسلان، وأن تسير منتصبة القامة مثل بقيّة النساء اللواتي أنجبن الذكور. وقفت نساء الحيّ بجوار فراشها معزّيات ومتمنّيات لها أن تنجب الولد المنشود في

العام المقبل. كان ذلك يوم عيد بالنسبة لوحيدة، لدرجة أنّها استبدلت، ليوم واحد، ملابسها السوداء بأخرى بيضاء. لقد بعث فيها جمال نوريَّة المتميزّ الأمل بأن تنجب الطفلة التي انتظرتها طوال السنين. فبعد ولادة نعيم أجهضت ستّ بنات، لذلك فكرت أنّه من العدل أن تطلب من نزيمة أن تسمح لها بتربية الطفلة كابنة لها. فدخلت غرفة نزيمة مهتاجة وطردت نساء الحي من جوارها، كي لا يكنَّ في صحبتها.

"أعطني الطفلة، وأنا سأربّيها كما لو كانت ابنتي. لم ينعم عليّ الله بالبنات، ولديك بنتان وعليك تجهيز مهريهما، وإذا لم تُرضعيها، يمكنك الحمل على الفور وإنجاب الولد، الذي لطالما تمنّيْته"، قالت محاولة إقناع نزيمة، وفتحت جفنيها المجعّدين لأوّل مرّة عن آخرهما كاشفة عن عينين بنّيّتين مع بقعة سوداء في المنتصف. ولتأكيد صدق كلامها أخذت نوريَّة في يديها وأخرجت ثديًا هزيلًا يابسًا لإرضاعها، لكن وجه وحيدة الجادّ أخاف الطفلة التي انفجرت بالبكاء. جذبت نزيمة الطفلة إليها بقوّة وطلبت من وحيدة الخروج من غرفتها، لكنّ وحيدة رفضت المغادرة وعادت وطلبت من نزيمة أن تعطيها نوريَّة لإرضاعها.

"أمجنونة أنت؟ كيف يكون حليب في ثدييك ونعيم قد بلغ من العمر أربع سنوات"، قالت نزيمة محاولة إبعاد وحيدة عنها.

دخل صالح الذي سمع صراخ نزيمة بسرعة إلى الغرفة وسأل وحيدة: "لماذا تصرخين على نزيمة هكذا؟ ألا تخشين أن يوقف ذلك حليبها؟" واشتعلت عيناه غضبًا.

"أخرِجها من هنا. إنّ سحرها يدفعها إلى الجنون. إنّها تريد أن تأخذ الطفلة منّي وترضعها"، طلبت نزيمة من صالح، الذي جذب وحيدة بكلّ ما أوتي من قوّة وأخرجها من غرفة نزيمة. "هذه الطفلة ابنتي. كيف لهذه البدينة، التي تثرثر طوال اليوم مع الجارات النمَّامات كالدجاج، أن تلِد طفلة جميلة جدًّا عيناها خضراوان؟ فنعيمة ومريم تبدوان كالفحم الأسود. هذه الطفلة ليست لها. هي ابنة الله، وهو أرسلها إليّ. دعني أعود وآخذها"، سمعت نزيمة وحيدة تجادل صالح خارج الغرفة، ولأوّل مرّة سُمِعَ صوتها الذي كان جادًا دائمًا، هشًّا متكسَّرا؛ لكنّ صالحًا الذي اضطرّ طوال سنوات زواجه إلى تحمّل الإهانات من وحيدة، قال لها: "البنتان الأوليان تشبهان حوگـي الكسلان – أمّا نوريَّة فقد جاءت جميلة مثل أمّها".

"ابن حلال"، قالت نزيمة في نفسها من فرط سعادتها بِرَدّ صالح، الرجل الوحيد في العائلة الذي كان يُحسن معاملتها. إذ إنّه في كلّ مرّة يراها تقف محتارة في طرف سوق حِنُّونِي، بعد أن ضربها حوگـي على رأسها وأخذ النقود التي أعطتها إيّاها وحيدة لتشتري الجاجيّات من السوق؛ متسائلة ماذا يمكنها أن تشتري بما تبقّى لها من قروش قليلة، كان يخرج من دكّانه عطارته في السوق ويأخذ الزنبيل منها، ويطلب منها الانتظار في دكّانه، ثمّ يعود بعدها بالزنبيل وقد ملأه بالفاكهة والخضروات واللحوم.

ردًّا على كلمات صالح عادت وحيدة إلى طبعها، وضربته بعكّازها صارخة: "أتريد القول إنّ هذه السمينة جميلة وأنا وأخي قبيحان؟ عرفت دائمًا أنّك ما زلت معجبًا بها. سأدقّ عنقك إذا تجرّأت على الاستهزاء بي مرّة أخرى".

ابتعد صوت وحيدة فأدركت نزيمة أنّها نزلت إلى القبو لتكون في صحبة الجانّ. استغلّ صالح الفرصة، ودخل إلى حجرة محبوبته نزيمة وقال لها بعيون مُداعبة ومهدّئة: "لا داعي للخوف منها. فبالرغم من تعاملها بالسحر، إلّا إنّها لن تضرّ أبدًا أفراد عائلتها، لأنّها أقسمت على ذلك لأبيها قبل وفاته". مع ذلك كانت نزيمة قلقة. عملًا بنصيحة جاراتها كانت تحذر من إخراج نوريَّة من الحجرة، وكانت تلبسها تميمة زرقاء بها سبع عيون، لتحميها من الأرواح الشرّيرة ومن عين وحيدة.

مرَّ أسبوع، وبدت وحيدة هادئة ثانية، بل إنّها عادت لترتدي ملابسها السوداء. ذهبت إلى حجرة نزيمة وسألتها بقلق: "لماذا لا تُخرجين نوريَّة من الحجرة؟ يجب أن تتعرّض لضوء الشمس وإلّا مرضت". لم

تُجبها نزيمة، واصلت وحيدة كلامها قائلة: "ممَّ تخافين؟ فلن تستطيع أيّ عين شرّيرة دخول هذا البيت. فأنا أحميكم. فأنتم أهلي". نظرت إليها نزيمة وتذكّرت كلمات صالح.

"أما زلت ترغبين في أخذ نوريَّة منّي؟" سألتها متردّدة.

"نوريَّة ابنتك وابنة أخي، لذلك هي مثل ابنتي. دعيني أحملها ولا تقلقي. كيف يمكنني أن أضرّ هذا الملاك؟ فالدم نفسه يجري في عروقنا، وأنتِ تعلمين الدّمْ ما بِنْقَلِبْ مايْ، أي أنّ دم الأقارب لا يتحوّل إلى ماء "، قالت وحيدة، ووقف صالح وراءها وأومأ برأسه لنزيمة. ابتسمت الطفلة نوريَّة لوحيدة، ولأوّل مرّة تنفرج أسارير وجه وحيدة العابس.

*

لم يختلّ روتين الحياة في البيت الأزرق حتّى ذلك اليوم الذي قرّرت فيه وحيدة أنّه يجب إكمال الصورة العائلية وتزويج نوريَّة من نعيم، "مثلما تزوّجت نعيمة ومريم من هامي وروبين"، قالت بصوتها الجهور. توتّرت نوريَّة من كلام عمّتها، فهي لا ترغب في العيش مثل أختيها وأن تكون مكبّلة بما تمليه عليها التقاليد، من دون حرّيّة الاختيار لنفسها كيف ومع من تعيش. لقد أشفقت على أختيها اللتين اضطرّتا إلى رعاية زوجين مريضين والتعامل مع استبداد حماتهما وحيدة. فهي حلمت طوال عمرها باللحظة التي تختار فيها عريسها لنفسها من بين أولئك الذين سيجيئون لطلب يدها؛ لأنّها كانت واثقة من أنّه لجمالها، سيتنافس العرسان في ما بينهم على شرف الزواج منها، وأنّهم سيكونون مستعدّين لطلب مبالغ قليلة مهرًا لها. لقد أرادت أن يكون عريسها مختلفًا عن رجال الحيّ، الذي يقضون وقتهم في لعبة الطاولة والدومينو، في المقاهي، وفي السكْر ومصادقة العاهرات في الملاهي الليليّة في أحياء المسلمين. "سيكون زوجي مختلفًا. سيعرف كيف يحترمني، ولن يكمِّم فمي أو ينتظر منّي أن أكون جارية له ولأمّه"، قالت في نفسها، وحلمت بالزوج الذي سيأخذها لمشاهدة العالم خارج الحيّ، ويتجوّل معها على نهر دجلة ويطعمها سمك مزگـوف (مشويّ)، مثلما أخبرتها رحمة إمّ كِلُو عندما كانت صغيرة وألهبت مخيّلتها منذ ذلك الحين.

حتّى نزيمة عارضت هذا الزواج. "يجب أن تخرجي من هذا البيت وتغيّري طريقة حياتك، ليكون مصيرك أفضل من مصيرنا. فنحن لا أمل فينا"، عادت لتقول ذلك لنوريَّة عندما كبرت وأصبحت فتاة. انصاعت نزيمة لإمرة أمّ وحيدة طوال حياتها في البيت الأزرق، ومن بعدها لوحيدة. فلم يكن لديها خيار، فبعد موت أبيها طردتها عائلته هي وأمّها من بيتهما كي لا يضطرّوا إلى الإنفاق عليهما. وكأرملة، كانت مكانة أمّها في الحضيض، وبعد أن فقدتا معيلهما، اضطرّتا إلى العودة إلى البيت الأزرق، ليعيلهما أبو وحيدة، الأخ الأكبر لأمّها. مقابل المأوى والغذاء الذي وفّره لهما، اضطرّتا إلى العمل خادمتين تحت إمرة زوجته. ولم يغيّر زواجها بحوگـي الكسلان من وضعها، بل وجدت نفسها أسيرة لمعروف وحيدة من أجل إعالة أطفالها. لذلك، قرّرت أن تساند نوريَّة هذه المرة وتعارض وحيدة – حتّى إذا كانت لقرارها هذا عواقب وخيمة. فمن ناحيتها، هي مستعدّة للموت جوعًا – المهمّ هو أن تنقذ نوريَّة من مصير مشابه لمصير أختَيها. كما أنّها وفّرت بعض المال خِلسة من أجل مهرها – على الرغم من أنّها كانت واثقة من أنّ من سيشاهد جمالها سيكتفي حتّى بالثوب الذي ترتديه.

تجرّأت نوريَّة بتشجيع من أمّها على أن تقول لوحيدة في ذلك اليوم أمام كلّ أفراد الأسرة: "ليس لنعيم أيّ حقّ فيّ. أنا فقط من سأختار زوجي لنفسي". وجمت وحيدة للحظة، فقد فوجئت بردّ فعل نوريَّة، التي أحبّتها ورعتها كابنة لها. وبعد أن أفاقت من الصدمة، بدأت في الصراخ على حوگـي بغضب شديد؛ لأنّه سمح لابنته بأن تتصرّف معها بوقاحة. قام حوگـي الكسلان، الذي كان يخشى أن تتوقّف أخته عن مساعدته، بخلع حذاء قدمه اليمنى وضرب نزيمة على رأسها بكل ما أوتيَ قوّة، قائلًا بغضب شديد: "كلّ شيء بسببك أنت، عَقُوبَه صِفْغَا (عقرب أصفر). جعلتيها تتمرّد على أختي الكبيرة. سأحطّم رأسك، إذا لم

تتزوّج هذه الوقحة من نعيم. من أين لي بالمال لأدفع المهر؟" أمّا مريم التي كانت أكبر من نوريَّة بسنة واحدة فقط، لكنّها أقصر منها بقدر رأس على الأقل، فقد انقضّت على أختها الصغيرة ووبّختها على تصرّفها الوقح مع من هو أكبر منها سنًّا. "لماذا تريدين دائمًا أن تكوني مختلفة؟" صرخت فيها، وسبّبت رائحة البخور التي فاحت منها واختلطت برائحة الطبيخ التي التصقت بملابسها المتّسخة؛ الغثيان لنوريَّة.

حاولت نزيمة إنقاذ نفسها من غضب زوجها الكسلان، لكنّها تعثّرت على أرضيّة الفناء بكلّ ثقلها، وقد جعلت تأوّهاتها صالح يقفز من مكانه، وأراد الاقتراب منها ومساعدتها، لكنّ عينيّ وحيدة جعلته يتسمّر في مكانه. أبعدت نوريَّة عنها أختها السمينة برائحتها، وهرعت إلى أمّها لتخليصها من أيدي أبيها. وساعدتها، بصعوبة، في النهوض عن الأرض، لكنّ نزيمة بدلًا من أن تشكرها سارعت إلى إخراج كل ما أضمرته في قلبها طوال السنين وانقضّت على وحيدة بالصراخ: "أين رحمتك؟ الطفلة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا. أنا لا أوافق على أن تترمّل يوم زفافها. ألا تكفي معاناة نعيمة ومريم، فبدلًا من السعادة والاستمتاع بشبابهما تضطرّان إلى رعاية زوجين مريضين وأصبحتا خادمتين لك؟"

حاولت وحيدة أن تكمّم فم نزيمة بالقوّة بيدها الهزيلة، لتتوقّف عن الكلام، لكنّ نزيمة أزاحت يدها واستمرّت في الصراخ قائلة بغضب شديد: "قلب ابنك ضعيف. ولن تساعده تمائمك وأعمالك السحريّة، مثلما لم تنجحي في إنقاذ هامي وروبين المسكينين. كلّ ذلك لأنّك بعتِ نفسك لهَذوكّي □لنّيسْ...".

عادت وحيدة وكمّمت فم نزيمة، ونجحت في ذلك هذه المرّة. "لقد قرّرت أن تتزوج نوريَّة من نعيم، وليس لأحد أن يخالف ما أقول. سأدقّ عنق كلّ من يجرؤ على معارضتي. لن أسمح لأشخاص أغراب بأن يدخلوا بيننا ويفكّكوا عائلتنا"، لوّحت بعصاها وضربتها في الأرض بقوّة شديدة لدرجة أنّ الجرس الذي كان مربوطًا بها انفلت من مكانه، وتدحرج على الأرض ساقطًا في بالوعة الفناء.

خرج حوگـي الكسلان من المطبخ حاملًا سكّينا حادّة، وبدأ بمطاردة نوريَّة، وهو يصرخ: "إذا لم تتزوّجي من نعيم سأذبحك الآن كالخروف"، هدّدها وطار شعره، الذي كان حريصًا عليه دائمًا، في كل اتّجاه من شدّة الغضب كاشفًا عن ندبة داء الليشمانيّات الجلديّ التي جعلت شكل جبينه بشعًا. دفعت نزيمة وحيدة بعيدًا عنها وحمت نوريَّة بجسدها الكبير. أمّا صالح فقد نجح في إسقاط حوگـي الكسلان على الأرض قبل أن يصل إلى نزيمة وأخذ السكّين من يده، في حين ساعدت نزيمة نوريَّة في الهرب إلى داخل غرفتها. بعد ذلك فتحت نزيمة بوّابة البيت المؤدّية إلى الزقاق، الذي امتلأ بالنساء الفضوليّات، وعلى رأسهنّ رحمة إمّ كِلُّو، ورمت لزوجها قطعة نقديّة فضّيّة ونادته طالبة منه المغادرة والذهاب إلى راقصاته. نهض حوگـي الكسلان عن الأرضيّة وأخذ القطعة النقديّة واختفى من البيت بسرعة.

قبل أن تختفي نوريَّة في الطابق الثاني، صرخت فيها وحيدة متوعّدة إيّاها. حتى مريم لم تهدأ، فركضت باتّجاه أمّها ووبّختها بصوتها النشاز لأنّها تترك نوريَّة تصنع ما يحلو لها. فدفعتها نزيمة عنها وسارت بخطًى سريعة، بالرغم من ثقل جسمها، نحو حجرة نوريَّة. هناك هدّأتها ووعدتها، بصوت يحمل ثقل أنفاسها ووجه احمرّ من أثر الإجهاد، بأنّها لن تدع هذا الزواج يتمّ، لكنّ كلامها لم يهدّئ نوريَّة، التي طلبت الخروج من البيت لتلتقط أنفاسها.

"انتظري لحظة، سأرى ما الذي يحدث في الطابق الأسفل"، أوقفت نزيمة نوريَّة ونظرت من الشرفة نحو الفناء. رأت وحيدة تهمس سرًّا إلى مريم، التي سارعت بعد ذلك إلى الخروج من البيت؛ أمّا وحيدة، فقد نزلت إلى القبو – على غير عادتها في ساعات الصباح- حتّى من دون أن تغتسل في مغطس البيت. "تُرى ما الذي تتآمران فيه!" توجّست خيفة في قلبها. لقد سئمت مذلّة وحيدة لمريم، خاصّة منذ أن اضطُرّت نعيمة إلى العمل في دكّان الفطائر إلى جانب زوجها الذي لم يكن يستطيع الوقوف ساعات طويلة على قدميه، فأصبحت مريم اليد اليمنى لوحيدة في إدارة شؤون البيت والتعامل بالسحر.

البنتان الكبيرتان لا تشبهان نوريَّة إطلاقًا، فنعيمة نحيفة للغاية، وكانت ترتدي ملابس كبيرة المقاس، فتبدو كما لو كانت معلّقة على شمّاعة. أمّا وجهها القمحيّ، الذي يخلو من أيّ زينة، فكان مرهقًا دائمًا ومغتمًّا، كما لو كانت تحمل على كاهليها أحزان العالم كلّها. فهي تصحو في الصباح الباكر، قبل صياح ديك البيت، وتخبز مع وحيدة وهامي، قبل أن تخونه قواه، مختلف أنواع المخبوزات حسب أيّام الأسبوع والطلبات الخاصّة للزبائن. ذلك بالإضافة إلى الچّرَگ (الخبز الحلو)، وال زنْگـولَة (عجينة على شكل قوقعة مقليّة بشراب السكّر وماء الورد)، التي كانت من مخبوزات البيت منذ أيّام والد وحيدة، الذي كان لقب عائلته "چّرَگ" نسبة إلى هذا الخبز الحلو، الذي كان يخبزه بنفسه. كانت تخبز في أيام الأسبوع الأولى البقصم (مخبوزات طريّة للشاي)، والبِعبِع بالتمر (مخبوزات محشوّة بالتمر)، والسمبوسك بالجوز، السمبوسك باللوز، والشكرلمة (فطائر الجوز). أمّا في يوم الخميس، فكانت تخبز أنواعًا مختلفة من البقلاوة، وفي أيّام الأعياد، وحسب الطلبات الخاصّة، كانت تخبز كعكات خاصّة ليوم ختان الأطفال في عمر الثمانية أيّام، والحلقون، واللوقم، واللوزينة (الملبن). كان حميد، الشيّال الكرديّ، في خدمتها يحمل المخبوزات على رأسه في الصباح إلى الدكّان، وفي نهاية اليوم يحمل الصواني الفارغة عائدًا إلى البيت الأزرق. كانت نعيمة تعطي كلّ ما تكسبه من بيع المخبوزات لوحيدة. كانت نعيمة قليلة الكلام، ومصيبتها مريرة كاللعنة بالنسبة لنزيمة، التي لم تعرف كيف تساعدها، لأنّها هي أيضًا–نعيمة- كانت تحت سيطرة حماتها وحيدة. أمّا مريم، فقد كانت قصيرة القامة، تختفي رقبتها في لحمها الغليظ. والملابس التي ترتديها صارخة تظهر تفاصيل جسمها. لقد اعتادت التبرّج بشكل مُلفت، لدرجة أنّ نزيمة اعتقدت بأنّ حيوانات حوگـي المنويّة قد تلوثت بدم العاهرات اللواتي يقضي معهنّ الليالي، واختلطت بدمها عندما آوى إلى فراشها؛ وهكذا جاءتها البنت التي بدت مثل عاهرة بوجه غراب. كانت في كلّ مرّة تصادفها، تبصق على صدرها لتطلب المغفرة من الله على عدم قدرتها على حبّها لها.

شتّت ثورة الغضب التي اجتاحت نوريَّة انتباهها حين خرجت من البيت لتهدأ من الضجيج الذي أحاط بها، ومن دون أن تدري وجدت نفسها تسير نحو المناطق الإسلاميّة المحاذية للأزقّة المجاورة لبيتها، والتي كانت محرّمة بالنسبة للفتيات اليهوديّات.

ثلاثة من الشباب المسلمين كانوا يجلسون في مدخل أحد البيوت ولا شاغل لهم، اقتربوا منها حين لاحظوا أنّها تسير بمفردها مسرعة بين الأزقّة الخالية، من دون أن يصحبها رجل. لم يتردّد أحدهم واقترب منها وجذبها من يديها وضمَّها إليه. فأحاطتها رائحة عرق كريهة وسجائر رخيصة. تراجعت نوريَّة بخوف من لمساته الغاصبة لها، فصرخت طالبة منه أن يتركها. احمرّ وجهها من الألم واحتبست أنفاسها. حاولت بكلّ قوّتها التحرّر من قبضته، لكنّ أصدقائه انضموا إليه وحاصروها. رفعت قبضة يدها بغضب وحاولت ضربهم، غير أنّ مقاومتها ما لبثت أن زادت من حماستهم، فصفعوها على وجهها، وأغلقوا فمها وجذبوها إلى ركن خفيّ بين بيوت الزقاق. شمّر أحد الفتية قميصه وجذب سروالها الداخليّ، في الوقت الذي أمسكها الآخران. فجأة ظهر من داخل الحارة الخالية، شابّ قويّ البنية واقترب منهم، ومن دون أن ينبس ببنت شفة، رفع ذراعه وأمسك برقبة الفتى الذي حاول التمدّد فوقها. فجذبه من فوقها وضرب برأسه الأرض. تركها المسلمان الآخران ليضربا هذا الشابّ، الذي صرخ نحوها بلهجة عربيّة يهوديّة:

"نوريَّة، أُهربي!"

كانت نوريَّة مذهولة للحظة، لكنّها سرعان ما استفاقت، فرفعت سروالها الداخليّ وهربت من هناك للنجاة بحياتها. حتّى أنّها لم تجرؤ على الالتفاف برأسها إلى الخلف لتحفر في ذاكرتها صورة الشاب الذي خلّصها. بعد لحظات معدودة، مرّت عليها كالدهر، وصلت إلى بيتها بأنفاس متقطّعة وصعدت إلى حجرتها، وصدرت من رئتيها أصوات حشرجة تصمّ الآذان، وغلبها القيء فأسرعت نحو الدلو الموضوع

في زاوية الحجرة، وتقيّأت فيه كلّ ما في جوفها. ولحُسن حظّها، لم يكن أيّ من أفراد العائلة في البيت. فوحيدة ما زالت في القبو، وأختاها خارج البيت، أمّا أمّها فقد كانت تتسامر مع جاراتها لتتعلّم منهنّ كيف تتعامل مع وحيدة. خلعت ملابسها المدنّسة بسرعة وألقتها في صندوق القمامة، وكحتت جسمها حتى سال الدم منه في داخل طست فيه ماء بارد، وفكّرت في الشابّ الذي أنقذها من الاغتصاب، وعجبت لمعرفته اسمها وأصلها اليهوديّ، وأسفت على أنّها لم تستطع رؤية وجهه.

في الأيّام التي تلت الحادث، لم تجرؤ على الخروج من البيت، ولم يتصوّر أيّ من أفراد العائلة ما يجيش في صدرها. حمدت الله على كلّ يوم يمرّ من دون أن يُفتضح أمرها، وتمارضت كي تكفّ أمّها عن طرح الأسئلة عليها، لكنّ نزيمة سارعت إلى ربط سبب مرضها بعمّتها وحيدة وكانت منزعجة من أن تكون قد بسحرتها.

بعد مرور بضعة، أيام لم تستطع نوريَّة كبح فضولها ورغبتها في اكتشاف مُخلِّصها المجهول، الأمر الذي جعلها تخرج إلى أزقّة الحيّ محاولة البحث عن أيّ علامات أو إصابات على رجل غريب، عن نظرة مَهانة أو شموخ، تساعدها في التعرّف إلى الشابّ الذي أنقذها. لكنّ الشباب الذين شاهدتهم في الشوارع نظروا إليها كعادتهم بعين جائعة مغازلة. تجوّلت، كسرنميّة، باحثة عنه وكلّما مرّ الوقت دون أن تجد هذا الشابّ، زادت مخاوفها من أنّ الشباب المسلمين الثلاثة قد قتلوه في الزقاق في ذلك اليوم، واختفت جثّته. أفزعتها هذه الهواجس، لكنّها مع ذلك استمرّت في البحث عنه ولم تيأس.

هُيّئ لها ذات يوم أنّها وجدت ضالّتها. كان ذلك في الصخب الذي يميّز الشارع الرئيسيّ، الذي يغصّ بالعربات والبائعين، الذين ينادون على بضاعتهم التي يحملونها على ظهورهم المحنيّة، أمام المارّة. في هذا اليوم قابلت شابًّا ذكّرها وجهه سريعًا – الذي كان مليئًا بالخدوش والكدمات- بشكل الشابّ القويّ الذي أنقذها. نظر الشابّ إليها أيضًا، فخفق قلبها وقالت في نفسها "هذا بطلي". واحمرّ وجهها من الانفعال. تجمّدت في مكانها وتردّدت في الاقتراب منه وشكره على عمله النبيل. وفي النهاية، تشجّعت وكانت على وشكّ التوجه إليه، فظهرت أمامها فجأة مجموعة من الجنود في الزيّ العسكريّ العسمليّ، التركيّ، الذين ضربوا بعصيّهم كلّ من وقف في طريقهم، وقلبوا بسطات البائعين. وبعد إن ابتعدوا، اكتشفت أنّ الشابّ قد اختفى ولم تنجح في العثور عليه مرّة أخرى.

وفي اليوم التالي انتظرته في المكان نفسه وفي التوقيت نفسه. ويا لسعادتها بعد أن وصل وتقدّم منها، لكنّها تردّدت مرّة أخرى، وجالت في ذهنها أفكار الأمس نفسها مرّة أخرى. لقد أرادت أن يُبدي لها أيّ علامة على أنّه هو ذلك الرجل، أن ينظر في عينيها، أو ربّما يبتسم لها. لكنّه تجاهلها هذه المرّة أيضًا. لم تستسلم نوريَّة، وفي اليوم الثالث تشجّعت مرّة أخرى، وعندما توجّه إليها في الزقاق الضيّق وقفت أمامه وسدّت طريقه. رفع الشابّ عينيه إليها، ولم تترك نظرته أيّ مجال للشكّ في أنّه يذكرها.

"شكرًا!" قالت له.

"على ماذا؟"

"لأنّك أنقذتني".

"فقط قمت بواجبي"، ردّ ببرودة، وعدّل الفيس (الطربوش) الأحمر التركيّ، المخروطيّ الشكل والمقطوع، ذا الشرّابة السوداء، على رأسه واستمرّ في طريقه. وقفت محرَجَة ومحبَطة، وتمنّت في داخلها ألّا ينظر إليها كفتاة غير محترمة سهلة المنال، تقترب من الرجال في الشارع، وأنعمت النظر في ظهره الذي يبتعد عنها.

في الأيّام التالية تابعته من بعيد وحاولت التعرّف إليه أكثر، ومعرفة الطرق التي يسلكها. لقد كان فيه شيء

مختلف عن بقيّة الشباب، الذين يتسكّعون، ويضيعون أوقاتهم في المقاهي وفي أحاديث لا جدوى منها. فهو لم يندمج معهم، وكان وجهه المربّع عابسًا، ونظام يومه روتينيّ بل ومملّ. كان يذهب كلّ صباح، بعد صلاة الفجر، إلى العمل في ورشة غزل شباك الصيّادين، يحمل بيدٍ كسرة خبز وباليد الأخرى كتاب الصلوات، ثمّ يعود إلى بيته قبل صلاة المساء. ولم تره أبدًا يقف عند المقاهي. وكان في بعض الأحيان يقف على جانب الطريق، ويخرج من جيب قميصه علبة تبغ صغيرة ويقرّبها من أنفه. من التفاصيلِ القليلة التي نجحت في جمعها عنه، عرفت كيف جاء إلى الحيّ مع والديه قبل شهور قليلة فقط، وأن اسمه أَدْوَر. أحبّت على الفور الاسم صاحب النغمة الغريبة، الذي يناسب في نظرها شخصيّة فارس الأحلام، كما هو في قصص رحمة؛ لكنّ أحدًا في الزقاق لم يكن يعرف شيئًا عن والدي أَدْوَر أو أصلهما؛ حتّى رحمة إم كِلُو.

وما أن أدركت نوريَّة أنّه الرجل الذي قُسم لها، قرّرت التوجّه إليه مرّة أخرى. هذه المرّة تعطّرت، ازدانت بالحليّ ولبست أجمل ثيابها. حتّى إنّها خرجت عن عادتها ووضعت خلسة كِحِل في عينيها وأحمر شفاه على شفتيها. ولحسن حظّها لم يرها يعقوب أخوها الصغير، ولو رآها لكان أوسعها ضربًا وصرخ في وجهها: "التزيّن عندنا بعد الزواج فقط". إلّا إنّ محاولاتها لفت انتباه فارسها لم تفلح، وعندما مرَّ أمامها لم يلتفت إليها نهائيًّا واستمرّ في طريقه، فاغتاظت لتجاهله لها ومسحت، بكُمّ فستانها أحمر الشفاه من على شفتيها، عادت إلى البيت وحبست نفسها في حجرتها رافضة تناول الطعام.

"أنا مريضة!" قالت متذرّعة لكلّ من سأل عن حالتها.

وضعت أمّها يدها على جبينها بقلق.

"لا ارتفاع في حرارتك!" قالت لها وأزالت البطّانيّة عنها، "قومي! فليمُت الحُسّاد! هذا حسد. كلّ ذلك لأنّك لم ترغبي في الزواج من ابن التي لا أريد ذكر اسمها، كي لا تثير أصدقاءها الذين لا أريد ذكر اسمهم. أنت لست مريضة. لتُفقأ عين كلّ حسود أصابتك!" صرخت بصوت مرتفع لتسمعها وحيدة.

وخلال دقائق جهّزت طنجرة صغيرة، فيها بخور مشتعل، ومررتها فوق رأس نوريَّة وجسمها، وهمست بسرعة بكلمات متقطّعة غير واضحة، وناشدت الملائكة بحماية ابنتها من الجنّ الشريرّ. بعدها أوقفتها على قدميها وطلبت منها المرور فوق الإناء سبع مرّات. انتشرت رائحة البخور القويّة في أنحاء البيت والتصقت بجسمها، وبعد أن وضعت الإناء في مدخل الحجرة، مشّطت نزيمة شعر نوريَّة وجدلته سبع جدائل- هكذا نصتحها جاراتها لمقاومة سحر وحيدة. نفّذت نوريَّة كلّ أوامر أمّها من دون أن تنصت إليها وفكّرت فيه هو فقط، في أَدْوَر، فارسها الخاصّ- الرجل صاحب الوجه الأبيض، والشعر الفاتح اللون، والعيون العسليّة والبنية القويّة، والطول الفارع.

لم تتصوّر نوريَّة أنّ الانجذاب بينهما كان متبادلًا، وأنّه أرادها أيضًا، لكنّه لخجله امتنع عن الردّ على محاولاتها التقرّب منه؛ لكن عندما سمع في الورشة عن نيّة أحد العاملين عرض الزواج عليها، فطلب من أمّه التوجّه بسرعة إلى بيت نوريَّة لتسبقه وتطلب له يدها له. فوجئت نزيمة بسماع طلب جارتها الجديدة من دون وساطة الدلّالة - خاصة عندما يكون الكلام عن شابّ كان غريبًا عنها ولا تعرف شيئًا عن أخلاقه أو عائلته. سعدت أنّ وحيدة كانت مشغولة في المطبخ ولم تلحظ مجيء الضيفة غير المنتظرة، لكنّها خافت أن ترفض نوريَّة هذا العريس أيضًا، وردّت على أم أَدْوَر في حرج بأنّها سوف تتشاور مع زوجها، ثمّ تُبلغها بالردّ على طلبها. وفور مغادرتها حدّثت ابنتها، بخوف، عن العريس. لم تعرف نوريَّة كيف تُخفي سعادتها ووافقت على الفور، ومن فرط دهشة أمّها عادت لتفحص جبينها مرّة أخرى للتأكّد من أنّها ليست مريضة.

*

أفاقت نوريَّة من ذكرياتها ونظرت إلى عينيّ أدْوَر العسليّتين، باحثة فيهما عن نظرة العاشق التي أحاطتها يوم خطوبتهما، لكنّ هذه النظرة اختفت كأنها لم تكن، ورائحة التبغ التي تفوح منه تسبّب لها الغثيان. لقد دُهشت على مدى سنوات طويلة من كيفيّة استيلائه على قلبها وهو الرجل الأشهب المقيت الذي يتحدّث ويبتسم باقتضاب، وإذا فتح فاه ليتكلّم فإنّه "يتبّل" كلماته بعبارات باللغة العبريّة من المصادر اليهوديّة، التي لا تفهم معناها في معظم الأحوال. وعلى الرغم من كلامه القاسي، إلّا أنّها كانت تُجهِّز له المائدة وتناديه لتناول الطعام؛ لكن أدْوَر كان يقترب من المائدة بغضب ويرفع يديه ويجذب المفرش بقوة، ويلقي بكلّ الطعام الموضوع عليها على أرضيّة الحجرة، من دون تردّد.

"لا أريد الأكل من مالك الحرام"، قال صارخًا.

صمتت نوريَّة، لأنّها لم ترغب في تأجيج نار الخلاف في البيت، لا لخجلها من سماع الجيران صراخ أدْوَر، بل خوفًا من شماتة بنات العائلة اللواتي يسكُنّ في البيت الأزرق المجاور لها. نظرت إلى زوجها، الذي أصبح الآن كالرجل الغريب بالنسبة إليها، وكان من الصعب عليها التصديق أنّ ذلك الرجل الهادئ، أصبح عنيفًا حادّ المزاج. شعرت بالأسى فغربت عن وجهه وحبست نفسها في غرفتها.

.3

امرأة صغيرة تلفّ نفسها بعباءة وتغطّي وجهها بطرحة سوداء من الحرير، طرقَت باب البيت في الصباح الباكر. خرجت إليها نوريَّة، وعندما أماطت المرأة الطرحة عن وجهها، تعجّبت لاكتشافها أنّ زيزي هي التي أمامها، من دون زينة، غير نضرة، وعيناها منتفختان. ولحُسن حظّها أنّ أَدْوَر خرج من البيت باكرًا، على غير عادته، حتّى قبل أن يوقظه ليي العجوز شمّاس المعبد لصلاة الفجر، كما خرج أبناؤها الثلاثة أيضًا، كلٌّ إلى مكان دراسته.

"منذ أن طردتك من منزلي، لن أُفلح في العودة إلى سابق عهدي، وأبكي طوال الوقت. لقد بقيت مستيقظة حتّى الصباح كي أجيء إليك"، قالت لها زيزي، وأمسكت يديها وطلبت منها أن تسامحها لأنّها طردتها من بيتها. "ألغيت جميع حفلاتي. سمعت عن القوى التي وهبك الله إيّاها، لكنّني لم أعرف أنّ لقاءك سوف يؤثّر فيّ بهذه القوّة"، قالت والدموع تنهمر على وجهها الصغير الرقيق.

أسكتت نوريَّة زيزي بوضعها يدها على فمها، ونظرت في كلّ الاتّجاهات بعينين مرتابتين وسارعت في إدخالها إلى البيت. سبقتها في الطريق إلى حجرة الضيوف، وجمعت كتب وكرّاسات أولادها التي كانت متناثرة في كلّ مكان. وضعت فرشًا على الأريكة الخضراء الباهتة اللون، كما وضعت وسائد من القماش المطرّز على المقاعد الخشبيّة. شابت وجهها حُمرة لفقر بيتها، وخجلت من الأثاث البسيط القديم الذي أصرّ أَدْوَر على عدم تغييره على الرغم من أنّه يملك المال لذلك، لكن ليس في مقدورها الآن تغيير ذلك. ومن دواعي سرورها أنّ زيزي لم تهتمّ بمظهر البيت ولم تُلقِ ولو نظرة واحدة حولها. جلست على الأريكة، وأمسكت بيديّ نوريَّة وسألتها عن دفئهما وقوّتهما، لكنّها أرادت في الأصل معرفة لماذا توقّفت فوق بطنها على وجه الخصوص، وإذا كانت قد شاهدت شيئًا ما هناك.

"شاهدتُ زهرة، اجتثّوها بقسوة من جذورها، وانفغرت مكانها حفرة عميقة. أردت تغطية هذه الحفرة لكنّ يديّ تحجرّتا ولم تتحرّكا من مكانهما"، بهذه الكلمات وصفت نوريَّة شعورها.

"إنّه ابني. لقد أخذوه منّي قبل أن يُتمّ الشهر، وألقوا بي في الشارع"، قفزت زيزي من مكانها بغضب وبدأت تسير في الغرفة باضطراب

"من أخذه منك؟"، سألت نوريَّة.

"هذا هو السرّ الكبير ...". ابتلعت ريقها وواصلت الحديث: "في داخلي فراغ كبير. إنّ ما يراه الناس تمثيل. فملابسي الفاخرة، والزينة المبهرة، والحفلات، والغناء والرقص، كل ذلك تظاهر. هنا في الداخل، في قلبي، أنا إنسان ميت منذ عشر سنوات"، قبضت يدها اليمنى وضربت موضع قلبها برفق. مسحت وجهها الذي غسلته الدموع وعادت لتجلس في مكانها غير مرتاحة.

أمسكت نوريَّة يديّ زيزي مرّة أخرى وطلبت منها برفق أن تروي لها قصّتها لتستطيع مساعدتها، ووعدتها بأنّها ستحفظ سرّها في قلبها.

"هذه هي المرّة الأولى التي أحكي فيها القصّة لشخص ما، ولا أعلم لماذا أشعر بالارتياح معك. ربّما لدينا مصير مشابه، أو أنّ الله أرسلك أنت بالذات لمساعدتي". ارتعش صوتها، وربّتت نوريَّة على كتفها كما لو كانتا تعرفان الواحدة الأخرى منذ زمن بعيد.

"لا أعلم من أين أبدأ. بكل صراحة، من الممكن كتابة كتاب عن قصّة حياتي"، ابتسمت بسخرية. "لقد تزوّجت في اليوم الذي أنهى فيه زوجي، وهو ابن عمّتي، دراسته. أو كما يقولون، كنت محظوظة. فكلّ فتاة كانت ترغب في الزواج من رجل مثله– ذكيّ وجميل. أنا بنت وحيدة لوالدَيّ، وكما تعلمين، ابتسمت

لي الحياة دائمًا، حتّى اللحظة التي داس فيها رجل على شرفي".

"من هو هذا الرجل؟ قريبك؟" أثارت كلماتها فضولها.

"سأخبرك. بعد عام من الزواج أنجبت طفلًا. واستمرّت الاحتفالات في بيتنا سبعة أيّام. كان أبي سعيدًا للغاية لأنّنا منحنا الطفل اسمه. ماذا أقول لك؟ لقد كنت أسعد إنسان في العالم. كانت أمّي تساعدني طوال الوقت في رعاية الطفل. لقد كنت طفلة مدلّلة، درست طوال حياتي عند مدرّسين خصوصّيين بدلًا من تعلّم الطبيخ ورعاية الأطفال. علّمتني أمّي إرضاع الطفل، وتحميمه وتغيير ملابسه. لم تتركني لحظة. وذات يوم تغيّبت الخادمة، فذهبت أمّي إلى السوق بدلًا منها لتشتري لي التمور والجوز ليكون حليبي وفيرًا. بقيت بمفردي مع الطفل ووضعته في الفراش لينام وذهبت في ذلك الوقت للاستحمام. كنت قد جفّفت نفسي عندما سمعت الباب يُفتح. اعتقدت أنّ أمّي قد عادت. ناديتها باسمها، لكن لم يُجبني أحد. غطّيت نفسي بمنشفة وخرجت من الغرفة. فوجئت برؤية زوج أخت زوجي، في الخارج. أخبرته بأنّي وحدي وطلبت منه المغادرة، لكنّه اقترب منّي وكمّم فمي وسحبني إلى الفراش...". توقّفت زيزي عن الكلام، وغصّت بالبكاء. ذهبت نوريَّة إلى المطبخ وأحضرت لها كوب ماء.

"ماذا أقول لك؟" واصلت بعد أن شربت قليلًا من الماء ومسحت دموعها بمنديل كان في يدها، "عضضت يده التي كمّمت فمي، حاولت الصراخ ليتركني وضربته بقدمي وخدشته – لكنّه أخرج سكّينا وهدّدني بذبح طفلي إذا لم أسكت. ومن شدّة خوفي من أن يمسّ طفلي تركته يصنع بجسدي ما يريد – المهمّ أن يذهب ويتركني. لا يمكنني وصف الوضع الذي كنت فيه...". قطعت دموعها تدفّق كلامها، وظهر التوتّر في عين نوريَّة من قصّة زيزي البشعة. "امتلأت عيناي بالدموع واستيقظ الطفل وصرخ، ومزّق بكاؤه قلبي- لكنّ هذه المهانة صاحبتني ومنعتني من رعايته. وصل زوجي إلى البيت بعد أن صنع هذا الوغد ما صنع، ورآه يخرج من بيتنا. أسرعت إلى الطفل لأرعاه ولم أتمكّن من وضع رداء عَليّ. دخل زوجي الغرفة وشاهدني عارية! من هنا يمكنك بنفسك تصوّر ما حدث"، خفضت عينيها وشبّكت أصابعها بانفعال. "ألم تخبريه بما فعله معك؟ قالت نوريَّة متعجّبة.

"حكيت كلّ شيء، لكن لم يصدّقني أحد. دافعت أخت زوجي عن زوجها وقالت إنّني أغويته، ودعوته إلى فراشي عندما لم يكن هناك أحد في البيت...".

"حقيرة! كيف تدافع عن زوج مغتصب؟" صرخت نوريَّة وأفلتت يديها بغضب.

"لم يرغب زوجي في سماع كلمة واحدة منّي. كلّ الحبّ الذي كان بيننا اختفى في لحظة، وقرّر أنّني خنت ثقته، لذلك لم يكن في مقدوره، بأيّ حال من الأحوال، أن يُصغي لما قلته له. صرخ الطفل وأردت إرضاعه، لكنّه طردني من البيت بالثوب الذي أرتديه. مرّت عشر سنوات منذ ذلك الوقت، ولا أزال أسمع صوت صراخ طفلي. المرّة الأخيرة التي شاهدته فيها كانت عندما كان عمره ثلاثة أسابيع، وما أذكره منه هو عينيه الصغيرتين، وأصابعه الطويلة، ودفئَه عندما كان يلتحف بي، وكان يمسك إصبعي ولا يتركه". وأجهشت بالبكاء.

استشاطت نوريَّة غضبًا ولم تستطع قول كلمة. وارتعشت يداها واشتعلت عندما مسحت دموع زيزي. فقد تذكّرت الفتية المسلمين الذي حاولوا فرض أنفسهم عليها، وشكرت أَدْوَر في قلبها على إنقاذه لها، ونسيت لوهلة غضبها منه.

"طلب زوجي الحاخام، وعلى الفور أصبحت امرأة مطلقة. ورفض والداي إدخالي بيتهما. ومزّق أبي ملابسه وأقام الحداد عليّ سبعة أيّام [1] . أتتصوّرين ذلك؟ أنا ميّتة بالنسبة له. ابنته الوحيدة. كما لو كنت غير موجودة...".

"لا أفهم كيف أنّ زوجك – الرجل المثقّف، ووالديك- من المنفتحين- إذا كانوا قد سمحوا لك بالدراسة، لم يصدّقوك وصدّقوا هذا الوغد؟" سألت نوريَّة وهي مندهشة من قصّتها، وخاصّة من الخبر المدوّي بأنّها يهوديّة.

"يبدو أنّه إذا كان الأمر يتعلّق بشرف العائلة، فالرجل محقّ دائمًا، حتّى في العائلات المنفتحة والمثقّفة. لم أعرف إلى أين أذهب. فقد كنت في نظر الجميع خائنة يجب البصق في وجهها. هِمت على وجهي في الشوارع، بثوب خفيف على جسدي، جائعة وظمئانة. ثدياي يؤلماني، وبدأ الحليب يقطر منهما على ثوبي، حتّى فتحت لي امرأة بابها وأدخلتني بيتها ...". توقّفت زيزي لحظة عن الكلام وطأطأت رأسها. اقتربت نوريَّة منها ووضعت خلفها وسائد لتشعرها بالراحة.

"تدهورت حياتي أكثر منذ اللحظة التي دخلت فيها بيت هذه المرأة؛ وإذا كانت أمامي أيّ فرصة للعودة إلى بيتي وعائلتي فقد انتهت في ذلك البيت. ماذا أحكي لك؟ أنا خجلة من نفسي. لا أعلم كيف تدهور بي الحال هكذا. اعتقدت في البداية أنّ هذه المرأة ملاكي، المخلّص الذي أرسله الله لي. فقد قدّمت لي الطعام، والملبس والفراش لأنام. منحتني الراحة سبعة أيّام، وبعدها أخذتني إلى التياترو، ملهاها الليليّ. هناك ألبستني ملابس كشفت جسدي بدلًا من تغطيته، وأجبرتني على شرب الكونياك بصحبة رجال سُكارى جاؤوا إلى الملهى. من المخجل أن أخبرك مع أيّ أناس اضطرّرت أن أكون: تجّار مواشي، حدادون، عربجيّة بدناء، بدو نتنون، شيوخ مرضى، باعة في السوق ... مازالت رائحتهم في أنفي إلى اليوم، وفي كلّ مرّة أغتسل فيها أكحت جسمي حتّى يسيل الدم منه ...". همست الكلام بعصبيّة من شفتين مضمومتين وأغلقت كفّ يدها اليمنى مرّة أخرى بقوّة.

"لماذا لم تهربي؟ لماذا بقيت؟" صرخت نوريَّة.

"إلى أين كان يمكنني الذهاب؟ فعائلتي تخلّت عني...".

"لكن ... لحظة، لا أفهم: كيف أصبحت مطربة مشهورة؟".

"آه، هذا أفضل جزء في حياتي. لقد منحني الله موهبة واحدة وهي المقدرة على الغناء. اعتليت يوم المسرح وغنّيت أغنية كانت أمّي تغنّيها لي قبل النوم. وذات يوم جاء زوجي الحاليّ إلى ذلك الملهى، وأعجبته هذه الأغنية جدًّا لدرجة أنّه دفع كثيرًا من المال من أجلي كي تتخلّى عنّي صاحبة الملهى. كنت خائفة منه في البداية، لأنّني فقدت الثقة بالجميع. اعتقدت أنّه يريد المتاجرة بي أيضًا. لكن لا. فقد جعلني ما أنا عليه اليوم: مطربة مشهورة، مصونة ومتزوّجة. تزوّجني ليحافظ عليّ من عيون الرجال المفترسة وأياديهم، لكنّه لم يُقِم معي علاقة زوجية، فهو ينتظر اللحظة التي أُشفى فيها من جرحي العميق وأسمح له بالدخول في الفراغ الذي في داخلي. يبدو أنه لم يبقَ ذكر لما كنت عليه من قبل. فقد غيرت اسمي من سِمحة إلى زيزي، وكذلك شكلي. ديانتي فقط هي التي احتفظت بها – على الرغم من أنّ الجميع يعتقد أنّي مسلمة. أنا ما زلت يهوديّة، وأؤمن أنّ الله سيكرمني ويعيد إليّ ابني الذي أُخذ منّي". غمرت الدموع وجهها مرّة أخرى.

"عسى أن يكون خيرًا، عسى أن يكون خيرًا". سحبت نوريَّة يديها ووعدتها بلهجة عربيّة- يهوديّة بأن تساعدها. "اليوم يقرؤون التوراة في الكنيس، وسأدعو الله أن يستجيب لدعائك".

"لم أسمع لهجة اليهود العربيّة على مدى عشر سنوات، واعتدت الحديث بلهجة المسلمين. لقد أعَدتِني الآن سنوات كثيرة إلى لوراء"، تنهّدت زيزي، ثمّ عانقت نوريَّة.

طلبت نوريَّة منها أن تأخذها إلى البيت الذي وَلدت فيه ابنها، لكنّ زيزي خافت من ذلك وقالت لها في صوت مكتوم إنّه، حسب ما علمته غادر زوجها وابنها قد بغداد مع والديها، وبيع البيت لعائلة أخرى.

"ابنك هامّ للغاية، لكن عليك في البداية علاج نفسك. أفهم الآن من حكايتك أنّك أنت الزهرة التي قَطفت بقسوة – وليس ابنك. لذلك يجب أن آخذ ترابًا من ذلك البيت وأعيد إليك الروح التي وُطئت بقسوة، فقط حينها يمكنك الازدهار من جديد وعيش حياتك مع الزوج الذي يحبّك. من دون ذلك لن أتمكّن من علاجك. علينا أن نذهب إلى ذلك المكان. وعليك أن تثقي بي"، طلبت منها نوريَّة.

وقبل أن تذهب أخذت معها زجاجة مياه وذهبت إلى حوض الأعشاب الطبّيّة ففزعت لوهلة عندما شاهدت نبات السذاب، والفيغن ذي الأوراق البنفسجيّة الذي يُبطل مفعول الحسد. هذا السذاب الذي زرعته قبل أسبوع، قد ذبُل واصفرّ، وبقي فرع واحد فقط أخضر ونضِر. اقتربت من السذاب وشكرته على أنّه جذب إليه عين الحسد التي أصابت بيتها، وطلبت منه السماح بقطف العود الأخضر الوحيد الذي بقي به لمعالجة امرأة هامّة جدًّا.

عادت زيزي وارتدت العباءة وغطّت وجهها بالطرحة السوداء كي لا يتعرّف إليها أحد في الشارع، وبعد وقت قصير وقفتا أمام بيتها القديم. كان الخراب في استقبالهما، فوقفت زيزي أمام بيتها متسمرّة في مكانها. لسبب ما ظنّت أنّ هناك حياة في البيت، الذي طُردت منه بمهانة قبل عشر سنوات. الحديقة الجميلة، التي كانت ذات يوم فخر والدها، أصبحت تغطّيها الأشواك الجافّة، وملأت رائحة البول والبراز أنفها. كانت أعقاب السجائر وزجاجات العرق الفارغة في كلّ مكان. البيت مهجورٌ ونوافذه مؤصدة تغطّيها الرمال والتراب. لم تستطع زيزي الوقف أمام هذا المنظر فذرفت الدموع من تحت الطرحة.

"عليك أن تدخلي الفناء. هذا هامّ جدًّا لعلاجك"، ناشدتها نوريَّة. "دعي قدميك تأخذاك، وتوقّفي في المكان الذي تقرّران التوقّف فيه".

في البداية رفضت زيزي، التي كانت منفعلة، لكنّها في النهاية استجابت لإلحاح نوريَّة، ودخلت إلى الحديقة وتبعتها نوريَّة حتّى وقفتا. حينها انحنت نوريَّة وسكبت الماء على الأرض تحت قدميّ زيزي، وسألتها عن اسم أمّها، فأجابت بصوت مكتوم: "طوبى"، حينها باركت نوريَّة في همس: "أيّتها الأرض، ليكن كلّ مكان أسكب فيه الماء بَرَكة لسِمحة بنت طوبى". خنقت الدموع حلق زيزي عندما نادتها نوريَّة باسمها اليهوديّ. بعد ذلك جمعت نوريَّة الطين من بين قدميّ زيزي ووضعته في الصرّة التي كانت معها وقالت لها: "لنذهب الآن إلى بيتك الحاليّ". وما إن وصلتا، أرقدت نوريَّة زيزي على الفراش في الغرفة التي طردتها منها قبل يوم. أخرجت الصرّة ووضعت الطين في طبق، وبحركات جادّة شمّرت أكمامها ودهنت بطن زيزي المرتعدة بالطين، وهي تهمس بسرعة بعبارات غريبة وتمتمات غير واضحة.

"يمكنك الآن الاستراحة. مهمّ جدًّا ألّا تقومي من الفراش حتّى منتصف الليل. وقتها فقط تغسلين جسمك وتعودين لتنامي وحدك، من دون زوجك، مدّة ثلاثة أيّام. هذه الأيّام هامّة لعلاجك. ومحظور عليك أيضًا الخروج من البيت. يجب حمايتك من الأرواح الشرّيرة. مؤقتًا سأضع على بطنك ورقة السذاب الخضراء، ولا تتعجبي إذا رأيتِ لونها أصفر كلون الشمس، لأنّها تمتصّ الحسد الذي أصابك"، قالت لها نوريَّة وهي في حالة إعياء. كان كلّ تركيزها في علاج زيزي، إلى درجة أنّها لم تلحظ تمامًا أنّ وجهها قد أصبح شاحبًا وضعُف جسمها وأُغرق كلّه بالعرق البارد.

"هل سأرى ابني يومًا ما؟" واصلت زيزي زيادة الألم وتجاهلت الشحوب الذي غطّى وجه نوريَّة.

"أعدت إليك روحك التي سُلبت منك وسددت الفتحة التي فتحت في داخلك، لتستطيعي عيش حياتك المسلوبة. وإنّ الله وحده هو الذي سيقرّر إذا كان ابنك سيرغب يومًا ما في البحث عنك"، قالت نوريَّة.

"كم طفل لديك؟" قالت زيزي فجأة مبدية اهتمامها.

"لي ثلاث زهرات رائعة، ذكيّة وجميلة"، ردت نوريَّة بفخر وأخرجت صور أبنائها من صدريّتها،

متجاهلة الضعف الذي هاجم جسدها.

هذا مئير، في الثالثة عشرة من عمره؛ وهذا حِيِّيم، في العاشرة؛ وهذا يوسف الصغير، في الثامنة"، أشارت بفخر وبصوت ضعيف وأجشّ، لكنّها أسفت على الفور لأنها لم تراعِ الخسارة التي تعاني منها زيزي.

"حافظي عليهم لئلّا يأخذهم أحد منك، لأنّه لا يمكن معرفة ذلك أبدًا"، قالت زيزي وأشاحت بعينيها عنها.

نظرت إليها نوريَّة بدهشة.

.4

أنهك علاج زيزي نوريَّة تمامًا. وهاجمها الصداع، وشعرت باختناق في الحلق. أرادت، أكثر من أيّ شيء آخر، أن تشرب كوب شاي حارًّا وتتمدّد في فراشها، لكنّها علمت أنّه يمكنها القيام بذلك فقط بعد الانتهاء من الأعمال المنزليّة. وفي طريقها إلى البيت ضربتها ريح صحراويّة، فحمت عينيها المكشوفتين بالطرحة من ذرّات الرمال التي تقذفها الرياح؛ "يجب الإسراع في جمع الغسيل من فوق سطح البيت قبل أن تقذف به الرياح الساخنة في كلّ اتّجاه"، قالت في نفسها، وأسرعت في خطواتها وهي تصارع الرياح والتعب الذي أحاط بها.

وعلى الرغم من أنّها تجرّأت على الاعتراض على المسَلَّمات، إلّا أنّه كان من الواضح أنّ نوريَّة هي كسائر النساء، فهي المسؤولة عن كلّ ما يجب عمله في البيت: تربية الأبناء، التنظيف، المسح، غسل الملابس وطيّها، الطبخ، الخياطة وخدمة الزوج، وأن تكون محتشمة، تصون شرف العائلة، وعلى وجه الخصوص السكوت على الحرمان، التمييز والعنف في بعض الأحيان. لقد علمت أنّ هناك بيوتًا اضطرّت النساء فيها إلى السكوت عن رائحة العرق وروائح الراقصات...

على الأقلّ هي لم تعانِ من ذلك.

"لماذا لم يمنحني الله البنت التي تساعدني قليلًا؟" تنهّدت قليلًا وأسندت أسفل ظهرها بيدها عندما انحنت لتضع الملابس النظيفة التي جمعتها بسرعة في الطشت من دون أن تطويها، لكنّها تراجعت بسرعة عن طلبها. "كلا، كلا، أحمدك يا الله. هكذا أفضل. أنا لا أريد بنتًا، لماذا عليها أن تعيش وتعاني من حياتنا المملّة المقيِّدَة". نظرت من شبّاك الشناشيل إلى الزقاق، لأنّها اعتقدت أنّها سمعت صوت أولادها، لكنّها اكتشفت أنهم أولاد أختيها، يلعبون في الزقاق خارج البيت بدلًا من اللعب في الفناء الداخليّ، في الوقت الذي كانت تجلس فيه مريم على لوح خشبيّ عند مدخل البيت وتتبادل أطراف الحديث مع جارتها راشيل، التي تسكن مقابلهم. ظهر سعيد شاحذ السكاكين، وأمين الذي يصلح الأواني الخزفيّة بالضبط في الوقت الذي سألت فيه مريم عن سبب الصراخ الذي كان يُسمع من بيت نوريَّة بالأمس. وفي حماسة الحديث طردت مريم أصحاب الحرف على الرغم من أنّها كانت بحاجة إلى سعيد ليشحذ لها سكّاكين تستخدمها في المطبخ.

قرّرت نوريَّة تجاهُل أختها، ورفعت رأسها، ووقع نظرها على چحلة، الجارة التي كانت تقف في النافذة المقابلة. "مسكينة"، قالت في نفسها، "متى ستفهم أنّ بدري لن يعود أبدًا؟" لاحظ أولاد أختيها چحلة وتراهنوا في ما بينهم على من ينجح في لفت انتباهها، عن الزقاق، إليهم. فألقوا حجارة صغيرة في اتّجاهها، لكنّها تجاهلت الأطفال الوقحين وواصلت النظر إلى أبعد نقطة في الزقاق، تنتظر خطيبها بدري أن يعود من الحرب. إنّها تنتظره هكذا كلّ يوم منذ أكثر من ثماني سنوات في الوقت نفسه الذي ودّعته فيه، عندما ذهب لأخذ ملابس زفافه من كريم الخيّاط بجوار سوق حِنُّوني. أخبر الخيّاط العائلة أن بدري أخذ العباءة والقميص، لكنّه عندما خرج من الدكّان وقفت أمامه شاحنة، وخرج منها جنود أتراك، دفعوه بقوّة إلى داخلها. لم تشفع له تبريراته بأنّ هذا يوم زفافه. أغلق الجنود الباب عليه وأسرعوا به لاصطياد أناس آخرين وإرسالهم إلى جبهة القتال، للدفاع عن الإمبراطوريّة العثمانيّة.

خرجت نوريَّة من الحجرة وتمنّت أن تدخل مريم إلى بيتها قبل أن يعود أولادها من المدرسة، ثمّ نزلت إلى الطابق الأرضيّ وجلست على مقعد حجريّ بجوار البوّابة، وأذنها مصغية لما يدور في الزقاق وكانت مستعدّة لأيّ حدث. ضحكات أولادها جعلتها تقفز من مكانها، فذهبت لتفتح الباب لهم، لكنّها تراجعت عندما اكتشفت أنّ من يقف عند مدخل البيت ليسوا أولادها، بل إنّه حسن النجّار، الذي أنزل عدَّته من على ظهره

العريض وسألها إن كانت تحتاج إلى مساعدة في تصليح الأثاث المكسور. بصقت على صدرها وقالت في همس: "اسمع يا إسرائيل". [2]

"سأجعل لك الأثاث المكسور كالجديد"، وعدها حسن بذلك.

"لا، شكرًا"، أجابت وحثّت أولادها الذين وقفوا وراءه على الدخول إلى البيت، على الرغم من أنّها كانت تشعر برغبة جامحة في تحطيم كلّ أثاثها واستبداله بآخر جديد.

الشهيّة الكبيرة التي أكل بها الأولاد جعلتها ترتاح، وتنسى الصداع للحظة؛ لكن الأولاد سكتوا فجأة. التفتت وراءها لتشاهد أَدْوَر يقف خلفها. خلع العباءة والفيس(الطربوش) وعلّقهما على الشمّاعة الموجودة على حائط الحجرة. وبالرغم من أنّ معظم الرجال في عمره قد غيّروا ملبسهم بعد تغيير نظام الحكم في العراق، إلّا إنّه استمرّ بالتمسّك بالزيّ العثمانيّ التقليديّ. استغربت نوريَّة عودته في هذه الساعة المبكّرة، لكنّها قامت من مكانها على الفور ودعته إلى الجلوس وتناول الطعام؛ فرمقها بنظرة ساخطة ودخل حجرته من دون أن ينبس ببنت شفة. قام الأولاد من مكانهم وذهبوا إلى حجرتهم، وعاد الألم ليضرب رأسها من جديد. مع ذلك سارعت إلى رفع الأطباق والطعام من على المائدة ليستطيع الأولاد تجهيز واجباتهم البيتيّة. بعد أن انتهت من مسح أرضية البيت، اعتقدت بأنّها تستطيع أخيرًا الاستلقاء على الأريكة في حجرة الضيوف والاستراحة قليلًا قبل أن تطوي الغسيل النظيف وتخيط الثقوب في جوارب الأولاد. ستروي في صباح الغد نباتات العطارة والنباتات الطبّيّة في حديقتها وستغرس أوراق سذاب جديدة، بدلًا من تلك التي جفّت. "حسد أكثر من اللازم. يجب توخّي الحذر "، قالت في نفسها.

وعندما كانت مستلقية على الأريكة خرج مئير، وحِيِّيم من غرفتهما، وجلسا حول مائدة الطعام وبدءا في تحضير واجباتهم البيتيّة. انضمّ إليهما أَدْوَر مع يوسف، وبعد أن اختبره في كلّ ما درسه عند معلم الكُتَّاب الدينيّ، بدأ بتجهيز الخطبة اليوميّة التي يلقيها على الأولاد كلّ يوم قبل أن يخلدوا إلى النوم. ساد الحجرة صمت، وكان صوت الصفحات وبري أقلام الرصاص هو فقط ما يخرق هذا السكون أحيانًا. أغمضت عينيها لتغفو قليلًا، فرأت في المنام أنّ شكلها قد تبدّل بشكل امرأة مسنّة بيضاء جدًّا، والدم توقّف عن الجريان في عروقها، وفي شعر مقدّمة رأسها بقع رمادية، أمّا بقية شعرها فذهبيّ اللون. وعيون العجوز الخضراوان تقذفان لهبًا أفنى جسدها... استيقظت نوريَّة تصرخ مفزوعة، يكسو وجهها العرق البارد، فاندفع مئير من مقعده. "ماما، ماذا أصابك؟ هل أنت بخير؟" سألها بخوف. "أنت تتعرّقين كلك. هل أحضر لك الماء؟" ومسح بكفّ يده اليمنى العرق من على وجهها. "لا تخف، لم يحدث شيء. عد للدراسة"، وهدّأته ومسحت وجهها.

استمع أَدْوَر إلى صراخ نوريَّة وكلماتها مع مئير، لكنّه تظاهر بأنّ الأمر لا يعنيه. على الرغم من رغبته الشديدة في التوجّه إليها والاطمئنان عليها، واستمر في التركيز في كتبه. تحرّك يوسف الصغير في كرسيّه منزعجًا، ونظر في عيني أبيه كمن يطلب الإذن بالذهاب إلى أمّه، لكنّ أَدْوَر أشار إليه بالبقاء في مكانها. وعندما عاد مئير إلى كرسيّه سأله حِيِّيم عن حال أمّهما، فرمقه أَدْوَر بنظرة ليصمت، وأمرهما بصوت جافّ بعدم الإزعاج.

"قال الله سبحانه وتعالى: ليس جيِّدا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينًا نظيره. ماذا كان يقصد بهذه الكلمات؟" بدأ أَدْوَر موعظته اليوميّة أمام أبنائه. "خلق الله سبحانه وتعالى المرأة من لحم آدم وعظامه، لتكون رفيقة مخلصة وعونًا له. فلماذا من ضلع آدم؟ لأنّه مكان مستتر عند آدم، وذلك يدلّ على أنّ الله سبحانه وتعالى أراد منذ البداية أن يخلق المرأة محتشمة ...". ورفع صوته للتأكّد من أنّ نوريَّة ستسمع كلامه.

هي متزوّجة منه منذ خمسة عشر عامًا، ومع ذلك لم تنجح في فهم ماذا الذي فعلته به ليتجاهلها بهذه الصورة، ولماذا إذن تزوجها إذا كانت تُعتبر جاهلة في نظره، ولا تناسب مكانته ومستواه. لكن كيف تسأله مثل هذه الأسئلة، ذات الصلة بالعلاقات بينهما، إذا كانت لا تستطيع أن تجري حوارًا معه حول أمور أبسط بكثير؟ في بعض الأحيان، عندما كانت تتوقّف للحظة وتفكّر في مشوار حياتهما معًا، كانت تحزن على أن تعاملها معه كان يدور في معظم الوقت حول الطعام وتنظيف ملابسه والمرّات القليلة التي كانا يقيمان فيها علاقة زوجيّة. إنّه لم يهتمّ بسلامتها أو سلامة الأولاد، ولم يسأل عن مستوى مئير وحِيِّيم في الدراسة، ولم يتكلّم عن عمله وعن الناس في الورشة، الذين يقضي يومه معهم، كما لم يتحدّث معها أو مع الأولاد عن التطوّرات الهامّة في حياة الطائفة اليهودية والمملكة. ولقد حاولت أحيانًا، بمبادرة منها، أن تبدأ معه حديثًا حول وضع الأولاد أو نميمة نساء الحيّ، لكنّه كان يُسكِتها ويوبّخها لإزعاجها له في دراسته للتوراة.

وعندما سمعت موعظته تساءلت إذا كانت هي السبب في مجافاته لها نظرًا لثقافة " العيب" ، التي نشأت عليها- مثل أمّها، وجدّتها والأجيال الكثيرة قبلها، والتي استوعبت فيها الإجماع الاجتماعيّ بأن عليها السكوت، وأنه من العيب الرد، والتعبير عن الرأي، والطلب، والرغبة؟ وعندما فكّرت في الأمر مليًّا أرادت الانفجار في أَدْوَر والصراخ بما في قلبها؛ لكنّ العيب كبت هذه النيران في داخلها، وللهرب من محاولاته إغضابها قامت من على الأريكة وخرجت على أطراف أصابعها إلى حجرتهما. كانت رائحة التبغ الشديدة تملأ الحجرة، فسكبت ماء الورد للتخلّص منها. بعدها غيّرت ملابسها المشبَعة بالعرق واستلقت على ظهرها في الفراش العريض. وقع نظرها على صورة زفافها مع أَدْوَر، المعلّقة على الحائط أمام الفراش.

غمرتها ومضات ذكريات من أيّام شبابها، وتذكّرت كيف فقدت عمّتها وحيدة رباطة جأشها عندما سمعت بإعلان خطبتها لأَدْوَر، وهرعت مسرعة إلى حجرة أبيها في الطابق الثاني لتطلب منه أن يلغيها. ولما لم تنجح في إيقاظه من نومه العميق، الذي استغرق فيه بعد أن أنهك كلّ قواه في سهره الدائم كلّ ليلة، توجّهت إلى حجرة نوريَّة واقتحمتها بالضبط في الوقت الذي كانت تقيس فيه ثوب العروس، وتصحبها أمّها بالزغاريد. فصفعتها عمتها الثائرة على وجهها، ومزقت ثوبها وصرخت: "لابني الحقّ فيك قبل أيّ عريس آخر، وطالما لم يتنازل عن حقّه، فأنت ما زلت له. كيف لا تفهمين أنّ العائلة عندنا قبل أيّ شيء؟ كيف تُدخلين رجالًا غرباء في العائلة؟ مَنِي أَصْلُه، وْمَنِي فَصْلُه (ما أصله وما فصله)؟ أتعلمين أيّ أمراض يحملون؟"

انتفضت أمّها نزيمة من مكانها وصرخت في وحيدة: "ألا تخجلين حين تسألين عن الأمراض المصابين بها؟ "اسمع يا إسرائيل"، أنَسيت ما بأبنائك؟". كانت نوريَّة مصدومة من شدّة الغضب الذي أظهرته وحيدة عليها، لمجرّد أنّها قالت إنّها غير مستعدّة للزواج من نعيم، فقد كانت وحيدة تتصرّف معها كأميرتها، وكانت تدعوها دائمًا إلى الجلوس عند قدميها في لطَّرْمَة، الشرفة، ثمّ تمشّط شعرها، وتضفّره في ضفيرتين طويلتين وتربطهما حول رأسها كالضفيرة الذهبيّة. ثمّ تطلب منها بعد ذلك أن تدلّك قدميها، وتحكي لها حكايات عن بطولة أبيها أبو الچِرَگ في مواجهة البدو والعثمانيّين، وعن الهدايا التي كان يحضرها لها من رحلاته إلى دمشق، ووعدتها بأن تورثها الذهب الذي تمتلكه، لأنّها ابنتها الحقيقيّة، التي أرسلها الله من أجلها. وعندما كانت تجلس بجانبها هكذا، نجحت نوريَّة في دفع وحيدة إلى إبداء الكثير من الخير واللطف اللذَين حاولت إخفاءهما طوال حياتها، وكان وجهها يزهو ويبدو لطيفًا ورقيقًا مثلما لم يبدُ من قبل. كما تذكّرت كيف تلقّفت كلمات وحيدة كما لو كانت متعطّشة لها، وأنّها أرادت أن تكون قويّة ومستقلّة مثلها عندما تكبُر– وليست ضعيفة ومستسلمة مثل أبوَيها وأخواتها، فأخبرت وحيدة بذلك بكلّ فخر، وكانت أختها مريم تراقبهما من بعيد بغَيرة.

أبعدت أمّها وحيدة عنها داعية الله أن تُشلّ يدها عقابًا لها على تمزيقها لفستان العروس؛ لكنّ وحيدة وقفت أمامها مرّة أخرى، ولوّحت بعصاها، من دون الجرس، وحذّرتها من أنّها إذا لم تتزوّج من ابنها سوف تلبس السواد طوال حياتها، ولن ترى إلّا الحزن والغمّ أينما ذهبت. فزعت الخيّاطة المسكينة – التي لم تشهد أبدًا مثل هذه القسوة، وانطلقت من فمها صرخة مكتومة.

الآن أيضًا لا تعلم نوريَّة كيف استجمعت حينها القوّة – وهي ابنة الخامسة عشرة فقط- لتقف قويّة أمام عمّتها التي كانت تحترمها، وتقول لها بفم يكتمه الضيق، وعينين يتطاير منهما الشرر غضبًا من خيبة الأمل: "انظري إلى حالك وسترَين كيف يُفقِدك الحسد صوابَك". أثارت الكلمات غضب عمّتها فردّت عليها: "عديمة التربية، كيف تتحدّثين إليّ بوقاحة؟ هذه تربية أمّك بالطبع، التي جعلت، في الماضي، جميع رجال الحارة يطاردونها. من حسن الحظّ أنّها لم تتزوّج من أخي – وإلّا لجلبت لنا العار، ولم يكن أبي ليستطيع أن يرفع رأسه في السوق". وعندما انتهت من الصراخ فيها، صفعتها مرّة أخرى. لكنّ نوريَّة جمعت ضفيرتيها ووضعتهما حول رأسها كما كانت تفعل وحيدة، ونظرت في عينيها باحتقار، كما لو كانت تقول لها إنّها لم تعُد محتاجة إليها. عادت وحيدة ونظرت في عيني نوريَّة الخضراوين، لكن ما إن رأت فيهما انعكاس صورتها، بدا لها أنّها تقاتل نفسها، فتراجعت إلى الوراء.

لم تعُد نزيمة قادرة على تحمّل وجود وحيدة العنيف، فبصقت في وجهها ودفعتها بقوّة خارج الحجرة. "كيف تجرؤين على الكلام بهذه الطريقة؟ من يجلب العار؟ أنا – أم أخوكِ الكسلان الفاسق الذي فرضتموه عليّ؟ أخرجي من هنا، يا حسودة! من حسن حظّك أن أباك أجبر صالح على الزواج منك، لأنّه لم يكن ليرضى بك أحد. أتعلمين لماذا؟ لأنّك سليطة، ولك وجه كوجه الحصان"، صرخت ليسمع الجيران.

ذُهلت وحيدة من جرأة نزيمة عليها، لكنّها كانت عنيدة معها، لحلّها الوثاق الخاصّ بينها وبين نوريَّة، ولإدراكها أنّها لن تستطيع الوفاء بوعد أبيها، فخرجت من الحجرة وتوجّهت مباشرة إلى قبو البيت.

تركت نعيمة ومريم، اللتان اضطربتا لسماع الصراخ، طبيخهما في المطبخ وركضتا الدرج صعودًا نحو حجرة نوريَّة. انفجرت مريم في أمّها وسألتها بصوتها الأخنف: "ما السيّئ في نعيم؟ لماذا تتزوّج نوريَّة من رجل غريب؟" فأجابتها: "نعيم مريض، وأنا لا أريد أن تترمّل نوريَّة وهي صغيرة السنّ". استشاطت مريم غضبًا على أمّها: "هامي وروبين مرضى أيضًا – ولا ينقصنا شيء الحمد لله. هذا قدرنا، ولا جدال مع القدر"، ثمّ توجّهت إلى أختها نوريَّة: "لماذا تريدين أن تكوني طوال الوقت مختلفة عنا؟ ربّما نسيت، لكنّك لست ابنة السلطان. أليس من الأفضل لك أن تعيشي مثلنا مع قدرك داخل العائلة، من أن تكوني خادمة عند امرأة غريبة؟". نادت وحيدة مريم، فأسرعت وتركت حجرة نوريَّة.

بقيت نعيمة في الحجرة، وقبل أن تناديها وحيدة، اقتربت من نوريَّة وهمست في أذنها: "اذهبي وتزوّجي من العريس الغريب، واخرجي سريعًا من هذا البيت قبل فوات الأوان". أرادت نوريَّة معانقة أختها الكبرى لكنّها اختفت على الدرج.

أسرعت نزيمة إلى المطبخ، وعندما عادت بدأت تسكب، بحركات سريعة ومهووسة، كمّيّات كبيرة من الملح على نوريَّة وعلى المكان الذي وطأته أقدام وحيدة، بأمل واعتقاد أن تستطيع إبعاد الحسد الذي تركته وراءها سلفتها. اقتربت الخيّاطة، التي تجمّدت في مكانها في أثناء وجود وحيدة في الحجرة، من نزيمة وتعهّدت لها بأن تعمل من الصباح حتّى المساء مجانًا لتخيط لنوريَّة فستانًا جديدًا. خلعت نوريَّة الفستان الممزّق ولبست مكانه أحد فساتينها الملوّنة، في الوقت الذي كانت أمّها تتابع حركاتها بفخر يشوبه القلق.

تقلّبت نوريَّة في فراشها غير مستريحة، وانتقل تفكيرها إلى الفترة التي كان من الصعب عليها الحمل فيها. وتذكّرت كيف كانت تفزع كلّ شهر من جديد عندما ترى في سروالها بقعة دم. طلب والدا أدْوَر من ابنهما

الوحيد أن يطلّقها، وكان أبوه يقول لها في كلّ مرّة يزورهما في البيت "صاحبة الرحم البور"، ويبدي غضبه من أنّه لن يكون لابنه من يحمل اسمه ويواصل نسله. لم تُخْفِ أمّ أَدْوَر أيضًا عدم رضاها عنها، عندما كانت تتجاهل وجودها وتقدّم الطعام لابنها فقط. فكانت تجز –نوريَّة- على أسنانها وتكبت غيظها بسبب الإهانة. توقّعت من أَدْوَر أن يطلب من أبيه أن يكفّ عن دعوتها بهذا اللقب المستهجِن، لكنّه كان يطأطئ رأسه عند سماع كلمات والديه السيّئة ولا ينبس ببنت شفة دفاعًا عنها.

كانت المعلومات عن عائلة أَدْوَر شحيحة للغاية، إذ سكنوا في الحيّ بمفردهم في غرفة مستأجرة في أحد البيوت الكبيرة، من دون أقارب يمكن من خلالهم معرفة تفاصيل عنهم. طلبت نزيمة من جاراتها، خاصّة رحمة إم كِلُّو، أن تستدرج أم أَدْوَر للحديث معها، في الوقت الذي كنّ جالسات على الكراسيّ الخشبيّة الصغيرة خارج بيوتهن؛ لكنّ أمه كانت مختفية في حجرتها الصغيرة ولم تظهر في العلن تقريبًا، وعندما خرجت من بيتها أخيرًا، تجاهلتهنّ كما لو كنّ هواءً أمامها. "إنّها تسكن في حجرة مستأجرة وتتكبّر علينا كما لو كانت ثريّة عريقة النسب"، قالت رحمة لنزيمة عندما لم تنجح في مهمّتها. حتّى محاولات نوريَّة في أن تستقي من أَدْوَر معلومات عن عائلته وأسباب انتقالهم، من دون العائلة والأقارب، لم تنجح في ذلك، وكان يبدو لها أنّهم يُخْفون عنها سرًّا كبيرًا. ولأنّها كانت مفتونة بأَدْوَر في بداية زواجهما، فقد أرجعت سكوته وامتناعه عن انتقاد أبيه وأمه إلى فطنته وإلى وصايا احترام الأب والأمّ. وكان في عدم إقامتها مع والديّ أَدْوَر عزاء لها، لأنّه كان سيكون عليها المعاناة من جفائهما لها، ليس خلال زياراتهما الأسبوعيّة فحسب.

وكلما مرّ الوقت ولم تنجح في الحمل، كانت تجد نفسها عرضة لشرّ النساء في المنازل المجاورة لبيتها، وفي كلّ شهر لا تحمل فيه، كانت تزداد وشوشة النساء من وراء ظهرها. رأت بالتدريج كيف يبعِدْنها عنهنّ. حتّى أختاها أخفيتا عنها حملهنّ وأبعدا أطفالهنّ عنها. "أنا امرأة مثل كلّ واحدة فيكنّ"، أرادت الصراخ. "علينا أن نتحدّ معًا، ويُفترض أن تدافعا عنّي، لا أن تُسيئا إلي. ألا يكفي المهانة التي نتعرّض لها منذ ولادتنا؟" لكنّها لم تقوَ على التعامل معهما وتغيير عاداتهما، لذلك ركّزت كلّ جهودها في محاولة الحمل وأن تصبح أمًّا.

في البداية ظنّت نزيمة أنّ نوريَّة قابلت بالصدفة في فترة الأربعين يومًا الأولى من زواجها امرأة ولدت حديثًا، لذلك سبّبت لها "كَبْسَة"، قَيَّدَتْ حملَها؛ لكنّها لا تذكُر أنّ أيًّا من جاراتها قد ولدت في تلك الفترة. لهذا السبب قرّرت أنّ نوريَّة قد فزعت من وحيدة، و"الطَغْقَه"؛ الفزع هو الذي أدّى إلى إغلاق رحمها. ومن أجل إزالة هذا الفزع كان على نزيمة أن تحضر نوريَّة إلى فناء البيت الأزرق وأن تسكب الماء على قدميها، ثمّ تأخذ الطين وتمسح به جسمها. لكن، بما أنّ وحيدة كانت تراقب طوال الوقت ما يجري في البيت من مكانها الثابت في الشرفة، لم تستطع نزيمة القيام بهذا الطقس في المكان الذي تعتقد بأنّ ابنتها فزعت فيه. لذلك تناولت خفيةً من الفناء بعض كدر التراب ووضعته في طبق. بعد ذلك سكبت عليه ماء النهر وحولته إلى وحل لزج، ثمّ مسحت به جبينها، وجهها، قدميها، يديها وبطنها. وعندما لم يفلح ذلك أيضًا، أخذت نوريَّة للمشاركة في حفل ختان ابن عزيزة، ابنة رحمة إم كِلُّو، وطلبت منها أن تسمح لنوريَّة بالشرب أوّلًا من الخمر الذي قُرِأَ في الحفل؛ وباركتها أمّها ودعت لها أن يمنحها الله الخلاص وأن تحمل ابنها بين يديها في السنة المقبلة. لكنّ هذا أيضًا لم يُجدِ. عرضت عليها إحدى جاراتها أن تبلع "قلفة" الصبي المختون- مع أنّ أَدْوَر كان سيغضب ويقول إنّ أكل لحم البشر محرّم حسب التوراة؛ لكن على مدى شهور لم يولد صبي في الزقاق، فكلّ النساء ولدن بنات. وبعد أن فشلت جميع المحاولات أرهقت نزيمة قدميها مع نوريَّة بين بيوت قرّاء الفنجان، العرّافات، وخيام الشيوخ المسلمين المغبرّة وحتّى المدارس الدينيّة لكبار الحاخامات المتصوّفين، ليخبروهما عن سبب إغلاق رحمها، غير أنّ أيًّا منهم لم يجد حلًّا لضائقتها. كانت تخشى من أن تأتي اللحظة التي يخضع فيها أَدْوَر لأبيه ويطلّقها ويتّخذ زوجة أخرى وتضطرّ إلى العودة

إلى البيت الأزرق والعيش وحدها من دون ولد، منبوذة تحت سطوة وحيدة. "من سيرغب في الزواج من امرأة مستعملة ومعيبة؟ حتّى نعيم المريض يستحقّ من هي أفضل منّي"، كانت تقول لنفسها وتنظر إلى بطنها الفارغة في خوف.

جاء الخلاص بفضل عمّو سليم البزاز، بائع الأقمشة، الذي اعتاد منذ سنوات طويلة على زيارة بيوت النساء اليهوديّات مرّتين سنويًّا، قبل عيد الفصح وقبل رأس السنة. كان أنيقًا في ملبسه، وجسمه معطّر بالروائح التي كانت تعتبر رائحتها الطيّبة والقويّة إشارة للنساء على مقدَمه إلى بيوتهنّ، قبل أن يعلن هو عن وصوله. لم يعرف أحد ما أصله، ومن عائلته، وإن كان يهوديًّا أو مسيحيًّا أو مسلمًا، وإن كان سليم اسمه الحقيقيّ أصلًا. يحمل على كتفيه لفّات القماش، ويتنقل بين بيوت النساء، وفي الوقت الذي كان يجلس في البيت ويفتح اللفّة بحركة يد خفيفة، كانت النساء تعامله كما لو كان امرأة مثلهنّ، ويضحكن معه، ويتبادلن معه النميمة عمّا يدور حولهنّ. لقد كان يروي لهنّ بصوته الرقيق والرفيع الأخبار وما يدور في البلاد البعيدة، حتّى نال عندهنّ لقب "أبو كِلُّو "، الرجل الذي يعرف كلّ شيء؛ وأضفنَ إلى اللقب "كِلُّو" أخرى ليفرَّقن بينه وبين "رحمة إم كِلُّو"، التي ترتكز أخبارها على ما يدور في الحيّ – أمّا هو فكان الرجل العالم الكبير. هكذا علم بوحيدة الساحرة، التي اشتغلت مع الجنّ السيّئ، وعن نوريَّة – الوحيدة التي تجرّأت على استفزازها. وكان متلهِّفا للتعرّف إلى الفتاة عن قرب، والوقوف على طبيعتها – خاصّة بعد ما قالته له جميع النساء عن جمالها الفريد، وعينيها المختلفتين، وجرأتها بالزواج من عريس ليس من العائلة.

وصل سليم إلى البيت الأزرق في اليوم الذي رأت فيه نوريَّة بقعة الدم في ملابسها الداخليّة مرّة أخرى، وجاءت لمشاركة أمّها آلامها. كان جمالها، حتّى إن كان مستترًا وراء فستان كبير ومنديل رأس يغطّي شعرها الذهبيّ مؤكِّدا على الحزن في وجهها، يفوق ما تخيّله. نزعت عيناه المنديل ونثرتا شعرها الغزير، ليسدل على كتفيها، ومزّقتا الفستان المزهّر الواسع وألبستاها فستانا ضيِّقا، أبرز ثدييها، ثمّ نزلت عيناه وكشفتا عن قدميها الرقيقتين وخلعتا منهما القُبْقَاب ووضعتا مكانه حذاءً بكعب عالٍ. تمدّد بأريحيّة بعد أن انتهى من إعادة رسمها من جديد، ثمّ فرش أمامها القماش وحاول الحديث معها.

"لماذا عيناك الخضراوان حزينتان؟" سألها بصوته الرقيق؛ لكنّها لم تنتبه إليه نهائيًّا.

"أغلق الله رحمها، ولا ندري ماذا نفعل. ذهبت إلى جميع الحاخامات والعرّافين والعرّافات، لكن لم ينفع شيء"، همست نزيمة خشية أن تكون مريم تقف خارج حجرة الضيوف تتنصت على الحوار.

نظرت نوريَّة إلى أمّها بغضب لأنّها تشارك رجلًا غريبًا سرّها.

"هناك شخص واحد فقط يمكنه مساعدة ابنتك"، قال سليم، "في رحلاتي إلى البصرة سمعت عن حاخام كبير جدًّا، لا توجد مشكلة يستعصي عليه حلّها. وهو موجود الآن في بغداد وإذا أردتما، سأخبركما كيف تصلان إليه". تمسّكت أمّها بكلّ بارقة أمل، وقامت من مكانها وقبلت يديه.

"زاهد البصرة" – كان ذلك لقبه عند جموع الناس، الذين كانوا يجلسون في فناء بيته الكبير في حيّ التوراة المجاور للكنيس الكبير، وينتظرون ساعات طويلة ليستقبلهم. لم يعرف أحد ما اسمه الحقيقيّ. وقالوا إنّه يقتات على الخرّوب ولا يتوقّف عن دراسة التوراة. وقبل أن تلقاه في المرّة الأولى، تخيّلته رجلًا بدينًا، يرتدي ملابس بيضاء وحوله هالة من نور. وعندما نادتها زوجة الحاخام أفاقت من أحلامها وسارعت في الدخول مع أمّها، وقلبها يخفق بقوّة؛ لكنّ زوجة الحاخام قالت لهما إنّ الحاخام غير معتاد على مقابلة النساء، وإنّها وسيطة بين النساء وزوجها. طلبت منهما معرفة اسميهما وسبب زيارتهما، لتستطيع إخبار زوجها. وقبل أن تفتح نوريَّة فمها، خرج الحاخام من غرفته فجأة وأمر زوجته بإدخال العروس وأمّها؛ وكما خرج بسرعة من حجرته، هكذا عاد إليها. دُهشت زوجة الحاخام من طلب زوجها، الذي لم يعتد أبدًا

على مقابلة النساء اللواتي يحضرن إليه؛ لكن كي تكون متأكّدة من أنهما لن تمسّا طهارته، سألتهما إن كانتا حائضتين. عندما نفيتا ذلك، فتحت الباب لهما، ودخلتا إلى حجرة الحاخام برهبة القداسة. كان يجلس في ركن حجرة متواضعة قليلة الأثاث، لكنّها مليئة بالكتب المقدّسة، وأمامه أحد كتبه وفوقه عدسة مكبرة. في البداية تجاهل وجود السيّدتين، وقد طلب قبل لحظة أن تدخلا حجرته، وفقط، بعد أن تنحنحت زوجته، رفع رأسه إليهما. تفحّصته نوريَّة بعينيها من أخمص قدميه حتّى رأسه. لم يكن يشبه أبدًا الرجل الذي رسمته في مخيّلتها. فجسده كان نحيفًا، والقميص الأبيض على جسده كان أكبر من مقاسه. يضع طاقية بيضاء على رأسه، وتُزين وجهه النحيف لحية بيضاء كثّة؛ لكنّها رأت في عينيه النور الذي توقّعته، فتشجّعت. عندما نظر إليها الحاخام، شعرت بأنّ جسدها يتحجّر ويتجمّد. أغلق الحاخام عينيه وارتعد كلّه. استطاعت أن ترى بعين روحها روحه تنفصل عنه وتحلّق في الحجرة. وبعد عدّة دقائق، كانت كالدهر بالنسبة لها، ظهر صوته العميق وتمتمت شفتاه:

"أنت حواء ابنة الربّ، لكنّك تحرّشت بالشيطان، فأغلق رحمَكِ".

"من هو الشيطان؟" فزعت أمّها.

"امرأة حانقة أُهينت كرامتها".

"وحيدة!" صرخت.

سيبطل السحر فقط إذا وجدته العروس وأحضرته إليّ بيديها".

"أين هو؟" سألت الأمّ.

"مخبّأ في بيت العروس". فتح عينيه وعاد إلى مكانه، وأمسك كتاب التوراة وسحب وراءه ستارة بيضاء أخفته.

بقيت نوريَّة في مكانها مذهولة حتّى بعد أن دخلت زوجة الحاخام وطلبت منهما الخروج من الغرفة، لتستطيع إدخال الشخص التالي. لا تذكر كيف خرجت من الغرفة، لكن ما إن خرجت عادت إليها قواها وشعرت بالانتعاش. طلبت من أمّها أن تعود وتحكي لها ماذا قال الحاخام. نظرت أمّها إليها بقلق وأخبرتها أنّه من اللحظة التي نظر إليها، بدت كالمسحورة، وكان يبدو أنّ روحه تحلّق فوقها وفي داخلها. في طريق العودة إلى البيت سكتتا ولم تتبادلا كلمة واحدة في ما بينهما. كانت نوريَّة محاطة بالسحر الذي صبّه الحاخام عليها وشعرت بالراحة. لم تفهم نزيمة لماذا خرج المتصوّف عن عادته وقابل ابنتها وجهًا لوجه، بل إنّه حدّق النظر فيها. وتسارعت الأفكار في رأسها على الرغم من معرفتها بأنّ هؤلاء المتصوفّين يحافظون على طهارتهم دائمًا وأبدًا ويمتنعون عن مقابلة النساء الغريبات عنهم.

بعد عودتهما إلى بيت نوريَّة، تفرّغتا على الفور للبحث في كلّ ركن فيه. سُرّت نوريَّة لعدم وجود أَذْوَر في البيت، فهكذا تستطيعان البحث بهدوء، من دون أن تُضطرّا إلى تفسير أعمالهما. فتّشتا كلّ أواني الطعام، وأخرجتا جميع الملابس من الخزائن، وقلّبتا مراتب السرير ووضعتاها على الشرفة، بل أخرجتا الكتب المقدّسة ونظرتا بين الصفحات، ونظّفتا الأرضيّة وبحثتا في أركان الحجرات - لكنّهما لم تجدا شيئًا.

"أين قد يكون؟" قالت نوريَّة يائسة.

"لقد قال: "مخبّأ في بيت العروس"، هذا يعني داخل البيت، وليس خارجه. سنجده، لا تقلقي"، شجعتها أمّها". نظرت نوريَّة إلى السقف الخشبيّ، لكن أمّها خافت من الفكرة وطلبت منها ألّا تجرؤ على البحث هناك.

"حيات (ثعبان) البيت تعيش في هذا المكان. ممنوع أن تقلقي راحتها – وإلّا أقلقت راحتك. أنا واثقة من أنّ

وحيدة الساحرة لا تجرؤ على المسّ بها"، قالت أمّها بحزم.

"ربما تعرف نعيمة أين هو. يمكنك سؤالها؟ تحدّثي معها بهدوء من دون أن تعلم مريم"، طلبت نوريَّة من أمّها. بحثت نزيمة عن نعيمة في البيت الأزرق، وعندما لم تجدها ذهبت إلى دكّانها في سوق حِنُّونِي. دُهشت نعيمة من رؤية أمّها وسألتها إذا كان قد حدث شيء لزوجها هامي أو ابنها سمير. "لا، لا قدّر الله! إنّهما بخير"، هدّأتها. "أودّ فقط أن أسألك سؤالًا، وأستحلفك بالله أن تخبريني الحقيقة. هل ألقت وحيدة بسحرها على نوريَّة كي لا تُنجب؟" حدّقت في عيني نعيمة اليائستين لتلحظ إذا كانت تخفي عنها الحقيقة، ولأوّل مرة تنجح في رؤية الخوف الذي يطلّ منهما عن قرب. "لا، أُقسم بالله أنّني لا أعرف. أنا طوال اليوم في الدكّان، وأنا سعيدة بأنّي لم أعد أشارك في سحرهما هي ومريم"، أجابت نعيمة أمّها وعادت إلى خدمة زبائنها الذين بدأت تظهر عليهم علامات نفاد الصبر.

في الوقت الذي خرجت فيه أمّها، تذكّرت نوريَّة كلمات الحاخام الذي قال: "العروس ستجده وتحضره إليه بيديها". لذلك اعتقدت أنّه يقصد أنّ عليها أن تجد هذا السحر بمفردها، من دون مساعدة أمّها، وبدأت البحث من جديد بجدّ. عندما بحثت ثانية في فراش سريرها، نظرت بعينيها إلى الفرشة ورفعتها، فظهرت لها قطعة من القماش الأبيض مخيّطة بها. خفق قلبها بقوّة، مزّقت قطعة القماش، وإذ بكيس أسود يسقط منها، ووجدت داخله قطعة قماش من فستان زفافها، بعض الشعر، دبابيس، موادّ عطارة وجلد ثعبان مكتوب عليه كلمات غير واضحة. غاضبة أخذت الكيس بيديها المرتعشتَين، وركضت إلى بيت والديها، وهي تخشى أن تُسقط محتواه.

"وجدته، وجدته"، صرخت لأمّها، التي جاءت إليها في طريق عودتها من السوق، وأسكتتها بيديها.

في اللحظة نفسها التي خرجتا باتّجاه البيت الذي كان يقيم فيه الزاهد. استقبلتهما رياح حارّة، فوضعت نوريَّة يدها على عينيها لحمايتهما من الشمس. منذ زيارتهما للزاهد في ساعات الصباح ارتفع عدد المنتظرين في ساحة البيت بشكل كبير، فملأهما الخوف من ألّا تنجحا مقابلة الزاهد، خاصّة أنّ الرجل لم يخبرهما إلى متى ينوي البقاء في بغداد، غير أنّه لدهشتهما اتّضح أنّه ينتظر مجيئهما، بل إنّه أرسل زوجته لتأخذهما من بين الجموع الغفيرة التي تنتظره في الفناء.

"كيف عرفتِ أنّنا هنا؟" قالت نزيمة بدهشة لزوجة الحاخام.

"الحاخام يعرف كلّ شيء"، أجابتها كمن فرغ صبرها، طلب الحاخام هذه المرّة أن تدخل العروس إليه بمفردها. نظرت نوريَّة إلى أمّها خائفة من الدخول وحدها، لكنّ نزيمة شجّعتها على الاستجابة لطلبه. وعندما دخلت نوريَّة حجرته لم تعد قدماها تقويان على حملها.

"أحضروا إليّ العروس من يديها"، استقبلها الحاخام. فمدّت له الكيس وهي ترتعش.

أخذ الحاخام الكيس من يديها وحرقه على الفور بما فيه، وتمتم ببعض الكلمات وطرد عين الحسد بحركات سريعة. واقترب منها وأمسك كفّي يديها بقوّة، ففزعت من ملامسة رجل غريب – على الرغم من كونه حاخامًا كبيرًا، ثمّ تدفّقت تيّارات ساخنة في يديها، وترنّحت من جانب إلى آخر فاختلّ توازنها، لكنّ الحاخام أمسك بها وثبّتها.

"لقد حرّرت رحمك"، قال لها، "لكنّ حرّيّتك لن تكتمل، وسيتربّص بك أعداء آخرون في كلّ مكان، سيرغبون في أخذ ثمرة بطنك. وشيء واحد فقط لن يستطيعوا أخذه منك، وهو ما أودعته في يديك".

لم تفهم ماذا يقصد، لأنّه لم يكن هناك شيء في يديها، لكنّها أومأت برأسها وقبّلت يديه، ثمّ تراجع إلى الوراء وعاد إلى مكانه خلف الستار. دخلت زوجة الحاخام لتصحبها إلى الخارج، وهمس لها الحاخام

بضعف أنّه متعب وألّا تدخل عليه متعالجين آخرين.

عندما أتى سليم لزيارتهنّ، فرحت نزيمة ونوريّة بلقائه وبشّرتاه بأنّه بفضل الزاهد من البصرة، حملت نوريّة في نهاية الأمر. ردّ سليم بأنّه من حُسن حظّهما أنهما التقيتا بالحاخام، لأنّه بعد لقائهما بعدّة أيّام عاد إلى البصرة وتوفّي هناك. حزنت نوريّة، وسألته أمّها إذا كان يعلم كم عمره. ردّ سليم قائلًا: "لا أحد يعلم كم عمره، لأنّ أحدًا لم ير وجهه أبدًا، إذ إنّه كان يجلس خلف ستار ليستقبل الناس. لكنّ يُعتقد أنّ عمره تجاوز المائة سنة"، فتبادلت النسوة النظرات في ما بينهنّ.

"كيف يكون ابن مائة سنة – ووجهه ناعم مثل الخزف؟" تعجبت نوريَّة، فقطّب سليم جبينه وتعجّب من معرفة نوريّة كيف يبدو وجهه.

"أكان له أولاد؟" سألت الأمّ لتزيح نظره إليها.

"لا، لم يُرزق بأولاد أبدًا".

.5

دخل أَدْوَر الحجرة وشاهد نوريَّة مستغرقة في النوم مع أنّ عينيها مفتوحتين على مصراعيهما، ويديها ممدوتين أمامها. أغلق عينيها، ووضع يديها على الفراش برفق كي لا يُفزِّعها، وتأكّد أنّها ليست محمومة، وغطّاها ببطّانيّة. بعدها رقد بجوارها على أمل أن يستطيع النوم، لكنّ رموش عينيه رفضت الإغماض. استدار نحو نوريَّة، ونظر في وجهها الجميل الهادئ، ولم يستطع فهم ما الذي يجعله غاضبًا منها بدلًا من أن يسعد بها ويحمد الله على أنّه منحه امرأة مناقبها تسبقها.

كان فيها كلّ ما تمنّاه، مثل قصيدة التبجيل لـ"المرأة الفاضلة" في سفر الأمثال. خلافًا للموعظة ذات الرسالة الساخطة، التي ألقاها على أطفاله قبل ذلك، دندن في قلبه بنشوة الترنيمة الدينيّة التي كان يردّدها كلّ يوم جمعة قبل القيدوش. [3] "امرأة فاضلة من يجدها... بها يثق قلب زوجها...تصنع له خيرًا لا شرًّا... تجلب طعامها من بعيد... وبثمر يديها تغرس كرمًا... وتمسك كفّاها بالفلكة...تبسط كفّيها للفقير... وتمد يديها للمسكين ... تعمل لنفسها موشيات... زوجها معروف في الأبواب... تصنع قمصانًا وتبيعها... تفتح فمها بالحكمة... بنات كثيرات عملن فضلًا أما أنت ففقت عليهن جميعًا... ولتمدحها أعمالها في الأبواب".

وكلّما أوغل في كلمات القصيدة أدرك أنّ الملك سليمان كتبها عن نوريَّة التي اختارها قلبه الذي انقبض عندما أدرك أنه لم يشكرها أبدًا، أو يثني عليها أمامها؛ وعندما كان يلقي القصيدة كلّ ليلة سبت، لم يكن لديه أيّ قصد حقيقيّ لمعنى الكلمات والعبارات المرتّبة حسب الأبجديّة العبريّة. هذا على خلاف السموّ الروحانيّ الذي كان يعيشه عند إلقاء قصائد الحمد والشكر لله.

"إنّها موفّقة في كلّ ما تصنعه أو تقوم به، رغم أنّ علمها بالعالم يقتصر على الحياة داخل الحيّ، وتستقي معلوماتها من القصص التي تُحكى في أحواش النساء ومن فم النمّامات، فهي لا تراوح مكانها أو تقيّد نفسها داخل ساحة بيتها. هي دائمًا تدفع نفسها إلى الأمام وتحاول الانطلاق وتجاوز الحدود"، قال في نفسه وحاول طرد الغيرة التي استيقظت داخله.

لقد عرف كلّ شيء عنها، حتّى لو حاولت أن تخفي عنه ما تشتغل به. في المعمل والكنيس امتدحوها وأخبروه بأنّها نجحت في مداواة الكثيرين بفضل خصالها ومعرفتها بالطبّ الشعبيّ؛ لكنّه خاف وغار عليها، لذلك لم يكنّ يحب خروجها وحدها من البيت.

في المقابل، توقّفت حياته عن التقدّم منذ اليوم الذي توقّف فيه عن الدراسة، وقرّر أبوه ترك بيتهم الواسع وعائلتهم الكبيرة والانتقال للعيش في الحيّ الذي سكنت فيه نوريَّة، بعيدًا عن كلّ ما عرف. توقّف وجهه عن الابتسام منذ ذلك اليوم، ومن وقتها وهو يعيش في زهد وتقشّف، راجيًا الله أن يغفر له، وإن لم يكن في الحياة الدنيا، ففي الآخرة. غضب أبوه منه بشدّة، حتّى إنه لم يتدخّل معه عندما اختار نوريَّة عروسًا له؛ لكنّ زواجه منها كان بالنسبة له بصيصًا ضعيفًا من الأمل في حالته الجديدة والكئيبة.

في الحيّ الجديد حصل على عمل في ورشة لغزل شباك الصيّادين. عمل في البداية مع العمّال، وكان يعود كلّ يوم منهكًا ومتعبًا من العمل المضني الذي لم يعتده، لكن، مع مرور الوقت، اكتشف صاحب العمل أنّه يعرف القراءة والكتابة فعيّنه مساعدًا لرحمين، مدير الحسابات العجوز. بعد وفاة رحمين، كان قد تعلّم كلّ دقائق العمل وشغل مكانه بسهولة. كان عمله مملًّا ورتيبًا، فقد كان عليه أن يجهّز التقارير والجداول عن إنتاج العمّال، ساعات العمل، مصروفات الورشة وإيراداتها، وعليه في نهاية كلّ يوم أن يدفع الأجر اليوميّ للعمّال، وأن يحصّل من الصيّادين ثمن الشباك التي اشتروها. عندما كان ينظر إلى ناتجه اليوميّ، كان يجد أرقامًا جافّة، لا يمكن تعلّم شيء منها عن قضايا سامية وفي غاية من الأهمّيّة كما هي في صفحات التلمود. لكنّ عزاءه كان أنّه لم يكُن في حجرة واحدة مع بقيّة العمّال الذين كانت حكايات بعضهم

عن سهراتهم في الملاهي الليليّة وعن أجساد الراقصات تضايقه، لأنّه شعر بأنّها تمسّ طهارته.
نظر إلى نوريَّة مرّة أخرى وقال في قلبه إنّه لا يستطيع التبارك بها بعد، لأنّ الله لم يغفر له بعد.

6.

هديل الحمام الذي ربّاه الجار نِسيم على سطح البيت، وأصوات المؤذّن يدعو المصلّين إلى صلاة الفجر، أيقظت نوريَّة من نومها. نهضت من فراشها حتّى قبل أن يستيقظ أَدْوَر لصلاة الفجر، وذهبت على الفور لإكمال أعمال المنزل، التي لم تستطع عملها في الأمس فطوت الملابس التي أصبحت كومة على الأريكة، وجمعت كتب ودفاتر أولادها التي كانت متناثرة على المنضدة الكبيرة، ووضعتها في خزانة الكتب. بعد أن جهّزت مائدة الفطور، جلست وبدأت بخياطة الثقوب في جوارب الأولاد.

استيقظ أولادها الواحد بعد الآخر ليوم جديد، ووجدت نفسها مرّة أخرى تتصرّف وكأنّها في شريط متحرّك: تُعدّ الشاي وإبريق الحليب، والقيمر مع السيلان، والزبد مع عسل التمر، والخبز والخيار الأخضر المقشّر. أعاد مئير التفيلين (شال الصلاة) إلى حقيبة القطيفة الزرقاء، وبعد أن انتهى من صلاة الصبح جاء على الفور ليسأل أمّه عن صحّتها وعن تفسير حلمها. وضعت نوريَّة إصبعها على فمها لتشير إليه بعدم الحديث؛ لأنّ أباه لم ينته من صلاته بعد، ومسحت بيدها الأخرى على رأسه. نظر أَدْوَر إليها من موضع وقوفه بصمت، وكانت النظرة التي تبدو من عينيه كما لو كانت تثبتها في مكانها وذكّرتها بنظرة أبيه القاتلة عندما كان يسخر منها.

انتظرت، بفارغ الصبر، أن يذهب الجميع في طريقهم، وعندما جاءت اللحظة المنشودة أخيرًا، جلست على الأريكة وفتحت ألبوم الصور العائليّة ونظرت في صورة أمّها وهي تمسك بابنها مئير، الذي سُمّي على اسم الحاخام مئير صاحب المعجزات. وتذكّرت كيف أعلنت زغاريد أمّها لكلّ من كان في البيوت المجاورة عن مولد ابنها البكر، ومن لم يسمع عرف ذلك عندما وصلت بيته صينيّة مليئة بمختلف أنواع المخبوزات والحلوى. كانت أمّها، على وجه الخصوص، سعيدة عندما أعدّت لوحيدة صينيّة حلويات متبّلة بملح الليمون والفلفل الأسمر. فقد انتظرت لحظة الانتقام هذه فترة طويلة، وجاءت بالضبط بعد تسعة شهور من حرق حاخام البصرة للسحر الذي أغلق رحمها سنة كاملة.

غصّت حجرتها بالكثير من النساء بعد الولادة، واقشعرّ جسمها عندما تذكّرت آلام الولادة. فقد عانت الليلة بطولها من آلام مخاض قويّة، وخارت قواها، وخافت من اختناق الطفل في رحمها. ولم تتخيّل مثل كثير من الفتيات شدّة هذه الآلام. فقط بعد الولادة، بالأمّ الأولى حواء التي حُكم عليها ولادة البنين بألم. وتذكرت أقوال زاهد البصرة، لذلك سارعت، عندما وضعت مولودها مئير في حضنها، إلى التأكّد من أن أعضائه كاملة. فحصت في البداية وجهه، ثمّ يديه وقدميه، وفقط بعد أن تأكدت من أنّ ليس به عاهة. لم تعرف كيف تمسك بالرضيع، وكانت نظرة النساء إليها تزعجها. مزّقت قميصها وحاولت أن تقرّب رأس الطفل من حلمة ثديها، لكنّ رأسه سقط على بطنها. امتلأت الحجرة فجأة بوشوشة النساء، وأرادت كلّ واحدة أن تشرح لها، بناءً على تجربتها، ما هي الطريقة الصحيحة لإرضاع الطفل. أسكتت أمّها النساء، وخاصة رحمة إم كِلُّو التي تعرف كلّ شيء، وقالت لهنّ بفخر إنّها قادرة هذه المرّة على مساعدة ابنتها دون الحاجة إليهنّ. فعلّمتها كيف تمسك به، لكنّ الطفل كان يحرك وجهه كلّما حاولت نوريَّة أن تضع فمه على الحلمة. أمرتها أمّها بالضغط على الحلمة وتقريب الثدي من فمه، وليس العكس. ففعلت كما قالت أمّها وحركت الحلمة، التي امتلأت بقطرات الحليب على شفتي الطفل، لكنّه أغلق فمه ورفض أن يفتحه رغم كلّ محاولاتها. لم يتوقّف جسمها عن الارتجاف، وطلبت من أمّها أن تغطّيها ببطانيّة أخرى. أخذت نزيمة الطفل ووضعته في فراشه، وطلبت من النساء الخروج من الحجرة. ولتضمن ألّا يزعجها أحد جلست على كرسيّ عند مدخل الحجرة وحرست ابنتها.

بشّرت رائحة البخور التي تفوح من جسمها بمقدم مريم قبل أن تقف على باب حجرة نوريَّة. وقفت هي

وأختها نعيمة معًا أمام أمّهما بثوب مزيّن بالزهور بشكل صارخ، منتعلة قبقابًا يكشف عن كعبين متشقّقين، وأظافر صفراء، وحاولت شقّ طريقها إلى حجرة نوريَّة. لكنّ نزيمة طلبت منها عدم دخول الحجرة كي لا توقظ نوريَّة من نومها. ردّت مريم بنظرة حقد عبّرت عن غضبها من جلوس أمّها كالشرطيّ على باب الحجرة. وقطّبت وجهها وقالت لها بصوت مرتفع:

"أنت تميّزينها عنّا دائمًا. أعطيتها أفضل الطعام، وحِكت لها أفضل الثياب من القماش الممتاز الذي كان يحضره لك عمّو سليم. إذن هي أنجبت ولدًا، ماذا في ذلك؟ فنحن أيضًا أطفالنا بنون. أنا عندي فؤاد، ونعيمة عندها سمير، لكنّك لم تغضبي من أجلنا. ولم ترسلي الحلويات لكلّ العالم، ولم تحرسي أبواب حجراتنا كي لا يزعجنا أحد. لماذا تعاملينا معاملة سيّئة؟ ما الذي فعلناه بك؟ ما الذي تتميّز به عنّا؟".

احمرّت وجنتا نزيمة من الخجل، لأنّ هذه الكلمات قيلت في حضور جاراتها اللواتي لم تُخْفِ وجوههنّ سعادتهنّ بأنّ مريم أمدتهنّ بأخبار جديدة لنقلها لمن لم يسمعها، فتمنّت أن تبتلعها الأرض في تلك اللحظة. لكنّ مريم استمرّت من دون توقّف: "أتمنّى ألّا تختلط عليك الأمور وتعتقدين بأنّ هذا الطفل هو ابن السلطان!" تجمّدت نعيمة خلفها، وشجّعت مريم، أختها التي تكبرها بعامين، مؤكّدة على كلامها؛ لكنّ نعيمة التزمت الصمت وأعطت أمّها صينيّة كبيرة من المدجوجة، شطائر التمر والجوز من صنع يديها، من أجل إكثار حليب الوالدة، ولم تنبس ببنت شفة. غضبت مريم من صمتها، وقبل أن تعود أطاحت بالصينيّة من يد أمّها، وتناثرت الشطائر في كلّ مكان.

كانت نزيمة مذهولة من شدّة غيرة مريم، لكنّها فضّلت عدم التشاجر معها، لأنّها كانت تخشى أن تغضب نوريَّة ويتوقّف الحليب في ثدييها، كما أنّها لا ترغب في إرضاء جاراتها النمّامات. على الرغم من أنّه كان لديها الكثير لتقوله لها، وخاصّة عن نصيبها في بالسحر ضدّ أختها. أيقظت الأصوات الشديدة نوريَّة من نومها، وسمعت أحقاد مريم، وحمدت الله في نفسها على أنّه أعطاها ولدًا. فقد تذكّرت أقوال زاهد البصرة ونذرت نذرًا، بأنّه إذا بقي ابنها على قيد الحياة، وبلغ سنّ الخامسة، فإنّها ستقص جدائل شعره بجوار ضريح النبي يحزقيل وستقيم حفلًا كبيرًا.

في اليوم الذي أتم فيه مئير الثلاث سنوات – وكانت تحمل في رحمها ابنها الثاني – أخبرها أَدْوَر أنّه يريد اصطحاب مئير إلى الكنيس ليقصّ له جدائله.

"هناك شيء لم أخبرك به: لقد نذرت في اليوم الذي ولد فيه مئير بأن أقصّ شعره بعد أن يتمّ الخامسة"، صارحته.

"بأيّ حقّ تتذرين نذرًا يخصّ ابني بغير علم منّي؟ لا يجوز نذر النذور هكذا! ألا تعلمين أنّه يُعاقَب على ذلك؟ هذا النذر باطل، لأنّه يخالف التوراة والقبلاه"، [4] قال غاضبًا وضرب على المنضدة بشدة. "مكتوب في التوراة: "ثلاث سنين تكون لكم غلفاء. لا يؤكل منها. وفي السنة الرابعة كلّ ثمرها قدسًا لتمجيد الرب". هل تفهمين، أنت يا جاهلة، معنى الكلمات؟ فالإنسان مثل نبتة الأرض"، رفع صوته وضرب برجليه.

"لقد نذرت نذرًا ولا أستطيع مخالفته"، تجاهلت نوريَّة كلامه بلغة لم تفهمها إطلاقًا.

" أَبِيل عْلِيكِ، عليك الحزن، فلتذهبي إلى الجحيم! حسب القبلاه أوّل حلاقة للطفل تكون يومًا مميَّزا، ويوم فرح عنده. وهكذا صنع الحاخامات مع الأطفال، لذلك علينا نحن أيضًا أن نحلق له شعره في السنة الثالثة من عمره – وليس حسب خرافاتك أنت وأمّك"، قال وسحب الولد بقوّة إلى الكنيس.

بكى مئير وأراد العودة إلى أمّه. احمرّ وجهها من الغيظ وذرفت الدموع، ولم تفهم لماذا يشتمها ويعاملها بهذا السوء والاستهزاء. ركل الجنين رحمها، وطلبت منها أمّها أن تصبر وأكّدت عليها أنّها لا يجب أن تغضب – وإلّا ستفقد الطفل الذي في بطنها. أخذت الحلويات وكيس الملح وأسرعت مع أمّها إلى الكنيس.

قفز عبد الله الشحاذ، الذي كان صغيرًا وقتها، من مكانه فرحًا برؤيتها وأشار لها بيده أنّ أَدْوَر موجود في الكنيس مع ابنهما. ابتسمت له، ووضعت أمّها حفنة من الحلويات في يده، فرقص حولها فرحًا، وحرّك لسانه من دون صوت كالنساء اللواتي يزغردن فرحًا. في مصلّى النساء مالت نوريَّة بجسدها نحو خزانة كتب التوراة، التي فتحها الحاخام ليخرج كتاب توراة، وتمتمت بدعاء، طالبة من الله أن يسامحها على إلغاء نذرها. نظرت إلى أَدْوَر بغضب، كما غضبت من نفسها لأنّها تسمح له بإهانتها.

عندما أنهى الحاخام قصّ ضفائر شعر مئير تاركًا الذؤابتين فقط وهو يردّد وصيّة: "ولا تقصروا رؤوسكم مستديرًا" وبارك مئير قائلًا: "مثلما حظي الفتى بالشوشة، فكذلك سيحظى بالتوراة ومظلّة الزواج والأعمال الطيّبة"، وردّ المصلّون بصوت واحد: "آمين، لتكن المشيئة!" بعد انتهاء الطقوس، ألقت نوريَّة الحلويات باتّجاه مئير، وتنافس الأطفال في الكنيس على جمع أكبر قدر منها. تعلّقت الدموع في عيني مئير عندما شاهد الحلوى تتكدّس في جيوب الأطفال ولم يكن في يديه ولو قطعة حلوى واحدة، لأنّ أباه أمسكه بقوّة ولم يدَعه يجري ويجمعها.

بعد انتهاء الصلاة خرج الرجال، الذين كانوا يبدون مهملين وشيوخًا، من الكنيس وأسرعوا إلى بيوتهم. كانت تلك الفترة أيّام الحرب الكبرى، التي حارب فيها البريطانيّون والفرنسيّون والروس العثمانيّين الذين كانوا يحكمون العراق في ذلك الوقت. انتشرت القصص في الأحياء اليهوديّة حول خطف الجنود الأتراك لآلاف الرجال وإرسالهم عنوة لمحاربة العدو، لذلك حرص الجميع على عدم صبغ شعرهم، لأنهم اعتقدوا أنّ الجنود لن يرسلوا إلى الجبهة رجال يبدون مسنّين. حتّى أبوها توقّف عن إخفاء عمره ولذلك اضطرّ إلى عدم الذهاب إلى التياترو.

نزلت نوريَّة من سدّة الصلاة للنساء ودخلت الكنيس الذي خلا من المصلّين، وانحنت إلى الأرض التي كانت مليئة بشعر مئير المقصوص، ورفعت جديلة، ولفتها في منديل أزرق، وعندما اعتقدت أن لا أحد يراها خبّأتها في صدريّتها.

رفعت رأسها ودهشت عندما رأت أَدْوَر ينظر إليها بغضب. فجأة باغتتها آلام ولادة مزقت أحشائها إربًا. قفز مئير نحو أمه وطلب منها أن تعطيه حلوى، فجذبه أَدْوَر من يده وخرج معه من الكنيس. لم تستطع أن تلقي الملح عليه لتحميه من الحسد، لكنّ لحُسن حظّها استطاعت الوصول إلى المنزل قبل أن ينزل سائل المشيمة، وهناك وضعت ابنها الثاني، حِيِّيم، وهو اسم جد أَدْوَر.

واصلت نوريَّة تصفّح ألبوم الصور العائليّة. ونظرت إلى صورة أمّها التي تهزّ يوسف، ابنها الثالث، الذي ولد بعد أن احتلّ البريطانيّون بغداد وساروا في شوارعها، قبل عام من انتهاء الحرب الكبرى. تذكّرت كيف وضعت ذات مرّة يوسف في فراشه، ومع حماسة نظافة ما قبل عيد الفصح، لم تلتفت إلى بكائه فزعًا. وعندما أفاقت أسرعت إلى غرفته – فاقشعرّ جسدها من هول ما رأته: ثعبان البيت، الذي سكن السقف، سمع بكاء يوسف، فنزل إليه ووضع رأسه داخل الفراش، قرب لسانه من وجه يوسف، ولفّ ذيله حوله الفراش وهزّه. فتح يوسف عينيه وأخرج لسانه ولعق وجه الثعبان ونام. تجمدت نوريَّة في مكانها ولم تعرف ماذا تفعل. دخل أَدْوَر الحجرة، وعندما لاحظ الثعبان، نظر إلى نوريَّة، ووضع إصبعه على فمه وأشار لها بالسكون. واقترب من الثعبان وقرب شفتاه منه وقال:

"يا ثعبان البيت"، همس له، "شكرًا لك على أنّك حافظت على ابني. وأعدك أن نستمرّ في الحفاظ عليك وعلى أولادك، ولن يمسّك أحد بسوء. والآن اترك ابني ودعني أحمله بين ذراعي".

تراجع الثعبان إلى الخلف، وبعد أن أخذ أَدْوَر يوسف من الفراش، ضرب الثعبان الفراش بذيله بغضب واختفى بين فراغات السقف الخشبيّ المرتفع. ومنذ ذلك اليوم كانت تتصوّر نوريَّة أنّ الثعبان يتابع يوسف

من أعلى، فحرصت على عدم تركه بمفرده من دون مراقبة.

هبّت رياح خفيفة وحرّكت ستائر نافذة الغرفة. نظرت إلى الفناء وتذكّرت أنّ عليها أن تسقي حوض النباتات الطبّيّة ونباتات العطارة وأن تزرع أوراقًا جديدة لنبات السذاب. خطرت ببالها ذكرى صالح، فهو الذي كان يمدها ببذور الحوض التي كانت ترعاها في فناء البيت، الصغير نسبيًّا، مقارنة بالبيت الأزرق المجاور الذي تربّت فيه. صالح العطار، هكذا كانوا يلقّبونه باسم مهنته، وكان من الجيل الثالث والأخير لبائعي العطارة ومركّبي الأدوية من النباتات الطبّيّة. لم يُبدِ أولاده أيّ اهتمام بتعلّم المهنة وفضّلوا الاستمرار في مهنة جدهم، والد وحيدة، التي كانت بيع المخبوزات. لذلك حملوا، على غير رضا صالح وعلى غير المعتاد، لقب عائلة جدهم أبو الچِرَگ. ومن أجل ضمان أنّ أسراره لن تختفي معه، علَّم نوريَّة خصائص النباتات التي كانت تزرعها في فنائها وكيف تركّب منها الأدوية. وعلّمها، خفية، في البداية بعيدًا عن عيون وحيدة وأختي نوريَّة، حتّى قبل أن تكتشف قواها الخاصّة؛ لكن بعد وفاة روبين، ابنه الأوسط، في العام الذي تولّى فيه الملك فيصل حكم العراق، تغيّر الوضع في البيت الأزرق، ولم يعد أحد يبالي به ولا بوحيدة أيضًا. في أيّامه الأخيرة عندما خفّ شعر رأسه وامتلأ شاربه بالبياض ووجد سلواه بالقرب من نزيمة ونوريَّة.

عندما علمت وحيدة بموت روبين بالمرض العصبيّ الذي عانى منه، أصيبت بجلطة، فأصبحت حطام إنسان. وشُلّ النصف الأيمن من جسدها تمامًا، وأصبح النصف الأيسر فقط من جسدها هو الذي يقوم بأدائها؛ وسكت فجأة صوتها الذي كان يسيطر على البيت؛ واعوجّ فمها الذي كان يعرف إلقاء اللعنات والأوامر فقط. هما فقط عيناها الصغيرتان المائلتان اللتان كانت تنظر بهما إلى المحيطين بها بغضب بقيتا في مكانهما. كانت تجلس طوال اليوم من دون حركة في كرسيّها في شرفة الطابق الثاني. وتجاهلتها زوجتا ابنَيها تمامًا وكذلك أحفادها، ونزيمة التي لم تكلّمها كلمة واحدة منذ أن مزّقت فستان زفاف نوريَّة. ولولا هيلة، زوجة يعقوب، الأخ الأصغر لنوريَّة، التي حرصت على إطعامها وتغيير ملابسها المتّسخة، لأصبحت مثل عمود الذباب، الذي يحيط طوال الوقت بجسدها ويلتصق به. كانت هيلة ابنة عمّ صالح، زوّجها أخواها من يعقوب بعد وفاة والديها، ثمّ هاجرا من العراق للعيش في القدس، التي كانت تحت الانتداب البريطانيّ.

منذ أن اكتشفت نوريَّة تورّط وحيدة في منعها من الحمل، حرّمت عليها أمّها دخول البيت الأزرق؛ لكنّ وحيدة مرضت وأصبح واضحًا أنّها لا تشكّل خطرًا عليها، فسمحت لها نزيمة بالعودة وزيارة البيت من دون خوف. وعندما وقفت لأوّل مرّة، بعد عشر سنوات، في الباب تجمدت في مكانها واحتارت إن كان من الصحيح دخول البيت الذي أبعدت نفسها عنه فترة طويلة؛ لكنّها عندما مرّت على الدَكَّة، مدخل البيت، ودخلت الفناء، رفعت رأسها، كما اعتادت، إلى لطَّرْمَة، شرفة الطابق الثاني، وانتظرت سماع قرع العصا وملاحظات مَن كانت المسيطرة على البيت بلا منازع – لكنّها لم تسمع أيّ كلمة. وبدلًا من الشعور بالنصر والشماتة لهزيمة عدوّتها اللدود، استيقظت في قلبها مشاعر الشفقة عليها. في كلّ المرات التالية التي دخلت فيها البيت بعد ذلك، لم تجرؤ على الصعود إلى الطابق الثاني والنظر إلى وحيدة عن قرب. ليس خوفًا منها، لكن حفاظًا على كرامتها. وأمام الصورة المذلّة لعمّتها، التي كانت قعيدة في كرسيّ بلا حول ولا قوّة، سعدت برؤية أمّها وصالح في زهوّهما مع نهاية أيّامهما؛ وعندما حاولت وصفهما، لم تعرف إن كانا يشبهان السجناء الذين يكتشفون طعم الحرّيّة بعد إطلاق سراحهم، أم أنّهما كعاشقين ينظران إلى بعضهما البعض بلهفة وشوق غير قادرَيْن على تحقيق حبّهما. كان كلّ فردمن سكّان البيت مشغول بالتكيّف مع الوضع الجديد في البيت، ولم يلحظ أحد أنّ أختها مريم تسيطر بالتدريج على الأمور وبدأت تؤدّي دور وحيدة. كانت نوريَّة تخاف على سلامة هيلة، أكثر من أيّ شيء، فقد كان صالح قريبها الوحيد في بغداد. وطالما هو على قيد الحياة، كانت تحظى بالحماية من السلوك العنيف ليعقوب ومن مريم.

عندما ماتت أمّها نزيمة، بعد ذلك بعامين، كفّت عن زيارة البيت الأزرق وعادت إليه مع أدْوَر والأولاد فقط من أجل المشاركة في ولائم المناسبات والصلوات، التي أجراها أخوها وأختاها لذكرى أمّهم بعد مرور أحد عشر شهرًا على وفاتها (سنة الناقصة)، وبعد ذلك في الذكرى السنوية (سنة التمام). كما تذكر أنّه عندما كان الجميع مشغولين في حشو بطونهم بوليمة هذه الفريضة "الذكرى السنويّة"، كانت تبحث هي عن أمّها بين مداخل البيت، موهمة نفسها بأنّها قد تظهر لتلقي "التحيّة" الأخيرة عليهم قبل أن تصعد روحها نهائيًّا إلى السماء؛ وعندما نظرت إلى الشرفة خُيّل إليها أنّ عينيّ من كانت ملكة البيت تناديها للصعود إليها.

يُتْم نوريه ووحدة وحيدة أثّرا فيها كي تصعد الدرج إلى الطابق الثاني. وعندما وقفت أمامها وجهًا لوجه بعد سنوات طويلة من القطيعة، شعرت كيف انفطر قلبها عندما شاهدت وحيدة عن قرب في ضعفها وبؤسها. أرادت أن تنهضها من كرسيّ العرش، الذي أصبح باليًا وقذرًا، وأن توقفها على قدميها لتعانقها مثل كانت تفعل من ذي قبل، ودفعة واحدة عادت لتصبح الفتاة الصغيرة، التي تجلس عند أقدام عمّتها وتدلّك قدميها. ولمّا لم تسمع صوتها، الذي كان يحملها يومًا ما بلطف إلى صحراء العراق وأنهاره وإلى أسواق دمشق المتنوّعة، رفعت رأسها إليها لتسألها عن سبب صمتها – حينها شاهدت اعوجاج فمها وعينيها التي تراقبها دامعتين. فشمّرت ثوب الحزن الذي ترتديه وبدأت بتدليك قدميها بكلّ حماسة من أجل إثارة الحياة في المرأة التي كانت تحترمها ذات يوم وأرادت أن تشبهها. لم تعرف حينها أنّ في يديها قوة خاصة، لذلك لم تدرك مصدر الحرارة التي تدفّقت منها ونجحت في أن تمنح قدم وحيدة اليسرى السليمة الحياة، تلك القدم التي كانت قد توقّفت عن الحركة لعدم استخدامها فترة طويلة، ثمّ قامت بحلّ شعرها ووضعت يد وحيدة اليسرى السليمة على رأسها من أجل أن تحفزها على الحركة مثلما كانت تفعل من ذي قبل، لكنّها بقيت في مكانها بلا حراك.

وقفت نوريَّة على قدميها، ولمست يد وحيدة – فتراجعت من جمودها. فقامت بتدليك اليد ولاحظت أنّ تيار الحرارة ظهر مرة أخرى في يديها، ونجحت في منح يد وحيدة اليسرى الحياة، وعندما لمست أصابعها نجحت في أن تجعل الحياة تدبّ فيها من جديد. جلست ثانية عند قدمي وحيدة واستمرّت في تدليكهما، حتّى لاحظت أن وحيدة تحرك أصابع قدمها اليسرى. رفعت رأسها متعجّبة من التغيير الذي أحدثته في جسم وحيدة، ونظرت في عينيّ عمّتها وشاهدت الدموع مرّة أخرى معلّقة فيهما – حينها فقط أدركت ماذا وضع زاهد البصرة في يديها. ضعف جسمها، واتّكأت على عمّتها لمعانقتها ووعدتها بأنّها ستعود في الغد من أجل مواصلة الاعتناء بالشقّ الأيمن المشلول من جسمها. وقبل أن تودّعها شعرت أن عمّتها حرّكت أصابع يدها اليسرى ولمستها.

وبالفعل، خلعت في اليوم التالي ثوب الحزن عنها ووصلت بكلّ نشاط إلى البيت الأزرق. ظهرت لها مريم في ثوب مزهر مشدود عليها، حتّى أبرز سمنتها، ومنعتها من صعود السلم إلى الطابق الثاني. "أنا الآن صاحبة البيت، وليس هناك ما تفعلينه في بيتي"، ورفعت رأسها إلى أعلى كاشفة في تباهي عن أسنان ذهبيّة جديدة تزيّن فمها. حاولت نوريَّة إقناعها بالسماح لها برعاية وحيدة المريضة، لكنّ مريم جذبتها بيدها الغليظة وأخرجتها من بيتها. وقفت نوريَّة مذهولة لا تدري ماذا تصنع. طرقت بالحلقة النحاسيّة المثبّتة على الباب الذي أغلق في وجهها، وسمعت مريم تصرخ في بنات البيت، وخاصّة هيلة، بألّا يفتحن. ذهبت حزينة إلى دكّان صالح في سوق حِنُّونِي، ووجدته جالسًا على دكّة في الدكّان الضيّق وينظر إلى الميزان الذي أمامه غير مبتهج، متجاهلًا الزبائن. فمنذ أن ماتت أمّها بدا كما لو أن فتيل حياته قد قُطع، وكانت تحرص على زيارته يوميًّا وتشغله بأسئلتها عن أسرار النباتات الطبّيّة، كي يكون لديه سبب ليستيقظ في اليوم التالي وينتظرها. أخبرته باكتشاف قوّة يديها وبأنّ مريم منعتها من علاج وحيدة. قام صالح من مكانه كمن لدغه ثعبان، ورجاها أن تبتعد عن البيت الأزرق وعن مريم كي لا تؤذيها. ظنّت للحظة أنّ أمّها هي

التي تقف أمامها وتحذّرها من مصدر الشرّ. جذب يديها نحوه وقبّلهما، فخجلت من أنّ رجلًا كبيرًا يقبّل يديها – بدلًا من أن تقبّل هي يديه وتشكره على كلّ الخير الذي أغدقه عليها هي وأمّها؛ لكنّه أسرع إلى شكرها على أنّ عطارته ونباتاته الطبّيّة تُستخدم في العلاج وصنع أعمال الخير، وأنّه يرى في ذلك علامة على عفو الله عنه على عدم نجاحه في إبعاد زوجته عن الأعمال المحرّمة. نصحها بالتعامل مع النباتات كما لو كانت أبناءها، وأن تقطفها في ضوء النهار فقط، وفي أيّام الاثنين والخميس، الأيّام التي تُقرأ فيها التوراة في الكنيس. ووعدها قائلًا: "حينها فقط ستَرين بركة عملك".

عندما جاءت إليها هيلة في أحد الأيّام، وفي يدها منديل أمّها الذي كان مع صالح منذ موتها، أدركت أنّها فقدت من كان أبًا لها، وأرادت العودة إلى البيت الأزرق لرعاية وحيدة؛ لكنّ هيلة منعتها ووعدتها بأنّها سترعاها مثل أمّها.

دموع نوريَّة أفاقتها من ذكرياتها، وتفرّغت لريّ النباتات في الحديقة والاهتمام بها كما علّمها صالح. وبعد أن ملأت رائحة النباتات المنعشة والمسكرة أنفها، عادت لتتصفّح الألبوم العائليّ، ووجدت نفسها تمرّر يدها وأصابعها على يد أمّها ووجهها في الصورة بشوق وحنين. "أريد أن أخبرك بكثير من الأمور"، همست في قلبها. "بالطبع كنت ستسعدين لأنّني وجدت وسيلة أعتاش منها، فأنا أعتني بأجسام السيّدات، وكنت ستدركين إلى أيّ درجة قد سئمت سلوك أَدْوَر المهين في كلّ مرة أطلب منه المال لشراء الطعام. عندما كنت على قيد الحياة لم أشاركك في حزني، ولم أحكِ لك كيف كان يخرج صرّة النقود من جيبه، ويفتحها ويعدّ القطع النقديّة واحدة تلو الأخرى، ثمّ يطلب منّي فتح يدي، كما لو كان عبد الله الشحاذ يقف أمامه، ويضع المال في يدي، ويقول بصوت مرتفع المبلغ الذي أعطاه لي، ثمّ يغلق يدي. وكان يحذّرني من أنّ المبلغ الذي أعطاني إيّاه يجب أن يكفي لتغطية جميع مصاريف الأسبوع – على الرغم من أنّه لم يكف أبدًا - وكان يطلب منّي ألّا أتوجّه إليه بطلب زيادة قبل يوم الجمعة التالية. كان يبعدني عنه بقوله "اذهبي، ولا تجعليني أضيّع وقت الانشغال بالتوراة". كنت ستفهمين بالطبع إلى أيّ درجة كان هذا الطقس يهينني، لكنّني لم أُرِد أن أحزنك. لن أنسى أبدًا كيف قام ذات يوم بائع في سوق حِنُّوني بإحراجك أمام الجميع، عندما أعطيتِهِ مبلغًا أقلّ ممّا طلب: خطف منك التفّاح وأعاده إلى الصندوق، وألقى المبلغ الذي أعطيتِهِ إيّاه في كلّ اتّجاه، وسقط على الأرض المتّسخة واللزجة. فعاهدت نفسي حينها أنّني لن أسمح أبدًا لأيّ شخص بأن يهينني، ولن أعرف الحاجة عندما أكبر. وبدلًا من التذمّر بدأت بإزالة الشعر عن أجسام النساء، مثلما علّمتني، كما تعلّمت أن أُعدّ بنفسي مختلف الأنواع من الخلطات المرطبة من أجل ترطيب بشرة الوجه والجسم وجعلها ناعمة. كنت أطحن اللوز أوّلًا، ثمّ أخلطه بنباتات خضراء وزيت الزيتون، بعدها بدأت أجرّب هذه الكريمات على عزيزة ابنة رحمة إم كِلُّو، التي هي مثل الأخت لي. بالتدريج عرفت أنّني بحاجة إلى إضافة خلاصة الزهور إلى التركيبة، واستخدمت المعرفة التي حصلت عليها من الرجل الطيّب صالح الذي أخذه الله إلى جواره، وعمّا قريب سيمرّ عام على وفاته. كلّ يوم أضيف مادّة عطارة أو أنواع زيوت مختلفة، حتّى نجحت في تركيب كريم يغذّي بشرة الوجه والجسم. في الذكرى السنويّة لوفاتك رأيت وحيدة. وأنا لا أريد أن تغضبي منّي، لكن على الرغم من تصرّفها معي لم أستطع أن أنسى ما صنعته من أجلنا – فلولاها لمُتنا جوعًا. وعندما دلّكت قدميها ويديها خرجت حرارة من يدي، وبدأت قدمها ويدها اليسرى، التي كانت جامدة كالجانب الأيمن المشلول، بالتحرك ودبّت الحياة فيهما. لم تستطع الكلام معي، لكنّني شاهدت الدموع في عينيها، الأمر الذي أثّر فيّ بقدر كبير. حينها ظهرت الميزة التي وضعها زاهد البصرة في يديّ؛ وكلما عالجت أجسام السيدات أكثر، أدركت أنّ الله حباني بقدرة على تغيير حياة النساء اللواتي يعشن في ضائقة، كما لو أنّ الدهر قسى عليهنّ. كانت هذه القوّة في يديّ طوال أربعة عشر عامًا ولم أعلم بوجودها، اكتشفتها فقط عندما اعتنيت بالمرأة التي آذنتني. أنا أفهم الآن كم هي رائعة طرق الله. لقد أردت الاستمرار في رعايتها، ربّما لأنّي كنت أن أعالج الجانب المشلول من جسدها. لكنّ مريم، التي تتصرّف

مثل إمّ الآنا، صاحبة البيت، لم تحتمّل وجودي وطردتني. إنّها تسيطر الآن على كلّ شيء، إلأكَو وِ□لْمَاكُو، على البيت وعلى مال وحيدة وذهبها. من حسن الحظ أنّها تركت لنعيمة الدكان لتستطيع أن تنفق منه على أسرتها. وعلى الرغم من كلّ ذلك، لم أستسلم لمريم وأعتني بوحيدة عبر هيلة الطيّبة صاحبة الوجه الملائكيّ. فأنا أعطيها مراهم خاصّة أقوم بإعدادها، وتقوم هي بتدليك جسمها بها. والآن عاد كلّ الجانب الأيسر من جسمها للحياة، لكن مازال الجانب الأيمن مشلولًا من دون تغيير. أخبرتني هيلة بأنّ عينيّ وحيدة تدمعان عندما ترى المرهم، هي واثقة من أنّها تعلم أنّني من أعدّه لها".

انتقلت أفكار نوريَّة إلى زيزي، وكانت فضوليّة في معرفة ماذا كانت ستقول أمّها عنها، لو كانت على قيد الحياة. وعرفت في داخلها أنّ أمّها كانت بالطبع ستشجّعها على التصادق معها، فعلى عكس كثير من النساء في العالم، لم تكُن ترى في زيزي عاهرة، مثلما كان ينظر إليها الكثيرون.

على الرغم من مرور سنتين منذ وفاة أمّها، إلّا إنّ نوريَّة شعرت بأنّها ما زلت غير مدركة لفراقها، الذي فرض عليها العزلة والحزن في داخل الأسرة – خاصّة بسبب حقد مريم وفقدان العلاقة الخاصّة التي كانت بينها وبين وحيدة. أمّا نعيمة فكانت لا تكلّمها معها تقريبًا، لأنّها كانت مشغولة دائمًا، لكنّها لم تؤذِها على الأقلّ. إنّها لا تتذكّر أمّها مريضة أبدًا، لأنّها كانت تُخفي دائمًا أعراض مرضها، وكانت تواصل أعمال البيت وتربية الأحفاد حتّى في أثناء مرضها، كما لو كانت لا تزال في ذروة قوّتها وقدرتها، حتّى انهارت في أحد الأيام، ولم تقم من يومها. لقد حدث ذلك بعد عيد الفصح بقليل، ولم يذكر الطبيب الذي استُدعي لعلاجها سبب موتها واكتفى بكلمات: "الله عطا والله أخذ". لم تحبّ هذه العبارة، واستعصى عليها أن تفهم لماذا لم تتحدَّ أمّها الموت وتبقى معها. فهي لم تجهّزها لليتم! وبعد شهور طويلة من موت نزيمة، استمرّت في الحلم بأنّ أمّها سوف تعود إلى الحياة بجسد مريض، وبأنّها تخبّئها في داخل بيتها وترعاها في مرضها خفية، وأنّهما تستغلّان كلّ لحظة قبل الفراق النهائيّ، غير إنّهما تستعدّان له، هذه المرّة، كما ينبغي. فرحت نوريَّة لأنّ صالحًا حرص على أن يرسل إليها ملابس أمّها المحبّبة إليها قبل أن تضع مريم، التي كان ذوقها في نظرها صارخًا، يدها عليها، وبذلك استطاعت، على الأقلّ، الحفاظ على رائحة أمّها المحبوبة والحنين إلى هذه الرائحة في الوقت الذي كان يصعب عليها تحمّل الوحدة التي فُرضت عليها. وقبّلت صورة أمّها وأخبرتها مرّة أخرى بأن الحياة صعبة من دونها.

.7

على الرغم من أنّ أَدْوَر كان يعلم بداخله أنّ نوريَّة تستحقّ تقديره، إلّا إنّه سوء معاملته لها ازداد من يوم إلى آخر. فأبعدها عنه، وتوقّف عن الإنفاق على البيت، وقاطع الطعام الذي أعدّته، وحاول أن يفرض على أولاده ألّا يأكِلُوا من طبيخها.

"هذا الطعام اشتُري بمال ملوّث، لذلك سيسمّم أرواحكم الطاهرة. وعليكم الابتعاد عن أمّكم. لا من عسلها ولا من لدغها، حسب المثل"، ان يغسل أدمغتهم، فقد كان يخشى ألّا يغفر الله له بسبب أعمالها. ومنذ ذلك الحين كانت تتناول مواعظه اليوميّة للأطفال النساء الخاطئات والمضلّلات في العهد القديم. وكان مئير يشمئزّ من محاولات أبيه تصوير أمّهم بالمرأة الضالّة والخاطئة، لكنّ نظرات أبيه الموبّخة كانت تُسكته، وتمنعه من الدفاع عنها. وخلافًا له كان أخوه حِيِّيم، الذي لم يرغب في الانفصال عنها، والذي أطلّ من فتحة من بطنها، الوحيد الذي لم يَخَف من أبيه، مع أنّه كان يبلغ من العمر عشر سنوات، وطلب من أبيه أن يعرض، مقابل قائمة النساء الخاطئات، النساء اللواتي باركتهن التوراة، مثل: مريم أخت موسى، ودورة النبيّة، وياعيل زوجة حابر القينيّ. كانت نوريَّة تضحك سرًّا أحيانًا، وتفسّر تصرّف حِيِّيم مع أبيه، بأنّ أَدْوَر أغضبها لها في اليوم الذي ولد فيه حِيِّيم، عندما قصّ شعر رأس مئير بخلاف رغبتها.

قرّرت نوريَّة عدم الاستسلام لأَدْوَر، لكنّها بدلًا من مواجهته طوّرت أساليب خفيّة من أجل إطعام أولادها. إذ كانت تضع الطعام مسبَّقا في الخبز وتخبّئه في حجرتهم. وإذا جاء أَدْوَر إلى البيت قبلهم كانت تُدخلهم إلى الحجرة، وتطعمهم وتقف عند مدخل الحجرة، وتراقب كي لا يدخل أَدْوَر؛ وإذا حضروا قبله كانت تُجلسهم حول المائدة وتراقب من النافذة المطلّة على الزقاق لتحذّرهم من مجيء زوجها. هكذا لم يتركوا وراءهم أيّ أثر قد يغضبه، ولم يضطرّوا إلى الكذب عليه ولو مرّة واحدة، لأنّه لم يسألهم أين أكلوا. وعدتها زيزي بأنه لن يسألهم أبدًا، لأنه يعلم أنّه ليس أمام الأولاد مكانٌ آخر يأكلون فيه. وكانت تحبّ النظر إلى أولادها الثلاثة ومشاهدة الأخوّة بينهم –رغم أنّ أباهم قد ميّز يوسف بمعاملة خاصّة. كان قلبها ينشرح عندما كان يلعب مئير مع يوسف الغمّيضة داخل البيت ويجعله يضحك بشدّة، وكان حِيِّيم يحمّسه بحكايات "ألف ليلة وليلة"، التي قرأها، بشوق، بعيدًا عن نظر أبيه. هذه اللحظات الساحرة عندما كان يضطرّ أبوهم إلى العمل لوقت متأخّر نهاية كلّ شهر.

وعندما علمت زيزي أنّ نوريَّة تستمرّ في إعداد الطعام لأَدْوَر كلّ يوم على الرغم من سلوكه، ومع أنّه لا يمسّه أبدًا، صرخت فيها. فلم يطرأ ببالها أنّ نوريَّة تصرّفت بهذه الطريقة لأنّها لم ترغب في أن يسمع جيرانها صوت الصراخ يصدر من بيتها، ويجعلونها الضحيّة التالية لنمّامات الزقاق. "العيب" سيطر عليها مرّة أخرى. اقترحت عليها زيزي أن تراقب أَدْوَر لمعرفة أين يسُدّ جوعه، قبل أن يعود إلى البيت ليقدّم لها موعظته عن أخلاقها. تردّدت نوريَّة في البداية وقالت إنّ ذلك لا يعنيها. لكنّها كانت واثقة في داخلها أنّه يأكل في بيت والديه؛ لكنّها عندما فكّرت في ذلك مليًّا، راودها الشكّ، لأنه بناءً على معرفتها بأَدْوَر، اعتقدت أنّه لن يرغب في الاعتراف أمام والديه بأنّه أخطأ عندما تزوّجها. حتّى بعد أن فُتح رحمُها وأنجبت ثلاثة صبية، كان من المفترض أن يرفعوا رأسها في نظره، إلّا إنّ أباه – الذي سعى طوال الوقت إلى التأكيد أمامها وأمام كلّ من يقابله أنّه من نسل حاخامات كريمي النسب – استمرّ باستفزازها وإهانتها ومناداتها بـ"ابنة الزاني". بعد وفاة أمّها أصبحت سهرات والدها الليليّة لأيّام طويلة، بل لأسابيع، بفضل المال الذي أعطته إيّاه مريم، لتوفّر الهدوء في البيت كي تستطيع القيام بأعمالها السحرّيّة من دون إزعاج.

تغلّب عليها فضولها، وخرجت لمراقبة أَدْوَر. لبست عباءة وغطّت وجهها وجسمها كالمسلمات، وانتظرته بجوار محلّ عمله في ورشة غزل شباك الصيد. بعد انتهاء يوم العمل، خرج مع بقيّة العمّال، وبدلًا من أن

يتوجّه إلى الزقاق المؤدّي إلى الحيّ اليهوديّ سار باتّجاه كورنيش نهر دجلة، ووقف هناك أمام دكاكين الصيادين، الذين باعوا للمارّة السمك المشويّ بالخبز مع العمبة. أسرعت إلى بيتها غاضبة وقرّرت ألّا تقدّم له الطعام بعد ذلك. عندما عاد ولم يجد الطعام على المائدة، رفع صوته صارخًا فيها:

"أين الطعام؟".

لم تردّ نوريَّة. أرادت الصراخ وإخراج كلّ الغضب الذي في داخلها، لكنّها لم تنطق بكلمة.

لم يستسلم أَدْوَر، واقترب منها وصرخ في أذنها:

"أين الطعام، يا امرأة؟".

"لا مال، لا طعام"، ردّت عليه وانطلق صوتها في صرخة مدوّية.

كانت أوّل مرّة في حياتهما يرفع يده ويصفعها. تلقّت الصفعة، ونظرت إليه نظرات تطاير الشرر منها غضبًا. تسمّر مئير في مكانه ولم يعرف ماذا يصنع، أمّا حِيِّيم فقد وقف بين أمّه وأبيه للدفاع عنها. انفجر يوسف في البكاء وأمسك برجل أبيه كي لا يضرب أمّه ثانية. ومن دون أن تقول شيئًا دخلت الغرفة بغضب، وجمعت أغراضها ونقلتها إلى غرفة الأولاد، وفرشت البطاطين على الأرض وقرّرت أنّ هذا مكان فراشها الجديد. قلّدها يوسف وحِيِّيم، وتوسّل إليها مئير أن تنام في فراشه، وينام هو مكانها على الأرض، لكنّها أصرّت على أن يتركها تفعل ما تريد بزعم أنّ عموده الفقريّ مازال ضعيفًا ويحتاج إلى دعم، أمّا هي – فظهرها قويّ، لذلك تستطيع النوم على الأرض. نظر أَدْوَر في يده ولم يصدق أن هذه اليد قد ضربت محبوبته، فدخل حجرته ولم يخرج منها طوال المساء.

وفي اليوم التالي، استيقظت مع ابتسامة عريضة، غطّت على ذكريات الأمس. لم يكن لها من تشاركه حلمها الذي أيقظ فيها الأمل، وسيكون عليها الانتظار ثلاثة أيّام أخرى، حتّى يوم الخميس، يوم لقائها الأسبوعيّ مع زيزي. خرج أَدْوَر عن عادته، وبدلًا من أن يذهب إلى الكنيس لصلاة الفجر ومشاهدة إخراج كتاب التوراة صباح يوم الاثنين، بقي في البيت وقرأ في كتاب الصلوات بصوت مرتفع. تجاهلت نوريَّة محاولاته جعلها تتواجه معه – على الرغم من أنّه أراد لفت انتباهها - واستغلّت صلوات زوجها لتطلب من الله أن يحقّق حلمها، وأن ينجح ابنها مئير في حياته ويتزوج من امرأة متعلّمة مثله.

"حلمت أن مئير يرتدي بدلة أفنديّة، مثل الإنجليز، ويجلس على مكتب كبير، في غرفة كبيرة، وينتظره أناس كثيرون في طابور ليساعدهم"، هكذا قالت نوريَّة لزيزي بانفعال شديد، "طلبت من الله أن يكمل الصورة وأن يجعلِ لابني عروسًا ذكيّة ومتعلّمة مثله. إذا استجاب الله لدعائي، سأعتبر ذلك مكافأة على سنوات البؤس مع أَدْوَر ومع عائلتي"، أضافت في عيون مضيئة.

"وماذا تمنّيت لنفسك؟" سألت زيزي وقالت في قلبها إنّه من حُسن حظّ نوريَّة أنّ ليس لديها بنات – وإلّا لكان الحزن أكبر بكثير؛ فهي، على الأقلّ، تستطيع أن تحلم من خلال أبنائها.

"ليس الكثير"، ردّت عليها. "أردت أن يكون الزوج الذي اخترته مختلفًا عن رجال الحيّ، وألّا يعاملني كخادمته، مثل الأرض التي يسيرون عليها أو مثل الأعشاب التي يدوسونها. طلبت أن يتحدّث إليّ، وأن يحترمني، وأن يصغي أيضًا لما أقول، أنا المرأة". أرادت أن تضيف أنّها كانت تريد أن يحبّها، ويحتضنها ويبتسم إليها كما كان يفعل في الأيّام الأولى من زواجهما، لكنّها خجلت. "بعد كلّ شيء، فالمكان الذي جئت منه" قالت في نفسها، "التعبير عن المشاعر والرغبات غير مألوف، والجميع يتصرّفون وفق أعراف ثقافة العيب نفسها، التي تربّوا عليها جيلًا بعد جيل في المجتمع المنغلق". حتّى أمّها، التي أحبّتها حبًّا جمًّا، لم تغدق عليها الدفء. فهي لا تذكر مرّة احتضنتها أو قبّلتها فيها. وحيدة فقط هي التي احتضنتها؛ وعندما

تذكّرت عناق وحيدة، ملأها الحزن لعدم قدرتها على الاعتناء بها بنفسها. ولقد وجدت نفسها أكثر من مرّة أمام البيت الأزرق، بل فكّرت في الدخول لتعلم وحيدة أنّها لم تنسَها، لكنّ خوفها من مريم – أن تؤذيها هي وأبناءها – سمّرها في مكانها.

قالت زيزي في نفسها إنّ طلبات نوريَّة بسيطة للغاية! فكلّ ما تريده هو المعاملة الكريمة وربّما القليل من الحبّ – حتّى وإن لم تعبّر عن ذلك بصوت مرتفع. تعجّبت من أنّ نوريَّة لم تعبّر عن الرغبة في الانطلاق خارج الأسوار، التي بُنيت حولها منذ أن وُلدت، ليتسنّى لها الخروج من البيت والعمل وربّما الدراسة أيضًا؛ لكنّها تراجعت عن نيّتها قول ذلك لنوريَّة، وأخبرتها، بدلًا من ذلك، أنّها هي أيضًا كانت لتكون سعيدة لو أنّ عائلتها وزوجها الأوّل صدّقوها واحترموا كلامها. ماذا صنع لها التعليم والمال الذي كان لديها؟ استغرقت في أفكارها ولم تنتبه لنوريَّة، التي نظرت إليها منتظرة منها كلمات تشجيع.

"في الأيّام الثلاثة الأخيرة، حتّى لقائي بك، كان لديّ كثيرٍ من الوقت للتفكير في حالي. فكّرت في أنه عندما تولد البنت عندنا، المرّة الوحيدة التي يحتفون فيها فعلًا هي عندما تتزوّج وتنتقل إلى عصمة الزوج وعائلته. أتعلمين لماذا؟ لأنّ عائلتها تكون سعيدة بتخلّصها أخيرًا من مسؤوليّة الإنفاق عليها، وفي مقابل المهر تنقل كلّ هذا العبء المرتبط برعايتها إلى شخص آخر. لكنّهم يحتفون بالبنين طوال الوقت، منذ ميلادهم. تصوّري عدد الاحتفالات التي يقيمونها للأولاد: البريت (الختان)، البار متسـاه (الوصول لسن التكليف في الثالثة عشرة)، طقس النضوج الذي يحتوي على إعداد الأرزّ مع الماش، للإعلان أمام كلّ الناس عن ظهور شعر في جسمه، وبالطبع طقس الزواج. حتّى أنّني لا أذكر متى وُلدت بالضبط، ولا حتّى متى وُلدت بنات أخريات في عائلتي. أتعلمين لماذا؟ لأنّ ذلك كان يوم حزن بالنسبة لآبائنا، وكانوا يفضّلون أنّ يمّحي ذلك اليوم بدلًا من تذكّره"، قالت وتذكّرت كتب صلوات جدّها، أبو الچّرَگ، وكذلك كتب أَدْوَر، التي سُجّلت فيها أيّام ميلاد أبناء العائلة. "من المثير للاهتمام كيف هو الأمر عندكم، في العائلات الراقية؟" سألت نوريَّة زيزي.

"كلّا. أنا أيضًا لا أعلم في أي يوم وُلدت بالضبط، لكن تقريبًا"، أجابت، ولم تفهم ما الذي جعل نوريَّة تحاول الوقوف على مكانة المرأة.

"من المثير أنّه على الرغم من كوننا بلا مكانة في مجتمعنا، إلّا إنّنا العمود الفقريّ للأسرة، ومن دوننا لانهار كلّ شيء. علّمونا منذ سنّ صغيرة العمل الشاقّ، والطهي، والغسيل، والتسوّق، ورعاية إخوتنا الصغار، وخدمة الجميع. نحن نربّي أطفالنا ونتعلّم تدبير أمورنا بالأموال القليلة التي نحصل عليها من أزواجنا. كما أنّنا نعتاد تحمّل جفاء أمّهاتهم تُجاهنا، ونلبّي كلّ يوم نزوات ورغبات أزواجنا – حتّى إذا كنّا متعبات ونريد الخلود إلى النوم استعدادًا ليوم جديد. في المقابل، فإن أزواجنا ليسوا في حاجة إلى التعامل مع أيّ شيء – باستثناء الذهاب إلى العمل خارج البيت، لأنّهم منذ أن وُلدوا وهم يُدلَّلون ويُخدَمون. لذلك لم يعتادوا التعامل مع الصعاب، ولهذا السبب يكون من الصعب عليهم التعامل مع التغيّرات والفشل"، ابتسمت نوريَّة كنوع من نشوة النصر والإحساس بالقيمة الذاتيّة.

لم تفهم زيزي ما الذي مرّت به صديقتها خلال الأيّام الثلاثة الأخيرة وسألتها دون قصد: "هل ضربك أَدْوَر ذات مرّة؟" وعلى الفور ندمت على كلامها، مثلما حدث معها أكثر من مرّة في حديثها مع نوريَّة. لقد خافت أن تجرح المرأة الوحيدة التي جرؤت على أن تخبرها بمكنون قلبها. فمنذ سنوات لم تكن لها حوارات شخصيّة مع أحد، وغطّت نفسها بشخصيّة أخرى ضاحكة ومبتسمة فقط. لم يسألها أحد أبدًا عن حالها، لأن أحدًا لم يهتمّ بها، وكانت كلّ رغبتهم هي الحصول منها على البهجة والتسلية التي كان عليها تقديمها لهم؛ لولا زوجها، الذي حماها بحرص شديد، لكان في الحكومة من يرغبون في الاستمتاع بجسدها.

أخفضت نوريَّة عينيها، وملأ زيزي الغضب. "سأحرص على أن يقطعوا يديه، إذا كان قد ضربك.

أخبريني؟" حثّتها بعين يتطاير الشرر منها. "كلّا. كلّا. مرّة واحدة فقط. صفعني هذا الأسبوع، وقرّرت أن أعاقبة وألّا أنام معه أبدًا. أنا أنام على الأرض في حجرة الأولاد. العجيب هو أنّه هناك بالذات، على الأرض، أشعر بأني أكثر امرأة حرّة في العالم". شاهدت زيزي ابتسامة نوريَّة على وجهها مرّة أخرى.

"وكيف كان ردّه؟" قالت زيزي بتشوق.

"يغلق على نفسه الحجرة مع كتب التوراة، وأنا في غرفة الأولاد. أضع له الطعام على المائدة، ويأكل في بعض الأحيان. لكنّه لم يعد يعطيني النقود. ربّما ينتظر أن أنهار وآتي لأطلب نقودًا منه، لكنّني لم أعد محتاجة إليه. لقد فهمت أنّه لا يجوز أن أخاف منه، أنا أنتصر عليه بهدوئي. والآن يتناول الأطفال الطعام على المائدة حتّى عندما يكون في البيت. مكتوب في التوراة أنّ الرجل يترك أباه وأمّه ويلتصق بزوجته ويصبحان جسدًا واحدًا. الأمر مختلف عندنا. فبعد أن كبرنا على مدى خمس عشرة سنة معًا، منذ أن تزوّجنا في سنّ صغيرة، نحن بعيدان مثل العالمين المنفصلين، لا يربط بينهما شيء". وتبدّل الفرح الذي أطلّ من وجهها بنظرة كئيبة.

"وماذا عن الأطفال؟ ألا يربطون بينكما؟" سألت زيزي، مندهشة من عمق كلمات صديقتها غير المتعلّمة.

"حتّى الأطفال لم يربطوا بيننا. أَدْوَر فرّق حتّى بينهم. فمئير وحِيِّيم يتبعوني، ويوسف يتبعه". قالت، وظهر الإحباط في وجهها. ناشدتها زيزي بأنّه إذا حاول أَدْوَر، لا قدر الله، ضرْبها مرّة أخرى، أن تدخل غرفتها وتغلق بابها عليها.

"أنا أعلم إنه إذا ضربك ستقومين وتغادرين تاركة كلّ شيء؛ لكن تذكّري أنّ لديك أطفالًا وعليك الحفاظ عليهم. أتعلمين لماذا؟ لأنّ أعداءك يمكنهم أن يأتوك من داخل أسرتك – لا من الغرباء، كما يقول المثل: الحجر القريبة تؤذي". قالت وهزّت رأسها أسفًا.

نظرت إليها نوريَّة وتساءلت إذا كان هناك سبب آخر إضافة إلى التجربة المرّة، يجعل زيزي تؤكّد على تحذيرها من عائلتها.

مئير

بغداد، 1929

8.

لحسن حظّ نعيمة ومريم أنّهما أنجبتا أطفالًا قبل أن تتفشّى الأمراض في جسمَي زوجيهما وتصيب قدرتهما على الإنجاب. رُزقت نعيمة، التي تكبر نوريَّة بثلاث سنوات، بطفلَين- سمير وهو البكر الذي تميّز بطوله وقوّته البدنيّة وعمل إلى جانب أمّه في دكّان المخبوزات منذ أن كان طفلًا في الثامنة من عمره، وذلك بعد أن ترك دراسته في (ا)لِسْتَاذْ (الكتّاب اليهوديّ). كان يؤدّي في أوقات فراغه انشغل بالرياضة وبتقوية عضلاته لأنّه أراد أن يصبح مصارعًا محترفًا، يشارك في المسابقات وينال الشهرة والمجد في جميع أنحاء العراق، مثل المصارع العراقيّ المعروف الحاجّ عبّاس الديك. أمّا دوريس، فقد كانت صامتة وذابلة مثل أمّها، لكنّ عينيها السوداوين كانتا كبيرَتَين وحانيتَيْن وتذكّران بجدّها صالح. كان شعر رأسها مجعَّدا، اكتسب لونه الأحمر من الحناء ممّا أعطى لونًا وجمالًا لوجهها الهزيل. كانت نعيمة سعيدة بأطفالها وحمدت الله على عدم معاقبته لها لاشتغالها في صغرها، عن غير وعي، بالسحر المحرّم. مع ذلك، عندما بدأت دوريس بالمشي، اتّضح أنّ إحدى قدميها أقصر بقليل من الأخرى. أحضرت لها وحيدة في طفولتها حذاءً خاصًّا، أحدهما بكعب عالٍ لخلق توازن بين القدمين، لكنّ دوريس بقيت تهتزّ في سيرها من جانب إلى آخر. كانت تخشى الخروج من البيت بمفردها بسبب سخرية الأطفال منها؛ إذ أطلقوا عليها "دوريس العرجاء"، لذلك كانت تتّبع بِيرْطَة، ابنة مريم التي كانت تصغرها بعامين، إلى كل مكان، وتشعر معها بالحماية. عندما كبرتا الاثنتان، ابتعدت بِيرْطَة عن دوريس بإيعاز من أمّها، كي لا تحقد عليها وتحسدها.

أمّا مريم، التي كانت تكبر نوريَّة بسنة واحدة، فقد رُزقت بثلاثة أطفال: فؤاد، الذي كان يعاني من مرض الصرع، وعلى الرغم من أنّها كانت تطعمه أطعمة دسمة، إلّا إنّه كان نحيفًا مثل أبيه؛ وحبيبة وبِيرْطَة، اللتين كانتا مثلها ممتلئتين وقصيرتي القامة. كان شعر حبيبة أسودَ وطويلًا وكان وجهها فاتح اللون ولطيفًا مثل أبيها، أما بِيرْطَة فقد كان شعرها خفيفًا ومموجًا مع عينين بارزتين "كَنِّي بُومَه "، مثل البُومَة- هكذا أطلقت عليها جدّتها نزيمة.

بعد أن تزوّجت حبيبة من سمير، الابن الأكبر لنعيمة، فُتح الطريق لزواج دوريس، وكان من المفترض أن يكون الدور على بِيرْطَة بعدها. كانت هذه هي العادة في البيت الأكبر، وفي بغداد بشكل عامّ: لا تتزوّج الفتاة حتّى تتزوج الأكبر سنًّا قبلها. بصفتها صاحبة الرأي في البيت الأزرق قرّرت مريم أن تتزوّج دوريس من ابنها الأكبر فؤاد، أمّا بِيرْطَة فتتزوّج من مئير، لكنّها لم تشرك أصحاب الشأن في مخطّطها؛ إلّا إنّ نعيمة دافعت عن ابنتها الوحيدة وعارضت زواجها من رجل مريض. "ألا يكفي ما عانيناه؟ زوّجيه من فتاة غريبة كي يتوقّف المرض في العائلة"، قالت لمريم، التي قطّبت وجهها لتجرّؤ أختها على الاعتراض على كلامها. "إذا كان الأمر كذلك، فلن تنتظر بِيرْطَة حتّى تجدي العريس المناسب لابنتك العرجاء"، قالت، وكان كلامها كالطعنات في قلب نعيمة. أسرعت مريم ونادت بِيرْطَة وشجّعتها على الاستحواذ على قلب مئير، قبل أن تتحدّث نعيمة مع نوريَّة.

منذ ذلك الوقت بدأت بِيرْطَة تواظب على الحضور كلّ يوم إلى بيت نوريَّة على الرغم من أنّ خالتها لم تحبّ زياراتها. كان مئير على وشك إنهاء دراسته الثانويّة، وكانت نوريَّة تخشى أن تشغله بِيرْطَة غير المتعلّمة وتعيق تحقيق حلمها. لكنّ مريم كانت تعتبر مئير عريسًا جيِّدا لابنتها، ولذلك أرسلتها مرارًا لتطرق بابه، على الرغم من تجاهُل نوريَّة لطرقاتها العنيدة، وكانت تكشر في وجهها، وتطلب منها بأدب المغادرة ولم تحاول إخفاء اشمئزازها منها.

كانت بِيرْطَة مستعدّة لفعل أيّ شيء من أجل مئير، حتّى وإن لم يطلب منها ذلك – الأهمّ هو أن تلفت

انتباهه. أحضرت له القلم الرصاص الذي سقط، وعثرت له على الممحاة التي سقطت على الأرض، وأحضرت له الماء عندما شعر بالعطش، وأعدّت له شطائر الخبز عندما شعر بالجوع. وعندما رأت أنّه يتجاهلها، بدأت بارتداء الملابس الضيّقة، التي أبرزت مفاتنها، واحتكت بجسده بغرض إثارة شهوته تُجاهها. لم تَخْفَ هذه المحاولات عن نظر نورِيَّة، وكانت تخرجها من بيتها بحجّة أنّها تُزعج أولادها في أثناء مذاكرة دروسهم. لم يلتفت مئير إلى بِيرْطَة بالمرّة، لأنّ فكره كان مشغولًا بأمل، إحدى التلميذات في مدرسة لورا خضوري للبنات، المجاورة لمدرسته.

شاهدها للمرّة الأولى عند استضافة تلاميذ فصله في مدرستها، لمشاهدة مسرحيّة الملكة إستير، التي مثّلتها التلميذات. جلست البنات في المقدّمة والأولاد في الخلف، وهكذا جلست هي في الصف المقابل له. دفعه صوتها العذب إلى النظر إليها ومراقبتها، وعندما استدارت إلى الوراء للحظة رأى عينيها السوداوين، اللتان ألقيتا بسحرهما عليه، كما في القصص. توقّف عن الاستماع إلى المسرحيّة وسخّر كلّ حواسه في محاولة الاستماع إلى صوتها مرّة أخرى. ومنذ ذلك الوقت وهو ينتظرها يوميًّا بعد الدراسة ويتبعها عند خروجها من المدرسة. عرف من أصدقائه في الفصل، الذين سكنوا بجوار بيتها، في منطقة □يلات اليهود الجديدة، خارج الحيّ القديم الذي سكنه، أنّها من أسرة محترمة، وأنّ أباها مدقّق حسابات كبير في وزارة الماليّة العراقيّة، تحت إشراف إبراهيم الكبير اليهوديّ، المحاسب العامّ للوزارة، والذي ذاع صيته مثل أوّل وزير يهوديّ في الوزارة، ألْسِرْ ساسون يحزقيل. لقد كانت مختلفة عن بنات البيت الأزرق. كانت ملابسها حسب الذوق الأوروبّيّ، وكان شعرها الناعم، المسدل على كتفيها، يصنع إطارًا كاملًا لوجهها الرقيق. أحبّ عينيها على وجه الخصوص، اللتان أسرتا قلبه، واعتقد أنّ سر ذكائها يكمن فيهما. في السنة الأخيرة فقط، تجرّأ على الاقتراب منها. على مدى أيّام كاملة خطّط للّحظة التي يتحدّث فيها إليها، وكان في كلّ يوم يؤجّل الموضوع إلى اليوم التالي خشية أن يفشل اللقاء بينهما. كان أخوه حِيِّيم هو مَن شجّعه، ومنحه الجرأة على الذهاب إليها. وذات يوم، وحِيِّيم يقف خلفه، توجّه إليها، لكنّه لفرط انفعاله اصطدم بها وأسقط كرّاساتها. احمرّ وجهه، واعتذر لها. من دون أن تقصد لمست يداه يديها عندما كان يساعدها في جمع أغراضها، وعندما رفع رأسه نحوها، قابلت عيناه العسليّتان الخجولتان عينيها السوداوين، وسقطت كرّاساتها من يديه مرّة أخرى. ارتعدت يداها من لمسته، وسارعت لجمع أغراضها وتركت المكان من دون أن تقول له شيئًا. غضب من نفسه لأنّه فقد الأمل في علاقة معها، بسبب عدم ثقته بنفسه، لكنّها انتظرته في اليوم التالي وراقبته بعينيها، التي بحثت عن الشابّ طويل القامة، العريض المنكبين، صاحب الشعر الأسود وخصلة الشعر المسرّحة على الجانب الأيسر، والشارب الرفيع والعينين العسليّتين الواسعتين والخجولتين. رآها وخاف من الاقتراب منها كي لا ينفعل ويسقط كرّاساتها مرّة أخرى، لكن ما إن عثرت عيناها عليه، اقتربت منه وسألته إذا كان يستطيع مساعدتها في حلّ مسألة في الرياضيّات. بعدها جاءت نظرات خاطفة، وقصاصات ورق مخفيّة، ولمسات بسيطة، وازدهر الحب بينهما. سمحت له أن يصاحبها إلى بيتها مع انتهاء اليوم الدراسيّ. كانا في بعض الأحيان يفتتنان ويشتريان من عمّو داهود، الذي كان يقف بعربته في مدخل المدرسة، الخبز الساخن المدهون بالعمبة، وكان يشعر بأنّ تاجًا يوضع على رأسه عندما كانت تمسح أمل زوايا فمه التي التصق بها هذا الطعام الأصفر الذي كانت رائحته تلتصق به.

كان مئير تلميذًا متفوّقا، وكان مدرّسوه يتوقّعون أن يحصل على أعلى الدرجات في الثانويّة، بل وفي كلّ بغداد – مما سيمكّنه من الالتحاق بالدراسات العليا في العراق أو الحصول على منحة للدراسة في جامعات هارج العراق. كان التقدير الذي يحظى به من مدرّسيه ونظرات الإعجاب من زملائه في الفصل، تمحو تعامل أبيه المستهزئ، واضطرّ إلى العيش بين عالمين. فقد كان مستغرقًا بالكامل في الدراسة، وفي التفكير بأمل، لذلك عزل نفسه عن أيّ شاغل آخر يمكن أن يؤثّر في تحصيله، وكذلك عن ملاحظات أبيه المخجلة.

في الوقت الذي كان يناقش فيه زملاؤه في الفصل وكذلك مدرّسوه، هويّتهم على خلفيّة الإضرابات التجاريّة، والمظاهرات في العراق ضدّ اليهود والبريطانيّين بسبب أحداث عام 1929 في الارض المقدّسة، تنحّى جانبًا ودرس بجدّ استعدادًا للامتحانات. ولم يزعجه نهائيًّا أنّ يهود العراق اضطرّوا، بسبب هذه الأحداث، إلى إغلاق أعمالهم من شدّة الخوف ولم يخرجوا من بيوتهم على مدى أسبوعين. لم يشارك هو في هذا الجدل. ولم يكن يهمّه أنصار العراق الذين اعتبروه وطنهم، ولا أولئك الذين أيّدوا الصهيونيّة واعتبروا أرض إسرائيل وطن اليهود. لقد أراد أن يثبت لأبيه فقط أنّه يستحقّ التقدير، واعتقد أنّه إذا نجح في دراسته، سيكون من السهل عليه إقناع والد أمل بأنّه العريس المناسب لابنته – على الرغم من أنّه لا ينتمي إلى نفس طبقتها الاجتماعيّة. لقد كان كلّ تلاميذ فصله ينتمون إلي عائلات، حالتها الاقتصاديّة أفضل منه بكثير، ولم يتصوّر أحد منهم أنّ عائلته ما زالت تسكن في الأزقّة الضيّقة في الحيّ اليهوديّ. حتّى طريقة ملبسه لم تنمّ عن حالته الاجتماعيّة والاقتصاديّة، لأنّ ملابسه كانت نظيفة، وتفوح منها رائحة الكولونيا الغالية الثمن.

*

أصوات هَلاَهِلْ، زغاريد، نوريَّة، التي أعلنت عن إنهاء مئير دراسته، وصلت حتّى البيت الأزرق. أسرعت الأخت الكبرى نعيمة في خلع ثوب الطبيخ من عليها، وكانت تزيّنه بقع الزيت الصغيرة والكبيرة، القديمة بجوار الجديدة، وارتدت ثوبًا أسودَ مهلهلًا، بدا على جسمها، البارز العظام، مثل الخرقة. ودخلت بيت نوريَّة، من دون أن تطرق الباب، وسألتها:

"لماذا الفرحة، يا أختي؟ أنسيت أنّنا في عام حزن؟ ماذا سيقول عنّا الجيران؟"

طلبت نوريَّة العفو وأخبرتها بأنّ مئير أنهى دراسته بتفوّق كبير، لذلك لم تستطع أن تتمالك نفسها. أسرعت إلى تقديم المخبوزات الحلوة لأختها، لكنّ نعيمة أقسمت أنّها لن تضع شيئًا في فمها إلّا إذا لبّت رغبتها. جلست نوريَّة على الكرسيّ، خائفة من القادم، ومن دون قصد وضعت طبق الحلويات على ركبتيها بدلًا من أن تضعه على المنضدة.

"لا توجد فتاة في العائلة مناسبة لمئير مثل دوريس. من ناحيتي، علينا أن نعلن خطبتهما الآن، وخلال شهر، عندما ينتهي عام الحزن على هامي والعمّة وحيدة، يمكن أن نزوّجهما. لا مشكلة مع المهر. فنحن مستعدون وجاهزون". قالت بصوتها، الذي لم يُسمع تقريبًا على مدى سنوات طويلة؛ وكان يبدو لنوريَّة أنّ موت هامي قد أزاح عن كاهلها عبء الحزن الذي صاحبها أكثر من عقدين.

عندما مات هامي لم يحاول أيّ من أهل البيت الأزرق أن يقول لوحيدة إنّ ابنها قد مات؛ وعندما جاء رجال "حِفْرَا قَادِيشَا" (جمعيّة دفن الموتى) مع الدلو والأواني الكبيرة من أجل تغسيل الجثمان في بيته وتجهيزه للدفن، شاهدت وحيدة من مكانها الدائم في شرفة البيت في الطابق الثاني، ابنها يحمله المغسّلون إلى الفناء ويضعونه على المنضدة ووجهه إلى أعلى ويغطّونه بملاءة بيضاء. لم تنجح كلّ محاولاتها للصراخ بأن يحضروا ابنها إليها - قبل أن يبدؤوا بتغسيل جثمانه وتكفينه. استطاعت فقط أن تُصدر من حنجرتها الخرساء بعض المقاطع المزعجة. هزت قدمها اليسرى غير المشلولة ونجحت في التعلّق بالشرفة، لكنّها فقدت توازنها وسقطت من الشرفة على مقعد حجري في فناء البيت وماتت في الحال.

هبّت نوريَّة من مكانها فزعة عندما سمعت طلب نعيمة، وتبعثر طبق الحلويات على الأرض. "مئير لا يستطيع الزواج الآن. إنّ ترتيبه الأوّل على كلّ بغداد. أتعلمين ماذا يعني أن يحصل يهوديّ على أعلى الدرجات في بغداد؟ يجب أن يواصل تعليمه في الجامعة". ارتعد صوتها محاولة بكلّ قوّتها الدفاع عن حلمها.

"أيّ جامعة وكلام فارغ... كفى دراسة. يجب أن يتزوّج وينجب أطفالًا. يمكنه العمل معنا في الدكّان. الحمد لله فهذا الدكان الصغير لجدّنا أبو الچِرَگ، الله يرحمه، يعولنا. نحن لا نحتاج إلى شهاداته... ماذا تريدين، أترغبين في أن نزوّج دوريس اليتيمة من شخص غريب، في الوقت الذي فيه شخص من لحمها ودمها بجوارها؟" صاحت فيها نعيمة. التصقت نوريَّة بالحائط، ونظرت إلى المخبوزات التي تناثرت على الأرض من دون أيّ تعبير. لقد خافت أن تنظر إلى نعيمة. كيف يمكنها أن تزوّج مئير من دوريس؟ إعاقتها لم تزعجها مثل عدم تعليمها. فقد كانت أمّها تقول إنّ المخدّة، الوسادة، تبكي ليلًا عندما ينام عليها رجل وامرأة غير مناسبين لبعضهما. وأغضب صمت نوريَّة نعيمة.

"لماذا لا توافقين على تزويج دوريس من مئير؟ أنا أختك الكبرى. لم أُسئ إليك أبدًا، وكنت أدافع عنك في وجه مريم. أين ستجدين في العائلة بنتًا طيّبة وجميلة مثل ابنتي؟ لماذا لا تريدينها؟ بسبب رجلها؟ ابنتي ليست مريضة، ويمكنها إنجاب أطفال أصحّاء. إنّها لا تعاني من أيّ مرض، وقدماها سليمتان، كلّ ما هنالك هو أنّ هناك فرقًا بسيطًا بينهما في الطول. وأنا المذنبة في حالتها، لأنّه لم يكن لديّ وقت لأعلّمها المشي السليم عندما كانت طفلة"، نظرت إليها بعينين متجهّمتين.

"لم أقل إنّها لا تناسبه. أنا أحبّ دوريس فعلًا كما لو كانت ابنتي. وقدمها لا تزعجني. أنا قلت إنّه يجب أن ينهي تعليمه قبل أن يؤسّس بيتًا"، حاولت نوريَّة تهدئة أختها من دون أن تنظر في عينيها مباشرة.

"جئت إليك بنوايا طيّبة. دوريس هي أجمل شيء خرجت به من هذه العائلة. فلقد عشت طوال حياتي في حزن، صامتة، لكن لم يساعدني أحد. كنت في السادسة عشرة من عمري وكان لديّ طفل مع زوج مريض وحماة قاسية، أمطرتني بالأوامر طوال الوقت. وبسبب العمل الشاقّ الذي كلّفتني به فقدت طفلين وهما لا يزالان في رحمي. هذا سبب تفضيلي الخروج من البيت والعمل في السوق – على الرغم من الإيماءات المهينة والقذرة للرجال الذين يعرّونني بنظراتهم، بلا أب أو زوج يدافعان عن شرفي. لذلك أردت أن تكون لك حياة مختلفة عنّا، وفرحت عندما تزوّجت وخرجت من هذا البيت الملعون، وأنجبت أطفالًا أصحّاء. أمنيتي أن تكون لدوريس، أيضًا، حياة كريمة وأن تخرج من هذا البيت الملعون"، قالت بصوت محطّم وانتظرت من أختها الصغيرة أن يتهلّل وجهها، لكنّ نوريَّة سكتت ولم تقُل شيئًا. فجأة قامت نعيمة وقالت لنوريَّة بنظرة حادّة: "لقد حطّمت قلبي اليوم، لذلك أتمنّى ألّا ترَي السعادة في حياتك أبدًا". وأطاحت بقدمها المخبوزات التي كانت على الأرض، وأدارت لها ظهرها وأغلقت الباب خلفها بقوّة.

بقيت نوريَّة متسمرّة في مكانها، في ذهول من كلام شقيقتها الكبرى، التي غيّرت فجأة معاملتها معها، مثل وحيدة في زمانها. ولم تستطع أن تفهم كيف خرجت من فم شقيقتها الصامتة كلّ هذه الكلمات القاسية بحقّها. ارتعد صدرها ونجحت في التنفس بصعوبة. وقبل أن تتحرّك من مكانها، طُرق الباب مرّة أخرى. هذه المرّة كانت أختها مريم واقفة بالباب، ترتدي ثوبًا ضيّقًا أبرز سمنتها وجسمها القصير بلا رقبة، ويداها مزيّنتان بأساور وحيدة الذهبيّة، وفي قدمها اليمنى حِجِلْ، خلخال، كان يهتز كلما تحركت. ومن ورائها تنظر بِيرْطَة بعيني البُومَة.

"أين مئير؟" دخلت البيت مع ابنتها، وتوجّهت على الفور نحو حجرة مئير.

"إنّه غير موجود. فهو يحتفل مع أصدقائه بإنهاء دراسته"، أجابت.

"حسنًا، ليستمتع! قريبًا سيحتفل بزفافه على بِيرْطَة"، قالت وبدأت في الزغاريد حتّى قبل أن تُبدي نوريَّة رأيها. حاولت أن تشبّه نفسها بوحيدة، التي كانت تنظر إلى الجميع من أعلى، لكنّها بدت سخيفة عندما حاولت مدّ رأسها إلى أعلى بقامتها القصيرة، ورقبتها المختفية، وأسنانها الذهبيّة التي ملأت فمها، ثمّ تمدّدت إلى الوراء على الأريكة في حجرة الضيوف لتسمح لأسفل بطنها بالتمدّد والاتّساع.

"وا ويلي!، يا ويلي، أين خجلهم؟ لم يمرّ العام على موت هامي والعمّة وحيدة وهم يهلّلون فرحًا"، سمع صراخ نعيمة في الزقاق، وجعلت النساء الفضوليّات يتركن بيوتهنّ ويتجمّعن حولها.

وقفت نوريَّة شاحبة اللون، ومذهولة. فما زالت لعنة شقيقتها الكبرى ترنّ في أذنيها. انحنت لتجمع الطبق والمخبوزات من على الأرض، وترتّب أفكارها قبل أن تردّ على أختها.

"بِيرْطَة، أعدّي لنا كوب عصير لنشرب ونضحك في نخبك وفي نخب مئير"، قالت مريم، وأرجعت رأسها إلى الوراء ونظرة الانتصار على وجهها.

"لا زواج. يجب أن يكمل مئير دراسته!" قالت نوريَّة وجزّت على أسنانها بكل قوة.

"لكنّه أنهى اليوم دراسته"، قالت بِيرْطَة متهكّمة بصوتها الأخنف، وكانت في يديها صينية عليها أكواب عصير البرتقال.

"قلت لا زواج. يجب أن ينهي أوّلًا دراسته في الجامعة"، صرخت نوريَّة وأطاحت بالصينية من أيدي بِيرْطَة. صرخت بِيرْطَة. وانسكب العصير في كلّ مكان، وتحطّمت الأكواب. قفزت مريم من مكانها وجذبت بِيرْطَة إليها في ذهول. وبصقت على الأرض وقبل أن تخرج وتطرق الباب خلفها بقوّة قالت لنوريَّة بصوتها الأجشّ: "كلبة، ستسمعين منّي في ما بعد وستندمين على فعلتك". خرجت إلى الخارج وهي تشقّ طريقها بغضب بين النساء المذهولات، وتسحب وراءها بِيرْطَة بقوّة، لتمنعها من العودة إلى بيت نوريَّة وتفجّر غضبها فيها. وظهرت على وجه نعيمة ابتسامة شماتة.

لم تفهم نوريَّة ما الذي دار حولها، ولماذا، بدلًا من إسعادها بإنهاء مئير دراسته، جعلتاها أختاها تشعر بالمرارة. خطر ببالها وجه وحيدة البشع ولعناتها لها في اليوم الذي كانت تقيس فيه فستان زفافها – على الرغم من أنّها قد سامحتها. جلست على الكرسيّ بلا حول ولا قوّة، لا تصدّق أن شقيقتيها، اللتين تربّت معهما في بيت واحد، تحدّثتا إليها بهذه الكراهية، ولعنتاها. متعرّقة ومرتعدة وخائفة من لعناتهما فكّرت في أمّها وحاولت التفكير ما الذي كانت ستفعله لو كانت مكانها. نهضت عن الكرسيّ ودخلت المطبخ وأخذت في يديها حِفنتي ملح ونثرتهما في أنحاء البيت وردّدت ما اعتادت أمّها قوله: "(ا)نْفَقْسِتْ عِينُو (ال)لِّي يْئِذِينِي وِيْئَذِّي (ا) وْلَادِي". وفي اليوم التالي ذهبت إلى الكنيس وتبرّعت بالمال إلى المحتاجين والأيتام كي تتخلّص من لعنات أختيها.

عندما أخبرت زيزي بالذي حدث وطلبت مساعدتها، هدّأتها صديقتها: "الأمر بسيط للغاية. لا تعيري هذه اللعنات انتباهًا، ولا تصدّقيها، فهي لن تحدث". لكن كان هناك خوف لدى زيزي من قوّة وشدة اللعنة التي تكون من قلب محطّم أو من الحسد، فقد كانت تؤمن بأنّ الحسد هو السبب الرئيس لفقدانها أسرتها. ففرع السذاب، الذي وضعته نوريَّة على بطنها عندما كانت تعالجها، والذي أصبح أصفر اللون؛ كان برهانًا لها على ذلك.

"أنا قلقة ولا أدري ما الذي ينتظرني"، ردّت نوريَّة وهي تمشي من جانب إلى آخر في الغرفة. "تعرفين أنّ هذا غير صحيح، وأنّه لا يمكن تجاهل اللعنات. كان عليك أن تشاهدي الكراهية التي أطلّت من عيونهما عندما لعنتاني. ما زال جسمي يرتعد حتّى اللحظة. حتّى زاهد البصرة حذّرني من أنّه في كل مكان سيتربّص الناس لما سيخرج من بطني، لذلك أنا خائفة".

"أتحدّثت مع أَدْوَر عن ذلك؟ ربّما يعرف ماذا يفعل لإبطال اللعنة"، سألت زيزي، وعلى الفور ندمت لأنّها قالت ذلك.

"لم أسأله، لأنّني أعرف ردّه. سيقول إنّي امرأة متسرّعة، وجاهلة، تضيع وقته بهذا الهراء، وبكلام النساء

الخاطئات والجاهلات. أواجه وحدي في هذت الأمر القصّة، وأمّي ليست معي لتساعدني"، ردّت بحزن شديد. تذكرّت أَدْوَر وهو يبدي علامات الاهتمام والقلق عندما تكون هي أو أحد الأولاد مرضى، أو في خطر. وعندما فكّرت في الأمر مليًّا، قالت في نفسها إنّه من المؤسف أنّه لا يدرك أنّ اللعنات قد تكون أيضًا أمرًا يؤثّر في صحّة الإنسان، بل ويهدّد حياته.

"لا سبيل آخر. ببساطة، أبعدي اللعنات عنك بتجاهلك إيّاها". أشاحت زيزي بوجهها جانبًا كي لا ترى نوريَّة كم هي خائفة.

.9

بعد شهر من طلب أختيها تزويج ابنتيهما من ابنها البكر، بدأ سلوك مئير يثير الريبة في قلب نوريَّة. فلأوّل مرّة في حياته كان يغيب عن البيت في أوقات كثيرة، من دون أن يخبرها أين يمكن العثور عليه. سألته نوريَّة عمّا يفعله خارج البيت، لكنّه تهرّب منها. فسألت حِيِّيم إذا كان يعلم إلى أين يذهب مئير، فاكتفي بهز كتفه، فنصحتها زيزي باقتفاء أثره.

"كيف أتبعه يا عزيزتي كما لو كان لصًّا؟" حاولت الدفاع عنه.

"تتبّعيه ليطمئنّ قلبك"، شجّعتها زيزي.

في النهاية قرّرت نوريَّة الأخذ بنصيحة صديقتها، وأسرعت خلفه فور خروجه من البيت ولم يخبرها بوجهته؛ لكن، على الرغم من أنّها سارعت لتتبّعه، إلّا إنّه اختفى عنها في غمضة عين كما لو كانت الأرض ابتلعته. لم تفهم كيف لم تستطع العثور عليه رغم طوله الذي قد يصل تقريبًا إلى عارضة الباب العليا.

"مستحيل أن يكون قد ابتعد"، قالت لنفسها. "أو أن يكون قد دخل أحد البيوت في المكان، لأنّه ليس لا صديق له هنا، وقدماه لا تدخلان البيت الأزرق"، وهمست في قلبها في محاولة لمعرفة أين اختفى. تخطّت مقهى ناجي زبيدة، لأنّها تعلم أنّه يمقت مثل هذه الأماكن، واستمرّت في طريقها نحو الكنيس. كان ذلك المكان الوحيد الذي تصوّرته، وأملت في أن تجده هناك. اقتربت من عبد الله الذي قفز فرحًا لرؤيتها، وسألته إذا كان قد شاهد ابنها مئير. فأشار لها أن ابنها الصغير فقط هو الموجود في الكنيس، أمّا الكبير فإنّه لم يره. لم يكن أمامها خيار آخر سوى العودة إلى البيت بعدما فشلت في حلّ هذا اللغز.

حدث ذلك يوم الخميس عندما دخل مئير إلى المطبخ وهو مرتعشًا وغاضبًا، وشعره الأسود منفوش، ويغطّي بعض الشعر القصير الخشن وجنتيه، وقميصه خارج البنطلون. مظهره كان يدلّ على إهمال على عكس طبيعة لبسه عادةً. أما هي فكانت مشغولة في إعداد (ال)تْبِيتْ (طعام مطهو من يوم الجمعة لِيُؤكَل يوم السبت)، بعد أن أنهت خياطة جلد الدجاجة وحشوها بالأرزّ وقطع اللحم.

"أريد الزواج من بِيرْطَة، وإذا وقفت في طريقي سوف أترك البيت ولن ترَيني ثانية"، أطلق هذه العبارة نحوها، وبدا شاربه الصغير كمن يهدّدها. أظلم العالم في وجهها، وشعرت بأنّ الدم يصعد ويغمر رأسها. كان واضحًا لها أنّ شخصًا ما وضع هذه الكلمات في فمه، لأنّه لم يتحدّث أبدًا بهذه الجدّيّة والوقاحة.

"بِيرْطَة؟ أتريد الزواج من بِيرْطَة الماكرة؟ ماذا عن دراستك؟" قالت مصدومة.

"نعم، هي الأولى والأخيرة".

"إنّها لا تناسبك. فتاة غير مثقفة وسوقيّة. حتّى ليس لها شكل. قزمة من دون رقبة ووجهها مخيف كَنِّي بومة...".

"سوف أتزوّجها، ولن تمنعيني"، أشار إليها بإصبعه مهدِّدا.

ذكّرتها الطريقة التي تحدّث بها، بوحيدة ومريم، وظنّت لوهلة أنّها تقف أمامهما لا أمام ابنها. تهديدات وحيدة ذات مرة فقط جعلتها قويّة، لكنّها أدركت هذه المرّة كم هي صغيرة أمام قوّة أختها، التي وجّهت، على ما يبدو، سحرها الأسود، لتفرض ابنتها عليه. طلبت نوريَّة منه الهدوء والجلوس وتناول الطعام. قدّمت له طبقًا مليئًا بالكِچْرِي، أرزّ مخلوط بالعدس الأحمر. فمن كلّ ما كانت تطبخه كان مئير يحبّ هذا الطعام البسيط، وفي أيّام الخميس التي كانت تعدّ فيها هذا الطعام، ليكون لديها وقت لإعداد طعام اللحم ليوم

السبت، كانت هذه أسعد الأيّام بالنسبة له. اعتاد خلط الكِچْرِي بسلطة الطماطم، والخيار والبصل مع العمبة، وفي بعض الأحيان مع البيض المقليّ، وكانت هذه بالنسبة له ملذّات الحياة. لكنّه هذه المرّة أطاح بالطبق من يديها وصرخ فيها:

"لا أريد أن أتناول طعامك. طعام الخالة مريم ألذّ". الآن أصبحت واثقة من أنّ أختها قد سحرت ابنها، فأيقنت حجم المصيبة التي حلّت بها.

"لماذا دخلت بيتها؟ مريم أطعمتك وأسقتك سحرًا". صرخت. "هذا خطئي – لأنّي لم أحذّرك ولم أقُل لك أنّه لا يجوز لك أن تأكل في بيوتهنّ، فهنّ يخلطن الموادّ المحرّمة بالطعام، ومن يأكل منها يصبح مثل الصلصال في أصابعهن. ويتحكّمن به، ويصنع ما يقلنه له". هزّت نوريَّة كتفه محاولة إفاقته وتخليصه من السحر، لكنّه أزاح يدها عنه. نظرت في عينيه العسليّتين، ورأت أنّهما مبتعدتان وغير مركّزتان. تركت كل شيء وفي الحال وهرعت إلى زيزي. لم يهمّها أنّ الوقت متأخّر، وأنّه من المتوقّع أن يعود أدْوَر إلى البيت في كلّ لحظة.

"عليك مساعدتي. أنا أفقد مئير"، توسّلت إليها.

دهشت زيزي لرؤية نوريَّة مرّة أخرى بعد أن قابلتها في الصباح. بالضبط في اللحظة نفسها التي كانت تستعدّ فيها لحفل بحضور كبار في نظام الحكم العراقيّ، لكنّها تفرّغت لها من هول منظر نوريَّة الثائرة. وبعد أن استمعت إلى قصّتها سألتها لماذا لا تستطيع هي إبطال السحر بواسطة قواها الخاصّة.

"أنا يمكنني مساعدة الغرباء فقط. قوّة يداي لا تؤثّر فيّ أو في أولادي"، قالت باكية.

طلبت زيزي منها أن تحضر إلى بيتها في الصباح مع قطعة قماش، وصورة، وشعرة من رأس مئير، ووعدتها بأخذها إلى شيخ ليساعدها في إبطال السحر.

في صباح اليوم التالي كانتا أمام سليمان، من كبار شيوخ بغداد. احترامًا لزيزي استقبل نوريَّة قبل الآخرين، الذين تجمّعوا عند بيته. لم يكن في هذا البيت شيء يذكّرها بزاهد البصرة. فقد جلس على سجادة وقدماه مطويّتين أسفله، يرتدي عباءة زرقاء واسعة، ومن تحتها بنطلون من القماش الأسود وعلى رأسه "توربان" من القماش الأبيض. وضعت نوريَّة أمامه قميص مئير، وشعرة من رأسه، وصورته. امتنعت عن النظر في عينيه، وركّزت في الغمّازة في ذقنه، التي كانت تخفي أسفلها لغدًا كبيرًا في رقبته، وتذكّرت كيف استمتعت بالنظر إلى غمّازة رحمة إم كِلُّو، التي كانت تكبر وتصغر حسب تعبيرات وجهها عندما كانت تستمع إلى قصصها. مرّر يديه الغليظتين على الصورة والقماش. ووضع الشعرة على صينية كبيرة من النحاس وخلطها بالعدس الأحمر والعطارة، ثمّ نفض الصينيّة بكلّ محتوياتها، التي سقطت ثانية في الصينية مصدرة صوت كصوت المياه المنسابة. انتظم العدس والعطارة فجأة حول الشعرة. ووضع الشيخ يده على العدس وأدار الصينيّة. في كلّ مرة كان يمرّ على الطبقة التالية من العدس حتّى لمسه كلّه. أدار رأسه ووضع يديه على عينيه. بلّلت الدموع التي انهمرت منهما الشعرة وملأت الفراغ بينها وبين العدس. وضع الشيخ الصينيّة، وأخذ يد نوريَّة وقبّلها. فارتعدت نوريَّة من لمسة يده.

"أنا لا أستطيع مساعدتك يا أختاه؛ فابنك قد وقع في سحر السبعة بحور. سحر قويّ جدًّا سجنه إلى أبد الآبدين. ولقد ألقت المفتاح في أعماق السبعة بحور، والقفل أعطته للعروس الموعودة. لا تحاولي أخذه بالقوّة من العروس، لأنّه سيضر ما وضعه الله في يديك. سيأتي لك القفل في الوقت المناسب"، قال ووضع في المنديل كلّ محتوى الصينيّة مع الشعرة، ودموعه وقدّمها لنوريَّة.

تململت زيزي على الكرسيّ منزعجة، فقد ألجمتها كلمات سليمان. ظنّت للحظة أنّها تستمع لقصّة من الأساطير التي كانوا يحكونها لها عندما كانت صغيرة، لكنّها أفاقت على الفور وأدركت أنّ هذا هو الواقع

– حتّى إذا رفض العقل تصديقه، وأنّ هذه هي الحقيقة. لقد علمت أنّ الإيمان بالقدر مغروس في كيان كلّ سكّان بغداد، من كلّ الديانات، ومن أجل التعامل معه اعتقدوا أنّ في مقدور الأولياء أن يكونوا شفعاء لهم أمام الله، ليرضى بتغيير قدرهم، لأنّه هو الذي قدّره؛ لذلك اعتادوا الاستلقاء على قبور الأولياء والأنبياء، التي كان العراق يعجّ بها. حتى أنّ عيد نزول التوراة الذي يسمى "عيد الزيارة"، لأنّ اليهود اعتادوا فيه زيارة قبور الأولياء والتوسّل إليهم. في المقابل، كان هناك من يفضّل الذهاب إلى السحرة، الذين يتعاملون بالسحر الأسود، مثل مريم، من أجل تغيير أقدارهم، وأقدار الآخرين، على الرغم من أنّ التوراة تُحرّم ذلك. مقابل هؤلاء كان هناك أشخاص من أتباع كافّة الديانات أمثال نوريَّة وسليمان، الذين حاولوا مواجهة السحر الأسود بقواهم الطيّبة، لكنّهم لم ينجحوا في ذلك دائمًا.

قامت زيزي عن الكرسيّ فجأة، واقتربت من سليمان وقبّلت يديه. "عليك أن تبذل قصارى جهدك، لإنقاذ هذا الولد. خسارة! سوف يصبح عظيم الشأن. لقد حصل على أعلى الدرجات في بغداد كلّها. من فضلك، تشاور مع شيوخ آخرين. ربّما تنجحون معًا في إنقاذه. أعدك بأنّي سأعطيك كلّ ما تطلب"، توسّلت إليه كما لو كانت تقاتل من أجل ابنها المفقود.

"ليس هناك ما يمكن عمله يا أختاه. إنّ قدره أصبح مقدَّرا"، سحب يديه من زيزي وتوجّه إلى نوريَّة:

"عندما يحين الوقت، ضعي هذه الصرّة على رقبة ابنك وحرّريه. ستعرفين متى"، قال وخرج من الغرفة من دون أن يلقي التحيّة، بل رفض الحصول على مقابل لخدماته. ونادى خادمه وطلب منه أن يبلغ الناس الذين ينتظرونه في فناء البيت أنّه لن يستطيع استقبالهم اليوم.

في ذهول من كلام الشيخ وضعت نوريَّة الصرّة في صدرها بحزن، وشكرت زيزي على مجيئها معها.

"هل نترك مئير يقع هكذا من بين أيدينا ويضيع؟" غضبت زيزي منها. "الاستسلام ليس من عادتك. سأذهب إلى أختك وأعطيها المال الكثير، ربّما تقتنع وتتركه في حاله"، حاولت إقناع نوريَّة؛ لكنّ نوريَّة شكرتها مرّة أخرى وطلبت منها أن تترك القدر يصنع ما هو مقدّر. "كلّ واحد وقسمته، ربّما يسمع الله دعائي ويرحمه"، قالت بألم وخرجت من الغرفة. تسمّرت زيزي في مكانها بلا حول أو قوّة، وشعرت كما لو كانت تفقد ابنها مرّة أخرى.

جرّت نوريَّة قدميها بصعوبة. أجهرت الأنوار بصرها، وجفّ حلقها من العطش، وآلمها رأسها من الجوع. سقط المنديل من على رأسها، وضربتها الشمس بقوّة. وفي الطريق سارت بجوار جدران البيوت كي لا تزلّ قدماها. وعندما فتحت عينيها، وجدت نفسها ترقد في الفراش. لا تذكر شيئًا ممّا حدث. أخبرتها حنيني، ابنة أخيها يعقوب، التي كانت تحبّها وتأتي يوميًّا إلى بيتها بعد الظهر لتدرس مع حِيِّيم، بأنّها وجدتها بجوار بيتها ممدّدة على الأرض، ونجحت بمساعدة حِيِّيم ويوسف في حملها.

"لم يحدث شيء. كان عليّ أن أشتري بعض الأشياء ليوم السبت، ولم أتناول الطعام، لذلك أغمي عليّ"، حاولت تهدئتها وسألتها بهمس: "هل ناديتم أَدْوَر؟"

"كلّا. كلّا. قال لي حِيِّيم ويوسف ألّا أُخبر أحدًا. لا تقلقي يا عمّة! ارتاحي. سنجهّز البيت ليوم السبت"، هدّأت حنيني نوريَّة، ولم تخبرها بأنّها وجدتها تتمتم: "أعيدوا لي مئير، لا تأخذوه منّي".

كان سحر مريم أقوى من قدرة نوريَّة، واضطرّت إلى الخضوع لأختها، وتنازلت عن أحلامها ووافقت على زواج بِيرْطَة من مئير. لم يتدخّل أَدْوَر، كما لو كان الأمر لا يعنيه. فمن كلّ أبنائه أحب يوسف فقط، الذي سُمّي باسم الصدّيق يوسف حِيِّيم، لأنّه رأى فيه من سيحقّق حلمه ويصبح حاخامًا كبيرًا، واعتقد أنّه ربّما ينال في النهاية عفو الله ومغفرته. لم يحبّ العلاقة الخاصّة بين مئير ونوريَّة. كان في مئير شيء ما، أخرج أَدْوَر عن هدوئه وجعله يبدي ملاحظاته عليه بأنّه حساس وغير مستقلّ، ويهاجمه بشدّة على كلّ

شيء يفعله ويقوله- حتّى لو لم يكن مبرَّرا لذلك. عندما أخبرته نوريَّة بأنّ مئير يريد الزواج من بِيرْطَة، نظر إليها نظرة ساخرة وقال متهكّما:

"هذا ما خرج من محاميك؟"

أثارت نبرة كلامه الساخرة والمسّ بمئير غضبها. وعلى غير عادتها سمحت هذه المرّة لرياح الصحراء التي ثارت داخلها بالخروج:

"لماذا تعامل مئير بهذه الطريقة؟ لماذا لا تفتخر به؟ لقد أنهى دراسته كأفضل تلميذ في بغداد كلّها. إنّه ليس سكّيرا كسولًا، مثل كلّ الشباب حولنا لتخجل به. ماذا صنع لك؟ هو لم يعاملك بوقاحة أبدًا، ويحترمك دائمًا، حتّى إذا أحرجته أمام الجميع".

أشار لها أَدْوَر بيده للتوقّف عن الكلام، لكنّها استمرّت، متجاهلة كلّ محاولاته الاستخفاف بادّعاءاتها. التهب وجهها، وعينيها الخضراوان اتّقدتا نارًا، ولوّحت بيديها بحركات مهدّدة بأنّها ستقضي على أيّ شيء يقف في طريقها:

"لماذا تتصرّف بقسوة معنا مثل أبيك؟ وكلّ ما نفعله من أجلك – لا يرضيك أبدًا. حتّى إذا جلبنا لك النجوم من السماء، فإنّك دائمًا مع هذه النظرة الساخرة الحادّة في وجهك. ألا تفهم أنّ هذا ابنك، الذي سوف يفقد حياته ومستقبله؟"

دُهش أَدْوَر من كلامها ودخل حجرته من دون أن يقول كلمة. فقد آلمه على وجه الخصوص قولها إنّه يشبه أباه في تصرّفه. بقيت نوريَّة في مكانها وتعجّبت لماذا ذهب أَدْوَر إلى حجرته من دون أن يهينها كعادته ويناديها كعادته بـ"الجاهلة الغوغائيّة".

شاهدت نوريَّة القفل الذي أغلق قلب مئير في ليلة الدخلة، معلقًا في رقبة بِيرْطَة، في الوقت الذي نامت فيه في فراشها. بدت أمّها مريم باسمة ومتوهجة، عندما خرجت الْمَاشْطِي (مرشدة الزواج)، من الحجرة وعرضت أمام الجميع الملاءة الملطّخة بدماء عذريّة بِيرْطَة– برهانًا على طهارة ابنتها قبل الزواج. بدأت كلّ النساء في إطلاق الهلاهل، الزغاريد، أمّا نعيمة فقد قطّبت جبينها وقالت لدوريس إنّها واثقة من أنّ مريم قد وضعت الملاءة قبل ذلك، وأنّ الدم الذي عليها دم الخروف الذي ذبحوه للزفاف؛ والْمَاشْطِي المسكينة، التي خافت من سحرها، اضطرّت إلى التواطؤ معها. "نحن نعلم مع من نتعامل"، اختتمت كلامها.

خرج مئير من حجرة الدخلة بابتسامة بلهاء على شفتيه، وكانت عيناه العسليّتين حمراوين كالدم من فرط التعب. كان من الواضح عليه أنّه لا يدرك إطلاقًا ما يدور حوله، ولماذا الحفل. احمرّت نوريَّة من الغضب. وأرادت أن تقتحم الباب، وأن تجذب بِيرْطَة من شعرها وتخلع القفل من رقبتها، لكنّها بقيت في مكانها عندما تذكّرت كلام العرّاف المشعوذ. كان البيت الأزرق يثير فيها شعورًا خانقًا فخرجت إلى الفناء، الذي لم تطأه قدماها منذ أن حاولت رعاية وحيدة، وذلك لاستنشاق الهواء النقيّ، لكنه كان يغصّ هو الآخر بكثير من المدعوّوين. نظرت بغضب شديد إلى سماء الليل وطلبت من الله، أن يسمح له باستخدام القوى الخاصّة التي منحها إياها متصوف البصرة، في إنقاذ ابنها الذي يغرق. راقب أَدْوَر خطواتها، لكنّه لم يسمع كلماتها. ووبّخها على رفعها يدها إلى السماء بحركات عصبيّة، وطلب منها صوم يوم كامل للتكفير عن عملها.

" طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس" ، صرخ نحوها، وترك المكان مع يوسف كي يجهّزه لطقس سنّ التكليف- البَار مِتْسْفا. [5]

قرّرت نوريَّة أنّه لا حاجة للرد عليه ومواجهته، لأنّه لا فائدة من ذلك. زاد اختناقها، وكان اعتراضها على

وضع مئير يأكل جسمها. اعتقدت أن الله ربّما يكون يختبرها، كما اختبر أيّوب، وأنّها إذا ساعدت أناسًا كثيرين، ربّما يحسن إليها ويحرّر روح مئير.

لكن لم تكن هناك فائدة، وبعد الزفاف ساءت حالة مئير يومًا بعد يوم. وكان لا يرى سوى بِيرْطَة أمامه، وكان مستعدًّا أن يفعل من أجلها كلّ ما تطلبه. تلألأت عيناه، وكان على وجهه نفس الابتسامة المرتبكة، التي كانت تكدّر نوريَّة أكثر وأكثر.

بعد أسبوع من الزفاف وصلت إلى بيت نوريَّة خطابات، من كلّيّة الحقوق في بغداد، ومن الجامعة الأمريكيّة في بيروت. فتحت نوريَّة الخطابات بفضول وطلبت من حِيِّيم أن يقرأها لها. قرأ حِيِّيم ببراعة:

"السيّد المحترم، يشرّفنا أن نخبرك بأنّه قد تمّ قبولك لدراسة الحقوق في الجامعة الأمريكيّة في بيروت"، وفي الخطاب الآخر صيغة مشابهة حول قبوله في كلّيّة الحقوق في بغداد. وبدلًا من أن تطلق الزغاريد شعرت بأسًى كبير على الإهدار الكبير للفرصة وعلى حلمها وحلم ابنها الذي لن يتحقّق. لم تذكر نوريَّة أنّ ابنها أخبرها مرّة أنّه أرسل استمارات التسجيل، واهتمّت بمعرفة من قام بذلك ومن أين له بالمال لدفع مصاريف التسجيل. أطلعت مئير على الخطاب، وطلّت الدموع من عينيه، لكنّه سكت وأسرع نحو الباب.

"أين تعمل؟" سألته، لكنّه ترك البيت دون أن يجيبها.

بعد سنوات علمت من مدير المدرسة أنّ مئير قد ملأ الاستمارات أمامه في اليوم الذي أنهى فيه دراسته واختير كأفضل تلميذ في بغداد، وأنّه أرسلها إلى الجامعة في بيروت وإلى كلّيّة الحقوق في بغداد، ودفع المقدّم.

زيزي هي التي اكتشفت، للمفاجأة، أن مئير يعمل حارسًا على باب الملهى الليلي الذي تغنّي فيه. فقد كان وجهه مألوفًا لها من الصور التي رأتها مع نوريَّة. تبعته ولم تعرف ماذا يفعل في مثل هذا المكان، المليء بالرجال السكارى، الفاسقين الذين يغازلون الراقصات.

وعندما سألته عن اسمه، تأكّدت من هو. نادت صاحب الملهى إلى حجرتها وطلبت منه أن يضاعف أجره على حسابها، والتأكّد من ألّا يبيعوا له الخمور وألّا تقوم الراقصات بإغوائه. صعدت على المسرح وغنّت أغنية خاصّة من أجله، أغنية عن الأم، التي تركها زوجها وهي ترعى طفلًا رضيعًا. اجتهدت وعملت كي تربّي ابنها، ووضعته على كتفيها كي لا تسير أقدامه على الإسفلت، وأخرجت الطعام من فمها كي لا يجوع هو، وغطّته بجسمها كي لا يرتجف هو. وعندما كبر أرسلته إلى المدرسة وأنفقت على دراسته من عملها الشاقّ كغسالة في بيوت الآخرين؛ لكنّه عندما أنهى دراسته، خجل من أمّه الفقيرة ولم يعُد إليها، وبدلًا من ذلك فضّل العيش في بيت أبيه الغنيّ. وفقط عندما أصبح له ابن، تذكّر أمّه، التي رعته بكلّ إخلاص، وعاد إلى حيّ طفولته ليبحث عنها، لكن بعد فوات الأوان، لأنّها ماتت شوقًا إليه، وحزنًا عليه. هكذا ولمدّة شهر كانت تغنّي هذه الأغنية، حتّى قام ذات ليلة باستجماع قواه ودخل حجرتها وطلب منها ألّا تغنّي هذه الأغنية مرّة أخرى.

"لماذا؟" تعجّبت.

"أنت تقتليني كلّ مرّة من جديد"، قال والدموع تملأ عينيه.

"أنا لا أفهم"، أصرّت على المعرفة.

"لا أعرف كيف أشرح لك، لكنّ هذه الأغنية تمسّ قلبي – ربّما لأنّي أنا أيضًا آذيت أمّي. لا أعرف كيف، لكنّ النظر في عينيها يقتلني كلّ مرّة من جديد"، قال وخرج من حجرتها.

عندما خرجت شاهدته مرّة أخرى بجوار إحدى الموائد، ينظر إلى زجاجة كونياك مغلقة.

"سأتوقف عن غناء الأغنية، بشرط أن تعدني ألّا تمسّ هذا الخمر أبدًا، وألّا تتخطى أبدًا الباب الذي تحرسه إلى داخل الملهى. يمكنك الدخول فقط عندما ترغب في الكلام معي"، قالت، وأرسلته إلى بيته بعد أن أخذت زجاجة الكونياك.

في اليوم التالي، مثل كلّ يوم خميس، جاءت نوريَّة إلى بيت زيزي. كان حارس البيت سعيدًا برؤيتها وهمس لها بأنّ صاحبة البيت تشعر بأنّها ليست بخير، لذا ألغت جميع حفلاتها اليوم، فدخلت إلى حجرة زيزي وسألتها عن حالها.

"حلقي يؤلمني، وقرّرت الاستراحة قليلًا في البيت"، كذبت عليها.

وضعت نوريَّة يدها على حلقها وقالت إنها لا تشعر بشيء. نظرت في عينيّ زيزي وطلبت منها أن تخبرها لماذا تبكي.

"لا يمكنني الكذب عليك. أبكي على أطفالنا الذين سُلبوا منّا، من دون أن نستطيع مساعدتهم"، تمتمت زيزي بصوت مخنوق وأشاحت بوجهها عنها.

.10

بسبب الغثيان الذي صاحب حمل بِيرْطَة، لم تحرص على وضع إضافات السحر في طعام مئير، التي كانت تسبب له الهذيان، وبذلك منحته عن غير قصد أيًّاما للصفاء والإفاقة. ولقد أربك الواقع الذي تَكشّف أمامه تفكيره. فنظر إلى بِيرْطَة، ووجها القاسي، وشعرها الخفيف، وعينيها البارزتين الفارغتين، وإلى بطنها المستدير، وتعجب ماذا تصنع معه في غرفة النوم، وهي بقميص نوم خفيف، وهو بملابسه الداخلية فقط. "هل هذه المرأة، بِيرْطَة، زوجتي؟ كيف يمكن ذلك! فهي المرأة التي سخرت منها ومن جهلها ومن عالمها الضيّق"، فكر في نفسه. تذكّر حبّه لأمل وحلمه دراسة الحقوق في الجامعة وأن يصبح أشهر محام في بغداد. قرص يده ليتأكّد أنّه لا يحلم، وعندما اتّضح له أنّ الأمر كذلك، أخذته الصدمة والفزع الشديدَين، فغطّى وجهه بالبطانيّة، وتظاهر بالنوم حتّى خرجت بِيرْطَة من الحجرة، كي يستطيع ارتداء ملابسه والذهاب إلى أمّه لتشرح له الأمر.

في مكنون قلبها كانت نوريَّة تنتظر هذه اللحظة، لكنّها كانت تخشى منها. فهي لم تعرف ردّ فعل مئير على وضعه الجديد. وبهمس، كي لا يسمع إخوته، أخبرته كيف كادت له بِيرْطَة وأمّها، لكنّه لم يستطع فهم كيف يمكن أن يسيطر السحر على عقله ويجعله يتصرّف على عكس إرادته.

"لماذا لم تقاومي من أجلي؟ لماذا سمحت لهنّ بأن تدوساني وتجعلاني مشوَّشا ومخدَّرا؟" انهال عليها، مصدومًا من تفسيرات أمّه الواهية. "لم أستطع فعل شيء. فضّلتك حيًّا على أن تكون ميتًا أو مجنونًا. أنت لا تدرك ماذا تستطيع هذه النسوة اللئيمات فعله بك، لو لم أوافق على الزواج. لقد كانت روحك في أيديهما، وكان من الممكن أن يجعلاك مجنونًا. أنت لا تفهم في هذه الأمور، لكن صدّقني كلّ شيء صحيح". اقتربت نوريَّة منه لمعانقته وتقبيله، لكنّه أبعدها عنه.

"أنا أفضل الموت على أن أعيش هذه الحياة. انظري ماذا أصبحت: بدلًا من أن أصبح محاميًا مشهورًا أعمل حارسًا في ملهىً ليلي، أحرس الراقصات، ومتزوّج من امرأة جاهلة ليس هناك ما أتحدّث عنه معها". ضرب بيديه بقوّة على المائدة. "أنا أريد الطلاق منها!" صرخ بصوت لم يُسمع أبدًا منه، في المكان نفسه الذي أخبر فيه أمّه قبل بضعة شهور بأنّه يريد الزواج من بِيرْطَة.

"لا يمكن إعادة العجلة إلى الوراء – خاصّة وأنّ بِيرْطَة حامل"، أجابت بقلّة حيلة.

"أنا لا أذكر شيئًا. لا أحد يفهم الكارثة التي حلّت بي. لقد تزوّجت من امرأة كنت أمقتها، وهي حامل منّي – ولا أذكر شيئًا: لا حفل زفافي، ولا اللحظات الحميمة بيننا". غمرت الدموع عينيه وترك البيت مغلقًا الباب خلفه بقوّة.

ركضت نوريَّة خلفه وطلبت منه البقاء في بيتها، لكنّ مئير رفض وقال لها إنّه يجب أن يرتّب أفكاره بنفسه، لأوّل مرة في حياته من دون مساعدة منها.

"كن حكيمًا فقط ولا ترتكب حماقات"، توسّلت إليه.

سار مئير على طول النهر، ليسمح للمياه بغسل قدميه، وكلما سار أكثر شعر أنه أكثر صفاءً. نظر حوله وحسد الناس الذين جلسوا في هدوء في المقاهي على ضفاف دجلة، ولعبوا الطاولة والدومينو، وأنعشوا أنفسهم بكوب من الشاي الساخن، في الوقت الذي سُلبت منه حياته بدهاء. لم يمنحه التفكير في أمل السكينة، ووجد نفسه يسير إلى بيتها كما لو كان يفعل ذلك عن غير قصد.

في ناصية الشارع الذي يطلّ على نافذة حجرتها انتظر ساعة طويلة، لكنّه لم يستطع رؤية شيء، لأنّ الستارة كانت تُخفي ما يدور داخل البيت. عاد أدراجه يائسًا، وفكّر في كيفيّة الاتّصال بها. وعندما عاد إلى

بيت والديه قابل حنيني هناك، ابنة خاله يعقوب التي كانت البنت الوحيدة المحبّبة إليه في العائلة. وهو الذي شجّع حِيِّيم على مغازلتها، وسعد برؤية أمّه تشجّع العلاقة التي تتطوّر بينهما. وفجأة خطر له أن يرسلها إلى أمل برسالة منه. وافقت حنيني على مساعدته، ولم يُهدر مئير لحظة واحدة وبدأ بكتابة الرسالة، غير أنّه لم ينجح في ذلك. كيف يخبرها بما حدث له؟ حاول مرارًا وتكرارًا أن يجد طريقة أخرى ليكتب كلماته بشكل يعبّر عن مشاعره ويصف ما حدث بأمانة، لكنّه كان يُحبَط كلّ مرّة من النتيجة ويلقي بالورقة في صندوق القمامة. في النهاية خطر له أن يكتب عدّة سطور بخطّ يده الكبير، يشرح فيها مكائد بِيرْطَة. وحُفرت الحروف بقوّة على الصفحة.

عزيزتي أمل،

أعلم أنّك غاضبة منّي، وأنت مندهشة بالطبع أين اختفيت. اليوم فقط علمت ماذا حدث لي في الشهور الماضية منذ أن أنهيت الدراسة، وأنا أشعر بضرورة أن أشرح لك ما حدث. سأقول لك ذلك بكلمات أمّي، لأنّي أنا نفسي غير قادِر على فهم كيف تدهور بي الحال هكذا. فحسب كلامها، فإنّ خالتي وابنة خالتي قد سحرتاني وأغلقتا حظّي بمفتاح ألقيَتْه في لجج البحور السبعة، إلى جانب أنّهما وضعتا لي في الطعام نوعًا من المخدّر، جعلني أحبّ ابنة خالتي، وأن أهذي. هكذا تزوّجت ممّن مقتُها طوال حياتي، وهي الآن حامل. صدّقيني، أنا لا أذكر زفافي بالمرّة – ناهيك عن اللحظات الحميمة التي شاركتها فيها هذه المرأة. لا أعلم ماذا أصنع. أنا أعلم أنّي أحببتك أنت فقط، وأردت أن أبني حياتي معك. أعطيني إشارة أنّك مازالت مهتمّة بي، وأعدك بأنّي سأحاول تصحيح الوضع.

محبوبك الذي ينتظرك تحت شبّاكك.

وضع الرسالة في يد حنيني ورافقها إلى بيت أمل. وفي الطريق طلب من حنيني أن تقدّم نفسها، لكلّ من يسألها، على أنّها صديقة أمل من المدرسة.

"إنّي أضع حياتي بين يديك"، قال لها وعاد ينتظر عند ناصية الشارع المطلّة على نافذة أمل.

"لا قدّر لله! لا تقُل هكذا! أنا فداك، يا ابن عمّتي"، ردّت عليه حنيني وأسرعت خطواتها نحو المنزل.

مرّت دقائق طويلة ومؤلمة منذ أن دخلت حنيني البيت، وكان ينتظر منفعلًا أن يرى إشارة من حجرة أمل. في النهاية أزيح الستار الأبيض من مكانه، وشاهد أمل واقفة وتنظر إليه. احمرّ وجهه وارتعشت يده وهي تلوّح لها، لكنّها عادت إلى حجرتها من دون أن تمنّ عليه بنظرة أخرى. خفق قلبه لها. وأراد أن يمسك يدها ويقول لها إنّها كانت وستظلّ محبوبته، لكنّ حنيني عادت بوجه عابس وحثّته على الابتعاد عن المكان.

"أخبريني، ماذا قالت لك"، سألها.

"مسكينة. لقد تحطّم قلبها. والداها خطّباها لابن عمّها"، ردّت عليه بأسف.

"أقرأت خطابي؟" أوقفها.

"أجل، وبكيت طوال الوقت..."

"أطلبت منك إبلاغي بشيء؟" سأل منفعلًا.

"كلّا. لقد نظرت إليّ وجلست على الفور على الفراش وبكت. وطلبت منّي الذهاب قبل أن تحضر أمّها وتطرح أسئلة، وتكتشف أنّني لم أدرس معها في المدرسة إطلاقًا"، قالت بنفس واحد قبل أن يعود ويقاطعها.

"أقالت لك إنّها مخطوبة؟"

"لقد أخبرتك بذلك في بداية كلامي. لماذا لم تتزوّجها؟ إنّها فتاة رقيقة وجميلة! ليست مثل البهيمة الحمقاء

التي تزوّجتها"، صرخت فيه.

"هذا قدري"، ردّ عليها بفتور.

"أنت تتحدّث كِنّي عجوز. تعلّم أن تحارب من أجل حبّك وحياتك"، قالت بحماسة.

ودّع حنيني عند مدخل بيت والديه وعاد إلى بيته. كانت بِيرْطَة تقف عند المدخل في طريقها للخارج. نظر إليها نظرة تملؤها الكراهية وكاد أن يرفع يده ليضربها على ما فعلته به، لكنّه تذكّر كلمات أمّه وعلم أنّ عليه الاستمرار في التظاهر كي لا تضرّه. ومن حسن حظّه أنّها لم تنظر إليه وذهبت لتنام في فناء بيت أمّها.

لم يعلم مئير ماذا يصنع بنفسه من فرط الغضب والإحباط. "سأنفجر"، صرخ وضرب حائط حجرته بقبضتَيْه. "لا أستطيع البقاء هنا"، قال وخرج ثانية ليتجوّل في شوارع بغداد.

كلّ الأماكن التي اعتاد التنزه فيها قبل زواجه، بدت له غريبة وتهدِّده. حتّى الشمس بدت عابسة. كان يبدو له أنّ كلّ المارّة يرمقونه بنظرات ملؤها التأنيب على إحباطه لأمل ولأمّه، اللتان انتظرتا منه الأعمال العظيمة، وهو، بدلًا من ذلك، أضرّهما أكثر من أيّ شخص آخر. "ماذا أصنع"؟ عاد يتساءل، ولم يجد إجابة. كان ذلك الوضع الجديد غريبًا عليه تمامًا. فحتّى هذه اللحظة كانت تسير حياته في هدوء؛ لقد تأثّر حقًا، بعدم تقدير أبيه له؛ لكنّ أمّه ساندته وساعدته في جميع احتياجاته، كما أنّ حِيِّيم منحه أحيانًا القوّة ليتشجّع. ولم يُطلب منه شيء سوى الدراسة والحصول على علامات جيّدة، وكان على قدر التوقّعات. كيف انقلب كلّ شيء؟ كيف يمكنه الآن التخلّص من هذه المرأة التي فُرضت عليه؟ " أُفضّل الموت – على أن أعيش هذه الحياة الفارغة التي حكم بها القدر عليّ، من دون حاضر أو مستقبل"، صرخ في قلبه.

سار ساعات في الشوارع متجاهلًا التطوّرات الكبيرة، التي أعلنت عنها بعض الصحف بأصوات عالية: "نهاية الاحتلال البريطانيّ! بريطانيا توقّع على اتّفاق لإنهاء حكمها في العراق. يحيا الملك فيصل! يحيا العراق المستقلّ!" لم يعرف أبدًا أنّ الخوف الشديد من هذا الإعلان سيطر على الأحياء اليهوديّة، وخوف شديد من اليوم الذي سيرحل فيه البريطانيّون عن شوارع بغداد، وسيضطرّون إلى العيش تحت حكم إسلاميّ، فيصبحون أهل ذمّة ملزَمين بدفع ضرائب كبيرة، مثلما كان في عصر العثمانيّين. كان مئير غارقًا في مشكلاته، ولم يكن يهمّه شكل العراق الجديد، وماذا سيحلّ بمصير اليهود فيه. إنّ قدره لا يمكن تغييره.

في النهاية وجد متنفَّسا من أفكاره في مقهىً مُطلّ على نهر دجلة. فالمياه الصافية للنهر والدوّامات الصغيرة التي ظهرت من حركة الأمواج سحبته إلى عالم من الهذيان والخيال، عالم ملوّن أكثر، وسعيد وطيّب؛ عالم ينتصر فيه الخير على الشرّ دائمًا، والأبطال يجتازون القارّات والبحور، ويركبون الخيول، ويحاربون الأشرار وينقذون محبوباتهم الجميلات والطيّبات. أصبح المقهى أمام النهر مقرّه الدائم، وكان يجيء إليه كلّما أراد الهروب من الواقع الخانق الذي فُرض عليه. وأصبح صاحب المقهى يعرفه، وطلب من الشباب العاملين عنده ألّا يزعجوه وألّا يسمحوا لأحد بأن يجلس في مكانه. وفي بعض الأحيان، عندما كان يسيطر عليه الغضب، ويريد صوته المختنق أن ينطلق إلى الخارج، كان ينزل إلى النهر ويسبح إلى مكان بعيد عن الشاطئ، وهناك كان يطلق أحاسيسه، ويطلق غضبه في الأمواج كما لو كانت عدوّه، ويسمح لصوته بالصراخ والعويل على قدره. وبعدما يتخلّص من كلّ الغضب الذي في قلبه، يلفّه الهدوء الذي أنزلته المياه عليه وينسى لوهلة الواقع البشع الذي يعيشه.

في البداية، لم تلحظ بِيرْطَة، التي لم تلتفت إلى مئير بعد أن حقّقت مرادها، التغيّرات التي طرأت عليه؛ لكنّها عندما توقّف عن إعطائها أجره اليوميّ، ثار الشكّ لديها، وكانت واثقة من أنّه يخبّئ ماله في بيت

والديه، فاقتحمت بيت نوريَّة من دون أن تطرق الباب وبدأت بالتفتيش في الدواليب وفي الفراش.

"أين تخبّئين ماله؟" صرخت بصوتها الأخنف. فقفزت نوريَّة من مكانها.

"عن أيّ مال تتحدّثين؟ وماذا تصنعين في دواليبي؟" غضبت نوريَّة عندما شاهدت الضيفة غير المرغوب فيها في بيتها.

"المال الذي يكسبه مئير ويخبّئه عنّي"، أجابت بِيرْطَة بعدوانيّة. "أُخرجي من بيتي قبل أن أصرخ بأنّك سرقت مصاغي! اخرجي من هنا! لتكوني فداء ابني! احذري! إذا واصلتِ التصرّف بهذه الصورة فإنّه سوف يتركك يومًا ما"، هددتها نوريَّة.

ضحكت بِيرْطَة في سخرية، وأشارت إلى بطنها المنتفخ، وبدأت بمداعبة القفل المعلّق في رقبتها. أرادت نوريَّة مدّ يدها لتنزع القفل من رقبتها، لكنّها تراجعت عندما تذكّرت كلام الشيخ. وأخرجها ضحك بِيرْطَة عن شعورها، فقرّرت إهانتها:

"أنت وأمّك فزتما بسحركما. نجحتِ في الحصول على زوج لك، وأنت لا تساوين نعل حذائه، لكنّك لم تقدري على الاستحواذ على قلبه، وحبّه".

وضعت بِيرْطَة يديها على أذنيها كي لا تسمع كلامها، فسحبت نوريَّة يديها بالقوة وصرخت في أذنها:

"أنت قيّدت نفسك بيديك لتعيشي مع زوج لا يعرف من أنت ولا يشعر بشيء تُجاهك. هو ينام بجوارك ويضاجعك، لكن مثل الدمية بلا روح. أنت فرضت على نفسك عقوبتك – بألّا تعرفي معنى الحبّ أبدًا"، واختتمت كلامها وأدارت لها ظهرها. وقفت بِيرْطَة مذهولة ولم تعرف ماذا تقول.

منذ ذلك الحين لم يعد مئير يعود إلى بيته. وبين العمل في الملهى الليلي، والسباحة والتأمّل المستمر للنهر، كان يذهب إلى بيت والديه لينام قليلًا. وكان يضع كلّ يوم أجره على فراش بِيرْطَة ويعود ليختفي في العالم الذي بناه لنفسه. في بيت والديه بدأ يهتمّ بمجموعة كتب حِيِّيم، ومنها أعمال كبار الكتّاب والشعراء العرب والمسلمين. فقرأها بنهم، وأعجبته على وجه الخصوص قصيدة "مجنون ليلى"، التي تحكي قصّة حبّ الشاعر قيس لليلى، التي جعلته مجنونًا، لأنّ أباها عارض زواجهما وزوّجها من رجل آخر، وأخذها بعيدًا عن قبيلته، من شبه الجزيرة العربية إلى العراق. عندما قرأ الشعر الذي كتبه قيس لمحبوبته على رمال الصحراء التي هرب إليها، تذكّر محبوبته أمل، وملأت الدموع عينيه. حاول كتابة أشعاره الخاصّة لمحبوبته التي تزوّجت من رجل آخر، لكنّ الضجيج في المقهى لم يسمح له بالتركيز. فطلب من روّاد المقهى الحفاظ على الهدوء، ولحُسن حظّه أنّه لم يضربه أحد. فقد فوجئوا فقط باكتشاف أنّ للشابّ الهادئ الذي يجلس كلّ يوم يحدّق في النهر من دون أن يُزعج أحدًا، صوتًا. لكن بعد أن كرّر طلبه، نفذ صبرهم، واضطر صاحب المقهى الذي أظهر حتّى الآن صبرًا تُجاهه، إلى طرده وتحذيره من العودة ثانية. آسفًا، اضطر إلى الجلوس أمام النهر وهناك على الرمال، مثل قيس، كتب أشعاره. وعندما تذكّر قصص البحّار سندباد، التي قرأها في قصص "ألف ليلة وليلة"، كان ينزل إلى النهر، وبدلًا من أن يفرغ غضبه فيه كعادته كان يتصوّر نفسه سندبادًا، يخرج في رحلات إلى جزر مجهولة، وينقذ نفسه من سفينته الغارقة ومن كلّ أنواع المخلوقات الغريبة التي يقابلها في طريقه. كان صاحب المقهى يراقبه، وكان كلّ مرة يغيب فيها عن نظره في النهر ينقبض صدره حتّى يعود إلى الشاطئ. حاول تجاهله، لكنّ شيئًا ما في هذا الشابّ الغريب جعله يُشفق عليه، وبعد عدّة أسابيع سمح له بالعودة إلى المقهى شريطة ألّا يصرخ في الزبائن.

سعد حِيِّيم بأنّ أخاه يقرأ كتبه، واعتقد لسذاجته أنّ سحر اللغة العربيّة والتراث الثقافيّ العربيّ قد أسراه. لم يتصوّر أنّ هذه الكتب كانت العالم الجديد الذي بناه لنفسه بدلًا من العالم القديم، الذي فقد فيه هويّته وحياته.

حذرت زيزي نوريَّة معبّرة لها عن قلقها من تغيّر طرأ على مئير، لكن نوريَّة لم تُعِر ذلك أهمّيّة، لأنّها سعدت بأنّ ابنها غير موجود مع بِيرْطَة. وعلى الرغم من ذلك كانت زيزي متأكّدة من أنّ شيئًا ما ليس على ما يرام مع مئير. وخافت أن تكون نوريَّة لا تلحظ ما يمرّ به ابنها، مثلما غاب عنها أنّ مريم وبِيرْطَة قد سحرتاه.

حتى عندما أنجبت بِيرْطَة ابنته، كان مئير خارج البيت، وأرسلت مريم ابنها فؤاد إلى بيت نوريَّة لتطلعه بالأمر. انتفض أَدْوَر من الغضب عندما سمع أنّ حفيدته الأولى قد سُميت لِيلِي، وانتظر بفارغ الصبر عودة مئير من عمله. انتظرته نوريَّة في فناء البيت لتطلعه على الأخبار وتحذّره من أبيه؛ أمّا مئير الذي عاد في الصباح فقط، فأراد الخلود إلى النوم، لذلك ردّ بلامبالاة على نبأ مولد ابنته، ولم يفهم لماذا أبوه غاضب منه.

"ألا يكفي أنّ امرأتك قد جلبت لنا الحظّ السيئ وأنجبت بنتًا – وأنت تسمح لها بأن تسمّيها باسم ليليت – الجنيّة المقيتة، الشرّيرة غير المحتشمة، التي خلقها الله من النفايات والملوّثات. يجب أن تغيّر اسمها فورًا، وإلّا أصبح حظها سيِّئًا ومُرًّا، وكذلك حظّك أيضًا!" قال موجِّها أوامره لمئير.

لكنّ مئير استمر في النظر إلى أبيه بلا مبالاة وتوجّه إلى حجرته ليستغرق في أحلامه. طلبت نوريَّة من أَدْوَر أن يترك مئير وشأنه ويدعه ينام، لكنّ أَدْوَر لم يهدأ، وترك البيت وركض نحو بيت بِيرْطَة. ودفع مريم التي استقبلته بوابل من اللعنات على مئير، وسألها عن مكان بِيرْطَة. صوت بكاء الطفلة قاده إلى الحجرات الداخليّة للبيت، ووجد بِيرْطَة ممدّدة على الفراش في وهن.

"يجب أن تغيّري اسم الطفلة... هذا الاسم محرّم تسمية... حظّها سيكون سيِّئًا"، صرخ فيها واحمرّ وجهه بتأثير حماسة كلامه.

"بدلًا من أن تهنّئ جئت لتلعن؟ ليلي اسم زهرة ولا شيء سيّء فيه "، صرخت فيه مريم، وطلبت من ابنها فؤاد أن يُخرج أَدْوَر من البيت مخافة أن يُحزن صراخه بِيرْطَة وينقطع حليبها.

"سترون أنّ اسمها لن يجلب سوى الشرّ...". استمر أَدْوَر في الصراخ حتّى بعد إخراجه من البيت، أمّا مريم فردّت عليه: "إِبيل عليك، الحزن عليك، اذهب إلى الجحيم، ليكن الشرّ في بيتكم فقط، وعلى أولادك!".

عاد أَدْوَر مُهانًا وعصبيًّا، وعندما رأى مئير نائمًا في الفراش أيقظه بغضب وطرده من البيت. مرغمًا اضطرّ مئير إلى العودة إلى بيته.

اعتقدت نوريَّة أن أَدْوَر غاضب من جنس المولود، ولم تفهم أنّه غاضب بسبب الاسم الذي أُطلق على حفيدته. ولقد ذكّرها غضبه بالقصص التي حكتها لها رحمة إمّ كِلُّو عن جوّ الحداد الذي رافق أمّها في اليوم الذي وُلدت فيه. وفي المقابل، عندما وُلد أخوها يعقوب، كان كلّ الحيّ يحتفل. وأحضر أبوها، بفرحة كبيرة، "كرسيّ النبيّ إلياهو" من الكنيس، ذلك الكرسيّ المغطّى بالقطيفة الحمراء، وزيّن أركانه الأربعة برمّان كتاب التوراة، وأوراق الريحان، ثمّ وضع بعد ذلك كتاب "الزوهر" [6] في مركزه. وتبارت النساء في ما بينهنّ بالزغاريد، ورقص الرجال حول "كرسيّ النبيّ إلياهو" وغنّوا "**ليحل السلام علينا، والسكينة على إسرائيل. جاء إلينا ولد ببشرى خير. وسيأتي المخلّص في عصره ...**". تهلل وجه أمّها من الفرحة: أخيرًا استطاعت هي أيضًا أن ترفع رأسها بفخر بين كلّ جاراتها وأن تكنّى باسم ابنها – أمّ يعقوب.

وفجأة لاحظت غياب مئير عن البيت. أرادت سؤال أَدْوَر أين هو، لكنّ طرقًا قويًّا شتّت تفكيرها للحظة، فأسرعت لفتح الباب. وقف في الباب أخوها يعقوب، الذي كان وجهه الأسمر يحمل دائمًا نظرة غاضبة، وامرأته هيلة التي كانت تذكّر نوريَّة بصالح، بوجهها الملائكيّ وسلوكها. دخل أَدْوَر، الذي كان يمقت

يعقوب، إلى غرفته بغضب.

"جئنا لنبدأ بكلمات طيّبة"، قالت هيلة لتزيل الجوّ المشحون الذي خلقه يعقوب حوله. دعتهما نوريَّة للجلوس في حجرة الضيوف. "ليس سرًّا أنّه قد تقدّم لحنيني عرسان لطلب يدها، لكن قبل أن نعطي ردًّا أردنا معرفة رأيك في حِيِّيم وحنيني"، سألت هيلة بلطف؛ ونوريَّة التي اعتقدت أنّهما قد حضرا ليهنّئا بميلاد البنت، دُهشت من طلب هيلة، الذي كان في ساعات الصباح.

"حنيني مثل ابنتي، وسأسعد بأن تكون زوجة ابني؛ لكنّك نسيت أن تهنّئيني بميلاد ابنة مئير"، قالت معربة عن استيائها.

"منذ متى نحن نهنّئ بمولد البنات؟ "حتّى ولو كانت بنت واحدة لا غير، فهي غير مرغوبة عندنا". اقتبس يعقوب العبارة التي كانت يردّدها كثيرًا يهود الحيّ عند سماعهم بميلاد بنت. "البنات مصيبة. تجلب معها المشاكل فقط. ومنذ لحظة ولادتهن، علينا أن ندّخر المال لندفع للعرسان الذي سيكونون على استعداد للزواج منهنّ، عندما يحين الوقت"، أضاف والغضب يطلّ من وجهه. أرادت نوريَّة الصراخ، والاعتراض، على أنّ الكثيرين، مثل أخيها، يفضّلون البنين على البنات، على الرغم من ضرورة إنجاب البنات أيضًا، كي يستمر العالم، لكنّ هيلة بدأت بالزغاريد كي تسكت زوجها، في حين انتقل تفكير نوريَّة إلى مئير.

بغداد، 1932

.11

ثرثرة النساء ورائحة البخور والسجائر كانت في استقبال حِيِّيم، عندما حضر إلى بيت مئير ليستعدّ معه لامتحان الثانويّة العامّة في الرياضيّات. كانت بِيرْطَة مشغولة بتضييف صديقاتها ووجهته بحركات مستهترة من يدها نحو حجرات البيت في الداخل، هناك وجد أخاه راقدًا في الفراش في حجرة نتنة ومظلمة، يسعل بشدة ويلتهب من شدّة الحرارة. ولقد سبّبت الرائحة النتنة المختلطة برائحة السجائر الكثيفة لحِيِّيم الغثيان وصعوبة في التنفس.

"أنا آسف. لا يمكنني البقاء هنا. لا أستطيع التنفّس، لحظة أخرى وسأتقيّأ. سوف أنادي أمّي"، شحب وجه حِيِّيم، ووضع يده على فمه وترك الحجرة مسرعًا من دون أن ينتظر ردّ مئير، ومتجاهلا بِيرْطَة وصديقاتها. فقط بعد خروجه من البيت عادت إليه روحه، وركض بكلّ قوّته إلى بيته.

"ماما، مئير مريض جدًّا، ولا أحد يعتني به"، قال بنفس واحد. ألقت نوريَّة خرقة الأرض من يديها، وركضت بسرعة إلى بيت مئير، الذي كان على بُعد عدّة بيوت فقط من بيتها. فمريم لم ترغب في أن تسكن ابنتها مع مئير في البيت الأزرق خشية حسد نعيمة وابنتها دوريس، لذلك استأجرت بيتًا صغيرًا في طرف الزقاق. كانت هذه أوّل مرّة تدخل فيها نوريَّة بيت مئير. فهي لم تزُره حتّى في أوّل يوم سبت بعد الزواج – المسمّى "سبت النسوان"- مع بنات العائلة ونساء الحيّ، والغرض منه فحص جودة الجهاز، الذي أحضرته بِيرْطَة، لأنّها كانت قد أقسمت أنّها لن تطأ البيت لأنّها غير راضية عن طريقة تأسيسه. حنيني – هي التي أخبرتها بالأثاث، والملايات، والوسادات، والبطاطين، والملابس، وأدوات المطبخ، والمجوهرات، التي تباهت بها مريم أمام النساء اللواتي حضرن. وعلى الرغم من قسمها، إلّا إنّها تغاضت عمّا سيلحق بكرامتها وطرقت بقوّة وجدّ باب البيت. ولأنّ أحدًا لم يفتح لها الباب، دفعته بقوّة ودخلت. كان المنظر الذي بدا أمام عينيها يشبه المقهى المليء بالدخان، لكنّه تجلس فيه نساء فقط. بحثت عيناها عن بِيرْطَة، التي اختفت بين ضيفاتها اللواتي يدخنّ ويقرأن الفنجان. كانت ليلي الرضيعة ملقاة على أرض الفناء، ووجهها متّسخ وتتصاعد رائحة البول من ملابسها. تخطّت نوريَّة النساء، اللواتي لم يلحظن دخولها، وبحثت عن مئير في الحجرات الداخليّة. وجدته ممدَّدا في غرفة مظلمة رطبة. فعادت إلى حجرة الضيوف مذهولة وغاضبة وتوجّهت إلى بِيرْطَة قائلة: "كيف تسمحين لنفسك أن تهملي زوجك وابنتك؟ كلّ شيء شامي على عامي (بلا نظام) عندك. عرفت أنّ هذا ما سيخرج منك. فتحت في بيتك تشايخانة (مقهى). ألا تخجلين من نفسك!" صرخت فيها غاضبة. أفاقت بِيرْطَة سريعًا لوجود حماتها المباغت، واقتربت منها وبيدها فنجان قهوة، وسألتها ساخرة وفي صوت أخنف:

"أتريدين أن أقرأ لك الفنجان، وأكشف لك إذا كان زوجك يحبّك أم يخونك؟"

أطاحت نوريَّة بالفنجان من يدها، وسكبت القهوة على الأرض. لم تتحرّك الضيفات من مكانهنّ، حتّى عندما أهانتهنّ وطلبت منهنّ الذهاب إلى بيوتهنّ. عادت إلى حجرة مئير، وأخرجته من الفراش ولفّته في بطانيّة. وقبل أن تخرج معه من البيت، بصقت في وجه بِيرْطَة ولعنتها:

"علمت أنّ أصلك النتن سيجعل كلّ من يكون بجوارك ذابلًا. يا قطعة شروجي، عديمة الأدب. لينتقم منك الله على ما فعلته أنت وأمّك بابني".

ضحكت بِيرْطَة في وجهها، ولعبت في القفل الذي في رقبتها وعادت للجلوس مع النسوة، كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

انتظر حِيِّيم أمّه خارج البيت يضرب بقدميه بغضب النبات الشوكي الذي نبت بجوار المدخل. لم يستطع أن يفسّر لنفسه كيف سمح أخوه، الذي احترمه لعِلمه، لبِيرْطَة بأن تدمّر حياته. وعندما رأى أمّه ومئير قرّب كتفه كي يتّكأ أخوه عليه، وحملا مئير بحرص. كان من الصعب على ظهر نوريَّة تحمّل ثقل مئير، لكنّها لم تتوقّف للحظة وواصلت سحب ابنها حتّى وصلوا إلى بيتهم، متجاهلين أصوات النساء والأطفال الذين التفوا حولهم وحاولوا معرفة ما حدث لمئير. أغلق حِيِّيم باب البيت في وجه الفضوليّين، وطلبت منه نوريَّة أن يساعدها في غسل مئير وتغيير ملابسه. بعدها أرقدته في الفراش ودلّكت رأسه وصدغيه.

"لا أشعر بكفّي قدمَيّ. كما لو أنّ الدم لا يتدفّق إليهما"، همس مئير.

"بالطبع الدم لا يتدفّق، لأنّك خضعت ثانية، وسمحت لها بأن تسيطر عليك ووطئت قدماك المكان". دهنت كفّي قدميه بالكريم ودلّكتهما. استمرّ جسمها في الارتجاف غضبًا ممّا رأته في بيت بِيرْطَة ومئير.

"قلت لك إنّك لا تستطيع تطليقها، لكن توقّعت منك ألّا تسمح لها بأن توصلك إلى حالة من الدمار والضياع. لقد تعبت من حمايتك طوال الوقت، حتّى في وجه أبيك. لم تعد طفلًا. أنت الآن رجل وأب لطفلة"، واصلت كلامها غاضبة. "لماذا كلّ شيء صعب عندك؟ حتّى عند ولادتك كان من الصعب إخراجك من بطني. لم ترغب في الخروج. كان الوضع جيِّدا بالنسبة لك في رحمي، ولم يكن يهمّك أنّي كنت أتألّم. كفى! لتكبر ولتتحمّل المسؤوليّة"، هزّته بقوّة وفرّغت غضبها فيه. تدفّقت الدموع من عيني مئير، فعادت واحتضنته واتّهمت نفسها بأنها هي التي حمته أكثر من اللازم. وقف أَدْوَر عند الباب ونظر إليهما، وهزّ رأسه، ثمّ عاد إلى حجرته.

سبعة أيام قامت فيها نوريَّة على رعاية مئير حتّى شُفي. في اليوم السابع أجرت طقس "صبّ الرصاص" من أجل طرد الحسد. فوضعت ثلاث كرات صغيرة من الرصاص في ملعقة كبيرة، وأمسكتها على النار حتّى انصهرت الكرات. بعدها أدارت الملعقة فوق رأسه وألقت الرصاص في إناء من المياه في سكين، مياه باردة وقطع خبز. جمد الرصاص المنصهر في المياه وصنع شكلًا بدا لها كامرأة مستديرة، لها أنف كبير وسيوف في يديها. أخاف شكل المرأة نوريَّة وجعلها تقفز من مكانها.

"لتُفقس عين الحسد التي أصابتك"، قالت بصوت مرتفع، ثمّ استمرت بهمس الكلمات التالية: "ألّا يجرؤ أحد على المساس بك، يا مئير بن نوريَّة".

سخّنت الرصاص ثلاث مرات وألقته في الإناء حتّى انفجر شكل المرأة إلى قطع صغيرة. "انتهينا، انفكست العين! (فُقِئت العين)". قالت مملوءة بالنشوة لنجاحها في هزيمة الشرّ. بعدها قطرت ثلاث قطرات من المياه التي في الإناء فوق رأس مئير ومسحت وجهه ويديه، وبطنه وقدميه، ببقيّة المياه. وعندما انتهت سكبت المياه وألقت قطع الخبز، أما بقايا الرصاص فقد نثرتها في الاتّجاهات الأربعة. وقف مئير على قدميه أخيرًا، وقبّلته نوريَّة وطلبت منه أن يعود إلى بيته وأن يحافظ على نفسه، لكنّه رفض الذهاب وتوسّل إليها أن تسمح له بالبقاء وعدم العودة إلى بِيرْطَة. "ليس مهمًّا أين تكون. فنفسك في يديها. سوف تطاردك في كلّ مكان تذهب إليه. عليك أن تتعلّم التعامل معها وعدم الغوص والغرق. تذكّر ألّا تأكل من طعامها واغسل جسمك بالمياه طوال الوقت، وبمياه النهر إن أمكن، من أجل تطهير نفسك من سحرها. من يدري، ربّما يحميك الله ويرزقك طعم الحبّ الحقيقيّ الذي فقدته"، قالت بأسًى وحاولت إخفاء دموعها التي انهمرت من عينيها.

عندما سمعت عن الجوّ المتوتر بين مئير وبِيرْطَة، شمتت نعيمة بمريم وبِيرْطَة، واعتبرت ذلك فرصة طيّبة لتصفية الحساب لسرقة بِيرْطَة مئير من ابنتها دوريس. فابنتها ما زالت في بيتها من دون عريس، لأنّ كلّ الخاطبات عرضن عليها الشيوخ والأرامل الذين لديهم أطفال يرعونهم. دخلت بيت بِيرْطَة وهي

تضرب رأسها وصدرها.

"جئت في الحال عندما سمعت، يا ابنة أختي. لينتقم الله من الرجل الذي أهملك وأهمل ابنتك! من أيّ شيء صُنع قلبه؟ قالوا إنّه من عائلة كريمة – واتّضح أنّه ابن فُجور، يقضي وقته مع الراقصات والعاهرات"، صرخت وهي تواصل الضرب على جسمها.

انفجرت بِيرْطَة بالبكاء وأخبرت خالتها بكلّ مشكلاتها وأزماتها الاقتصاديّة. أخبرتها بأنّ مئير يضربها، وأضافت أنّه من حُسن حظّها أنّ أمّها تعطيها المال، وإلّا لتضوّرت جوعًا. لقد نسيت تمامًا أنّ أمّها حذّرتها من نعيمة.

"كان عليك رؤية الخالة نوريَّة. لقد بصقت في وجهي، وأهانتني أمام صديقاتي، ثمّ أخذت ابنها، بعد أن بذلت قصارى جهدي لرعايته"، كذبت عليها بعينين دامعتين. داعبت نعيمة رأس بِيرْطَة وقالت لها، إنّها لن توافق بأيّ حال أن يعود مئير إلى البيت قبل أن تُقبّل نوريَّة رأسها وتطلب منها السماح على ما قالته لها أمام صديقاتها. وعلى الرغم من أنّه كان واضحًا لها أنّ كلام بِيرْطَة كذب وإفك، إلّا إنّها استمرّت في لعبتها مع أنّها كانت تودّ أن تصرخ في وجهها: "يا فاجرة، يا بنت الفجّار! كيف أخذت مئير من دوريس التي تجلس الآن في البيت من دون عريس، وهو قد جُنّ من سحرك!"

"أنا متعبة والطفلة تبكي طوال الوقت منذ أن صرخت فيّ الخالة نوريَّة"، أضافت بِيرْطَة.

"اذهبي لتستريحي، وسأعتني أنا بابنتك"، قالت نعيمة وأخذت ليلي إلى دكّان الكعك. هناك ألبستها قميصًا أسود طويلًا، وخلعت نعليها. وأخبرت كلّ المارة أن هذه الطفلة يتيمة الأب، وطلبت منهم أن يعطفوا عليها، وأن يشتروا من أجلها الكعك ليتوفّر المال لرعاية أمّها وأخوتها المرضى.

دُهش يوسف الذي كان يمر بالمكان في طريق عودته إلى بيته من المدرسة الدينيّة، لرؤية ليلي في دكّان نعيمة.

"لماذا ليلي حافية القدمين وترتدي السواد؟" سأل بقلق دوريس التي كانت تعمل بجوار أمّها في الدكّان، لكنّها لم تُجِبه.

"أبوها مات"، ردّت عليه نعيمة من دون أن تحرّك جفنًا، ونظرت دوريس إلى أمّها مذهولة.

"متى حدث ذلك؟" سأل.

"اليوم"، كذبت نعيمة. فزع يوسف من كلامها وركض إلى بيته.

"ماذا حدث لك؟" ذُهلت نوريَّة عندما شاهدت وجه يوسف الباكي.

"ماذا حدث لمئير؟ كيف مات فجأة؟ كان سليمًا في الصباح"، سأل مذهولًا.

"لا قدّر الله! ماذا تقول؟ من قال لك إنّه قد مات؟" دُهشت وارتجف جسمها كلّه. أخبرها ما قالته له نعيمة، فخرجت نوريَّة غاضبة وركضت نحو دكّانها.

"لماذا تدفنين ابني وهو ما زال حيًّا؟" سألت نعيمة بغضب، وأثارت جلَبَة حولها، وجذبت إلى دكّان أختها كلّ المشترين الذين كانوا في السوق في هذه الساعة. غابت دوريس في داخل الدكّان ولم ترغب في أن تشارك في أفعال أمّها.

"قلت لك إنّك ستندمين على عدم تزويجك دوريس من مئير. لقد فقدت ابنك لأنّك حطّمت قلبي، وقلب ابنتي المسكينة. أنت الآن في أيدي مريم وابنتها السليطة. حتّى سمير ابني، أفقدتاه صوابه بسحرهما، والآن يعود كلّ ليلة إلى بيته ثملًا، بدلًا من أن يعمل معي ويساعدني".

لم تنطق نوريَّة بكلمة، لأنّه لم يكن من الممكن أن تعيد لابنها سنواته الضائعة وحلمه، الذي لن يتحقّق أبدًا. فهي لم تستطع إدراك كيف أنّ الله الذي يوجّه الأمور في الأعلى، قد سمح لمريم بأن تغيّر مجرى حياة ابنها. لكنّها لم تُرد الكفر به، لأنّه ربّما يكون هذا اختبار لها منه، لذلك حكمت على نفسها بإظهار الصبر مثل أيّوب. نظرت إلى حفيدتها مشفقة، وحملتها بين ذراعيها وأخذتها إلى أختها مريم. ارتعدت قدماها عندما دخلت البيت الأزرق، وخافت أن تطأ قدماها سحرًا ما أعدّته مريم.

"انظري أختك نعيمة ألبست ليلي ملابس سوداء وأخبرت الجميع أنّ والد الطفلة مات. أتوافقين على ذلك؟" تركت ليلي عند مريم وذهبت من دون انتظار الردّ. وعندما وصلت إلى بيتها شعرت بضغط في صدرها، واضطرّت إلى الاستلقاء على الأريكة في حجرة الضيوف. نظر إليها أَدْوَر وأراد سؤالها عن حالها، لكنّه لم يجد الكلمات المناسبة، لذلك راقبها من دون أن يقول شيئًا.

.12

بعد مرور بضعة أيّام أخبرت زيزي نوريَّة بأنّها سعدت برؤية مئير في العمل، وأنّ له بريقًا في عينيه لم تشهده فيه من قبل.

"كان عليّ أن أعرّفك إلى مئير قبل أن يتزوّج. كان جميلًا ومليئًا بالنور! هذه الفتاة، المنحطّة – التي لا أفهم كيف تكون من لحمي ودمي –مصَّت دمه. لا أعرف ماذا أفعل. هو الآن ينام في بيتي، لكنّني لن أستطيع حمايته منها. عليه أن يتعلّم كيف يحذر منها – وإلّا سيذبل مرّة أخرى وسيختفي كلّ بريقه"، قالت وأخرجت الخيط والكريم للاعتناء بزيزي.

"أعطاني مئير اليوم قصيدة كتبها وطلب منّي غنائها"، قالت زيزي. "عن ماذا القصيدة؟" سألتها بدهشة. لم تتوقّع أن يكتب مئير قصائد، لأنّه ينجذب أكثر إلى الأرقام والحسابات – أمّا حِيِّيم، فهو الذي انجذب إلى الكتابة وأحبّ قراءة الأشعار والكتب. أخرجت زيزي من حقيبتها ورقة بخطّ يد مئير. "قرأتُ القصيدة ولم أتوقّف عن البكاء"، قالت زيزي، وبصوت مخنوق قرأت لها القصيدة التي كتبت من دون مراعاة للقافية:

وعَدَ أمل بالحبّ الأبديّ

ونسج معها أحلامًا عن مستقبل مشترك.

لكنّ امرأة أخرى قطفت حبّه بمكر

ووطئت أحلامه بالخديعة.

كبّلت قلبه بقفل الآلام

وألقته في لُجّة البحور السبعة.

"لقد ضاع إلى الأبد"، قالوا جميعًا،

"ومصيره أن يبقى حبّه مثل شجرة الصفصاف".

لكنّ قلبه ما زال يخفق وينادي أمل:

"أنقذيني، حرّريني،

استمرّي في الإخلاص لي،

والحفاظ على حبّنا".

امنحيه الأمل، يا أمل –

وإلّا ضاع للأبد في لهيب السحر،

وتصبح حياته رحلة عذاب وآلام مضنية

في أعماق البحور السبعة.

ساد صمت طويل في الحجرة. مسحت نوريَّة دموعها، ونادت زيزي الخادمة وطلبت منها إحضار الماء.

"لا أعرف لمن كتب القصيدة. أذكر أنّه في الأوقات التي كنت أرعاه فيها كان يتمتم بكلمة "أمل"، واعتقدت

أنّه يطلب الأمل"، قالت نوريَّة بعد أن تمالكت نفسها.

"أنا لا أعمل اليوم في الملهى، لأنّي دُعيت للغناء أمام الملك والوزراء، لكنّي سأسأله غدًا لمن كتب القصيدة. وسوف يخبرني بالطبع. على أيّ حال، لقد عرضت القصيدة على زوجي، الذي بدأ من حينه يعمل على بناء قافية لها وعلى تلحينها"، قالت زيزي ودمعت عيناها.

"أرجو أن تسامحيني إذا كنت قد تخطّيت حدودي. أنا هنا منذ سنوات، ولم أشاهد زوجك أبدًا. وأنت بالكاد تذكرينه أيضًا"، قالت نوريَّة ما في قلبها وسرعان ما ندمت على ذلك.

"لا. لا بأس من السؤال. أنت لا ترينه، لأنّه ينام في الصباح، وهو مشغول معظم الوقت في إعداد الألحان لي وللمغنّيين الآخرين، وفي الليل يصحبني في حفلاتي ويحميني من عيون الرجال. زوجي يعرفك من حكاياتي، ويعرف أنّك أنت وهو عائلتي الوحيدة"، ردّت زيزي. أرادت نوريَّة سؤالها لماذا لا تُنجب أطفالًا آخرين، لكنّ الخادمة دخلت الحجرة وألهتها.

عاد مئير مبكِّرا إلى بيت والديه، بعد أن قضى اليوم في القراءة والكتابة في المقهى أمام النهر. فقد وجد هناك سلواه بعد أن وضع قطعة قطن في أذنه لتخفض ضجيج الموجودين؛ وحرص صاحب المحلّ من حين إلى آخر أن يأكل ويشرب من دون أن يزعجه أحد. قال لنوريَّة إنّه لن يذهب اليوم إلى العمل، لأنّ الملهى مغلق. قالت له نوريَّة، التي علمت بظهور زيزي أمام الملك، أن يستغلّ ذلك ويخلد إلى النوم باكرًا. أرادت سؤاله مَن تكُن أمل، لكنّها تراجعت في اللحظة الأخيرة كي لا تكشف علاقتها بزيزي.

عندما خلد الجميع إلى النوم، سُمعت طرقات قويّة على باب بيت نوريَّة، أيقظت كلّ من في البيت. دُهشت نوريَّة لمشاهدة جارتهم عزيزة بالباب. التي كلّما تقدمت بها السنّ أصبحت تشبه أكثر أمّها رحمة إم كِلُّو بوجهها اللطيف وعينيها اللتين تشعّان بالخير والفضول، وكذلك لأنّها علمت بكلّ ما يدور في الحيّ.

"أنا متأسفة على الوقت. لقد شاهدت رحمو الذبّاح يتمرّغ في الأرض ومجموعة من الشبّان المسلمين يضربونه. لقد سافر زوجي نِسيم إلى البصرة ولا أستطيع مساعدة المسكين"، قالت.

لم ينتظر مئير أن تُنهي كلامها وخرج من البيت مسرعًا. تعجّبت نوريَّة كيف أنّ رحمو الذبّاح، ثقيل الوزن وصاحب المظهر المخيف، وصل إلى هذه الحالة. أخذها الفزع لوهلة، وأسرعت خلف مئير وبيدها سكين مطبخ، خشية أن يضرب الشباب ابنها.

وجد مئير رحمو ممدَّدا على الأرض، وحوله بعض الشباب المسلمين الذين أهانوه وسبّوه ليهوديّته. فضرب أحد الشباب، وبعدها فرّ البقيّة هاربين، ورفع الذبّاح من على الأرض وأخذه إلى بيته. ذهبت نوريَّة وراءه والسكين بيدها، مستعدّة لاحتمال أن يأتي الشبّان المسلمون بمساعدة ويعودوا ليؤذوا ابنها.

عكس الهجوم على الذبّاح اليهوديّ بشكل واضح تغيُّر الأوضاع في الشارع. فالبريطانيّون الذين كانوا يدافعون عن اليهود قد غادروا، وعراق فيصل، الذي اعتبر يومًا ما كلّ سكّانه من أبناء الجنس السامي وشعبًا عراقيًّا من دون تمييز في الدين أو العرق، قد تغيّر من اليوم الذي نال فيه الاستقلال. فقد أحاطته أيضًا روح القوميّة العربيّة، التي سادت العالم العربيّ، وظهر تمييز لصالح العرب وضدّ أبناء الطوائف الأخرى في العراق. في كلّ يوم انتشر خبر جديد عن إقالة يهود، نجحوا في الاندماج، تحت الحماية البريطانيّة، في صفوف الإدارة العامة التي كانت مغلقة قبل ذلك في وجوههم، وعُيّن مكانهم شباب عرب كانوا قد أنهوا دراستهم للتوّ. حتّى الصحافة العراقيّة قد تمّت تعبئتها لنشر ثقافة الكراهية لليهود على خلفيّة التقارير الواردة من الأرض المقدّسة. أسهم في ذلك مندوبو هتلر في الممثليّة الألمانيّة في بغداد برئاسة الدكتور فريتس جروبا، الذين استغلّوا الوضع الاقتصاديّ في الدولة وارتفاع نسبة البطالة من أجل التحريض ضدّ اليهود ونشر الدعاية النازيّة بين الشباب، بما في ذلك نشر كتاب "ماين كامف" (كفاحي –

لهتلر) باللغة العربيّة في صحيفة "العالم العربيّ"، التي اشتروها. أدرك يهود العراق أنّ العصر الذهبيّ الذي عاشوه تحت الحكم البريطانيّ قد ولّى، وملأهم الخوف من الرياح السيئة التي هبّت مع بداية عام 1933.

عندما عادت نوريَّة، غضب منها أَدْوَر لتركها البيت ليلًا. وأراد أن يقول لها إنّه خاف أن يصيبها مكروه، لكنّه قال بدلًا من ذلك: "إلى متى ستعاملينه كالطفل؟ ألا تدركين أنّه أصبح رجلًا يعرف كيف يعتني بنفسه؟".

في منتصف الليل شقّ صراخ مئير صوت السكون، وأيقظ كلّ من بالبيت. اعتقدت نوريَّة أنّه رأى كابوسًا؛ لكنّه استمر في الصراخ من شدّة الألم ممسكًا صدره بيده.

"ماذا بك؟ لقد كنت مثل الأسد قبل ساعات، كنت "بدالكِ" ربّما أصبت بالبرد؟" قالت نوريَّة ودهنت صدره بالزيت، لكنّ مجرّد لمسها إيّاه زاد من آلامه. نظر أَدْوَر إلى ابنه في قلّة حيلة، وأرسل يوسف وحِيِّيم لاستدعاء الطبيب. وبعد أن جاء وفحص مئير، نادى نوريَّة وأَدْوَر وبصوت خافت وتعابير وجه قاسية قال لهما، إنه يعتقد أنّ مئير يعاني من مشكلة في منطقة القلب، لكن يجب أن يفحصه في المستشفى ليتأكّد ممّا يعانيه بالضبط. أراد الطبيب معرفة إذا كان قد بذل مجهودًا في الأيّام الأخيرة، فأخبرته نوريَّة أنّه حمل رحمو الذبّاح. فأومأ الطبيب برأسه تعبيرًا عن خطورة الموقف.

"هل سيتعافى؟" سألت نوريَّة بقلق.

"يجب أن أفحصه في المستشفى. إذا كان قد شدّ عضلة في القلب، فلا علاج له. يجب الحرص على ألّا تسوء حالته – وإلّا ...". لم يكمل الطبيب كلامه.

"وإلّا ماذا؟" سألت نوريَّة.

"لا يجب أن أكمل. أنت تعلمين وحدك"، أجاب وخرج من بيتها.

حِيِّيم

بغداد، 1933.

13.

"فقط أغمضي عينيك، وستريننني أمامك ثانية"، قال حِيِّيم لأمّه ووضع يدها على كتاب التوراة، لتقسم أنّها لن تعيق تطوّعه في الجيش العراقيّ ثلاثة شهور- على الرغم من أنّ التجنيد لم يكُن إلزاميًّا في ذلك الوقت. حاولت سحب يديها من فوق الكتاب المقدّس، لكنّه ضمّهما بيديه وأمسكهما فوق الكتاب بقوّة. وجهه الرقيق المزيّن بخصل الشعر البنيّة الطويلة والمسدلة على كتفيه، نظر إليها منتظرًا كلامها، وكان يبدو لها أنّها تنظر إلى أحد التماثيل اليونانيّة الجميلة التي شاهدتها عند زيزي ذات مرّة. "أقسمي يا أمي"! أصبحت عيناه الخضراوان جادّتين، وضغطتا عليها، لكنّها سحبت يديها.

تحدّد يوم التجنيد بعد يوم من رأس السنة، وبقي أمام نوريَّة ثلاثة أيّام لتقنعه بالتخلّي عن الفكرة. لقد علمت أنّها أخذت على عاتقها مهمّة صعبة، وشكّكت في قدرتها على النجاح فيها. حتّى مزاعمها- بأنّه لن يرضى بترك حنيني عدّة شهور بعد أن خطبها – لم تنجح، حتّى محاولاتها استخدام مرض مئير لم تؤثّر فيه، وكرّر ردّه الصارم بإصرار:

"سأتطوّع لعدّة شهور فقط، وأنا سعيد بأنّي أساعد في الحفاظ على أمن وطني، والدفاع عن العائلة المالكة الهاشميّة. كما أنّني أستطيع التفكير جيِّدا في هذه الفترة في مستقبلي. فأنا ما زلت متردِّدا ولا أعلم إذا ما سأكون صحفيًّا، وربّما مدرِّسا، أم أختار العمل في إحدى الوزارات الحكوميّة".

وعلى عكس مئير، الذي لم يهتمّ نهائيًّا بالصراع الذي احتدم بين الشباب اليهود حول هويّتهم، فقد أحبّ حِيِّيم العراق جدًّا، كما أحبّ اللغة العربيّة، والتراث العربيّ، ورأى جذوره ضاربة في السهول بين دجلة والفرات – لا في الأرض المقدّسة، مثل ما حاول المدرّسون الصهاينة غرسه في عقول أصدقائه في الصفّ وفي الحيّ، وإخافتهم من المخاطر المرتبطة ببقائهم في الشتات. صرخ في أصدقائه الصهاينة الذين أطلقوا على العراق – أرض القيمر والسيلان – على اسم "الشتات"، وسعد بأن حظرت السلطة الجديدة نشاطهم. لذلك كان يقلّل من أهمّيّة إبراز العداء تُجاه اليهود، وموجات التأييد للنظريّات النازيّة التي بدأت تتردّد في الشوارع، واعتقد أنّ مصلحة اليهود هي في إظهار الولاء التامّ للوطن العراقيّ. كان ينصب قامته عند رفع العلم العراقيّ في طابور الصباح في المدرسة، وافتخر باعتمار قبّعة السِدَارَة، لأنّها كانت ترمز إلى العراق الحديث، واتّحاد العراقيّين من كلّ الديانات تحت حكم فيصل – في الوقت الذي لم تعبّر فيه السيدارة في نظر مئير عن شيء أكثر من مجرّد كونها قبعة حلّت محلّ الفِيسْ (الطربوش) العثمانيّ. كما قرأ حِيِّيم بلهفة مؤلّفات وأشعار المثقفين اليهود، الذين وجدوا مستقرًّا لأفكارهم القوميّة العراقيّة في جريدة "المصباح" اليهوديّة، التي تصدر باللغة العربيّة، ويملكها سِلمان شينا، ويحرّرها الشاعر والأديب الكبير المحبول لديه أنور شاؤول، حفيد هرمان روزنفيلد – الترزي الذي هاجر إلى بغداد من النمسا في منتصف القرن التاسع عشر. بعد إغلاق الجريدة بسبب تزايد الدعاية المناهضة للصهيونية واليهوديّة تابع حِيِّيم بشغف كبير منشورات شاؤول في جريدته الجديدة "الحاصد"، التي كانت ذات طابع عربيّ عراقيّ. كما تبنّى حِيِّيم الأفكار المؤيّدة للحركة النسائيّة الغربيّة التي سادت بين المثقّفين اليهود ودعت إلى تمكين المرأة العراقيّة من خلع العباءة والپوشي، اللتان تحدّان من حركتها؛ غير أنّ هذه الآراء لم تقبل، واستمرّت النساء في تغطية وجوههنّ وأجسادهنّ، في الوقت الذي خلع فيه كثير من الرجال الجلاليب التقليديّة وارتدوا البدلات مثل الأفنديّة الغربيّين.

لم تترك نوريَّة المخاوف من تجنيد حِيِّيم المرتقب، وعدم التأكّد من فرص مئير في الشفاء؛ حتّى في الوقت الذي كانت تقوم فيه بتنظيف البيت وتعدّ فيه مأكولات العيد، فسارعت إلى إنهاء أعمالها قبل وصول

الذبّاح، وكما لو أنّ ما حدث كان لإثارة غضبها، سقط كوب زجاجيّ من يدها وتحطّم إلى قطع صغيرة، وتمزق كيس الأرزّ وبدأ يتناثر ما به على الأرض، وسُكبت البهارات على مائدة الطعام وملأت رائحته القويّة في كلّ المطبخ، الذي اسودّت جدرانه بسبب سنوات طويلة من الطهي على موقد الفحم. في كلّ مرّة كان يسقط شيء من يديها كانت تتمتم مرارًا وتكرارًا "خير إن شاء الله" وتنظّف بسرعة لتحاشي ملاحظات أَدْوَر المهينة. ولحُسن حظّها لم تنس تذوّق اللحم قبل أن تضع فيه الكوسا وعجين الكبّة، وإلّا لم تكن لتكتشف أنّ مذاقه حامض جدًّا. ولذلك اضطرّت مرغمة إلى إلقاء الطعام في صندوق القمامة وأعدت آخر بدلًا منه.

خليط الروائح في المطبخ المكتظّ جعلها تشعر بالاختناق، ففتحت النافذة لتسمح لهواء بداية الخريف الخفيف بالدخول. وعند وقوفها أمام النافذة المفتوحة أطلّت على الخروف الموجود في فناء البيت منذ أسبوع. كان يقف متجاهلًا شرائح البطيخ التي وضعتها أمامه في الصباح، والذباب المزعج الذي تجمع عليها، لكنّه عندما شعر بنظرة نوريَّة، نظر إليها بعينيه المكتئبتين. أثار طنين الذباب الذي تجمّع حول الخروف عطفها عليه فخرجت مسرعة من المطبخ وطردته بيديها. مسّت عيون الخروف الحزينة والمثيرة للشفقة، قلبها. "إنّها تنظر إليّ كما لو كانت تشمّ رائحة دماء الخراف الأخرى من بيوت اليهود، وتشعر بأنّ حياتها ستنتهي عمّا قريب"، فكّرت نوريَّة، وتعاملت مع الخروف على أنّه أنثى، على الرغم من أنّ أهل البيت حدّثوه على أنّه ذكر. "كيف يمكنني مساعدتها، إذا كنت لا أعرف كيف أساعد نفسي؟" داعبت الخروف بحزن ودخلت إلى المطبخ مرّة أخرى.

طرقات قويّة سُمعت على الباب. نسيت نوريَّة أنّ أَدْوَر كان مشغولًا بالاستعداد لطقس التحلّل من النذور [7] مع أبنائه ومنع أن يزعجه أحد، ولأنّها اعتقدت أنّ الذبّاح هو الذي جاء، طلبت منه أن يفتح الباب. وما إن اتّضح لها أن أَدْوَر لا يجيبها، ذهبت بنفسها إلى الباب. وبدَلا من الذبّاح وقف أخوها يعقوب، وزوجته هيلة، وابنتهما حنيني، ومن ورائهم نظر إليها عشرة رجال. دخل يعقوب غاضبًا، وقبل أن تلقي التحيّة والسؤال عن سبب مجيئهم عشيّة العيد، دوّى صوته: "أين حِيِّيم؟" ومن دون استئذان بدأ بالبحث في البيت. ولمّا لم يجده، وقف في وسط الفناء بجوار البالوعة، ونادى بصوت غاضب: "حِيِّيم، انزل فورًا!"

خرج حِيِّيم وأَدْوَر من الحجرة المجاورة للفناء فزعَين.

"طلِّقها الآن، قبل تجنيدك في الجيش، وتختفي ولا تعود. لا أريد أن تبقى ابنتي مهجورة بسببك مثل چحلة الجارة، التي تقف منذ ستّة عشر عامًا في النافذة تنتظر عودة خطيبها بدري من حرب الأتراك الكبرى ضدّ الإنجليز"، أمر يعقوب حِيِّيم. "أنت تعلم أنّ الخطبة عندنا مثل الزواج في كلّ شيء. فلماذا خطبتها، إذا كنت لا تنوي تنفيذ الزواج؟ فحتّى في التوراة مكتوب أنّ من خطب ولم يتزوّج بعد فهو حلّ من الخروج إلى الحرب. فلماذا تجنّدت للجيش؟" ثار عليه غاضبًا.

"لكنّني خارج للدفاع عن سلامة العراق. وهذه الحرب بالنسبة لي واجب وليست رخصة، وحسب التوراة فحتّى العريس في الكوشة مفروضة عليه"، جادله حِيِّيم.

رفع أَدْوَر عينيه للحظة مندهشًا من سماع ابنه المتمرّد يعرف شيئًا من وصايا التوراة؛ لكنّه لأنّ باله كان مشغولًا بطقس التحلّل من النذور، لم يتدخّل في الحوار وطلب من حِيِّيم مواصلة الطقس.

"عن أيّ حرب مفروضة تتحدّث؟ لن أسمح لك بالخروج من هنا والالتحاق بالجيش قبل أن تطلّق ابنتي أمام الشهود العشرة، الذين شهدوا على خطبتك السوداء، وكانوا شهودًا أيضًا على تقديسك إيّاها بهذا الخاتم في أثناء الخطبة"، عرض يعقوب خاتم الخطوبة وأمسك بيده الثانية ذراع حنيني بقوّة.

تلوَّت حنيني تحت ثقل يد أبيها، وخرج من حلقها صراخ مكتوم. لقد حاولت التملّص من قبضته ونجحت

في سحبه نحو مدخل البيت في محاولة للهروب، لكنّه احتضن يدها بقوّة ولم يدعها تتملّص. احمرّ وجهها خجلًا ومن المجهود، وملأت الدموع عينيها. وأشارت إلى حِيِّيم بيديها، بحركات عصبيّة ومرتعشة، بألّا يصغي لأبيها. لكنّ يعقوب فهم الإشارات التي تضمّنتها حركاتها، وصفعها، وهدّدها بأنّه سيدُقُّ عنقها لو قالت كلمة واحدة وحذّرها من أن تجرؤ على الحركة حتّى يطلّقها حِيِّيم. في النهاية تخلّصت حنيني من أيدي أبيها وسقطت على الأرض. دفع حِيِّيم يعقوب إلى الحائط، وأمسكه من عنقه وقال: "لا تتجرّأ أبدًا على رفع يدك ثانية على حنيني!" أسرعت هيلة إلى ابنتها، ورفعتها عن الأرض واحتضنتها. استمرّ الخروف في الركض في مكانه متجاهلًا المشاهد المزعجة التي تحدث أمامه.

"من سيرغب في الزواج بحنيني، إذا طلّقها حِيِّيم؟ فقط الشيوخ والأرامل"، ناحت هيلة على المصير المرتقب لابنتها وضربت على رأسها، الذي عرف الكثير من الضرب من يعقوب الذي جعل حياتها مريرة بعد موت ابن عمّها صالح، الذي بقيت وحيدة من بعده في العراق من دون أن يحميها أحد منه.

"هدوء يا امرأة! ولا تعصيني!" أسكتها زوجها يعقوب ورفع يده عليها.

مندهشًا وغاضبًا ذهب حِيِّيم إلى زاوية الفناء لا يعلم ماذا عليه أن يفعل. حثّه أبوه على مساعدته في التحلّل من نذوره أمام الله – ووالد حنيني يضغط عليه كي يتحلّل من نذوره لمحبوبته. وقفت حنيني أمامه وملأ حبّها قلبه. وتذكّر كيف قبّلها أوّل مرّة قبل وقت قصير من احتفال "البار متسـ□اه" (سنّ التكليف). وكانت حنيني قد اعتادت المجيء إلى بيته كلّ يوم وقت الظهيرة، مع انتهاء دراسته، وانتظاره حتّى ينتهي من تناول طعامه. وتذهب بعدها معه إلى غرفته، وتخرج دفاترها من صندوق تحت فراشه، وتنصت بانتباه بالغ إلى كلّ ما تعلّمه في المدرسة في ذلك اليوم. هكذا تعلّمت هي أيضًا القراءة والكتابة والحساب، واكتشفت بلدانًا أخرى، وأحبّت الشعر الكلاسيكيّ للشعراء المسلمين، مثل: المتنبي، والمعرّي، لكنّها أحبّت، على وجه الخصوص، الشعر المفعم بالخيال للشاعر أبي نُواس.

في البداية عاملها حِيِّيم كابنة خاله، التي جاءت لتتعلّم معه خلسة بسبب معارضة أبيها تعليم البنات. "إنّ مهمّة البنات هي الجلوس في البيت وخدمة رجال العائلة"، هكذا كان يجيب زوجته هيلة، عندما حاولت تشجيعه على إرسال حنيني لتعلّم القراءة والكتابة في مدرسة البنات، مثلما كانت تفعل بنات أُخريات كثُر. في النهاية، وافق على إرسالها لتعلّم الخياطة والتطريز في "أتيلية حگولي"، حيث تعلّمت هناك بالمجّان مع بنات يهوديّات فقيرات من أبناء الحيّ. ولقد وعدها "حگولي"– مثل البنات اليهوديّات الأخريات في الورشة – بأنّه سوف يشغّلها بعد انتهاء تعليمها كي تستطيع تمويل نفقات مهرها. وكان ذلك حلًّا جيِّدًا بالنسبة لها، لأنّ أباها يعقوب لم ينجح في الاستمرار في أيّ عمل بسبب سلوكه المتعالي ونفاد صبره. لم تفلح كلّ توسّلات هيلة لنعيمة بأن تشغّل يعقوب وتخرجه من البيت، لعدّة ساعات على الأقلّ. فقد قالت لها أنّها تفضّل أن تعطيه أجرًا من دون أن يعمل كي لا تفقد زبائنها بسببه. اضطرّت هيلة مرغمة إلى الخروج إلى العمل بنفسها، وسمحت لها نعيمة بأن تضع بجوار دكّانها طاولة تبيع عليها المشروبات الباردة للمارّة في السوق. وكان هذا العمل –وإن كان محتقرًا في نظرها- ملاذًا لها لعدّة ساعات من سطوة يعقوب أكثر من كونه مصدرًا للرزق.

مئير هو الذي أثار انتباه حِيِّيم لطابع حنيني الخاصّ وللفرق بينها وبين بِيرْطَة. وكلّما أكثرت في الزيارة، لاحظ التغيّرات التي تطرأ عليها: على جسدها الذي يستدير، وثدييها المنتفخان، وفخذيها المنحوتين أسفل تنّورتها الطويلة التي ارتدتها طوال الوقت. وبالتدريج اقترب منها، منجذبًا لرائحة الياسمين، التي تفوح من شعرها الغزير، المنسدل على كتفيها، ويختلط برائحة جسدها المعطر. لقد أحبّ عينيها السوداوين، اللتين نظرتا إليه بإعجاب، ووجهها الرقيق مثل وجه أمّها، الذي كان يحمرّ خجلًا كلّما امتدحها على تقدّمها في الدراسة. كما أن حنيني أحبت الفتى، الذي علمها أشياء جديدة وفتح أمامها عوالم مثيرة، وكانت تتبعث منه

رائحة جميلة لماء الكولونيا. لقد أحبّت هي عينيه على وجه الخصوص، اللتين لمعتا من الذكاء بلونهما الأخضر، وشعر رأسه الذي كان مليئًا بالخصل البنيّة الطويلة، مثل شعر أبي نواس. عندما كان حِيِّيم يقرأ شعره، كان خيالها يقودها إلى البلاط البغداديّ الرائع للخلفاء العباسيّين. فهنا يجلس الشاعر في كرسيّ كبير من القطيفة الحمراء، بجوار عبدين جميلين يهشّان الذباب بالمراوح التي تبعث برودة لطيفة، وهو يقرأ بصوته الدافئ قصص المديح والثناء أمام النبلاء المترفين الفجّار. كان تعبير البهجة يغطي وجوههم عندما يتوسّع الشاعر في وصف جسم بطل القبيلة عندما كان يغطس في حليب الإبل. وفي اللحظة نفسها كانت تشعر حنيني بالدم يتدفّق في كلّ جسدها المستيقظ وتعلو الحمرة وجنتيها.

ومنذ تلك القبلة الأولى الخجولة لم يفترق حنيني وحِيِّيم. فقد كتبا لبعضهما كلمات الحبّ في دفتر خصّصاه لذلك، عندما لم يستطيعا قولها. فقط بعض اللمسات، والاحتكاكات البسيطة بالجسد، والقُبلات خفية، حيث كلّ منهما في شوق إلى تحطيم المحرّمات المقدّسة – لكنّه يمنع نفسه عن فعل ذلك. وفي كلّ مرّة شعرا بأنّهما سوف يفقدان السيطرة، توقّفا عن الاحتضان وقلّل من حماستهما. وفي بعض الأحيان كان يحلم بأنّهما يلتقيان خارج البيت ويتنزّهان على متن مركب في نهر دجلة. وكانت حنيني تغطّي جسدها بعباءة ووجها بپوشي أسود، كي لا يستطيع أحد التعرّف إليها في الشارع. وفي المركب كانت تضع رأسها على ركبتيه، وهو يقول لها كلمات حبّ ويبحران إلى مناطق هادئة وبعيدة عن الأعين، حيث تستطيع أن تزيل قيود التقاليد وتخلع العباءة والپوشي. كان حلمه أن يشاهدها تنشر آراءها على صفحات الجرائد، مثل الصحفيّة سترينا أبراهام، ابنة عضو البرلمان اليهوديّ أبراهام مُعلِّم نِسيم.

نظر حِيِّيم إلى الجماعة التي تملأ الفناء الصغير، وكان يبدو له أنّهم تسمّروا جميعًا في مكانهم كالصورة، وينتظرون كلامه، كي يعودوا إلى حياتهم. وضعت أمّه يدها على فمها وحملقت كما لو شاهدت الشيطان بنفسه يقف أمامها. ولم تستطع أن تحرّك شفتيها حتّى لمحاولة أن تقترح عليه، في ظلّ تهديدات يعقوب، أن يتخلّى عن نيّته في التجنيد. حتّى هِيلة، أمّ حنيني، صمتت تمامًا وركّزت في جهودها لحماية ابنتها الوحيدة. وقف الشهود حولهم بلا حراك. أدْوَر فقط هو الذي بدا كما لو كان الأمر لا يعنيه هو وابنه، وبقي منشغلًا بالحاجة إلى مواصلة طقس التحلّل من النذور. أمّا يعقوب فاستمرّ في الصراخ والتوى وجهه من الغضب. وفي خضمّ كلّ هذا الشعور بالغربة والدهشة التي أحاطت بالحجرة، استمرّ حِيِّيم في البحث عن عينيّ حنيني العاشقتين، لكنّها غطّتهما بيديها، وتتأوّه بهدوء، مخافة أن يعود أبوها لضربها.

"لن أتحرّك من هنا قبل أن تطلّقها!" واصل يعقوب إصراره.

احمرّ وجه حِيِّيم غضبًا، وانفجرّ من شدة الغضب صارخًا:

"أنت طالق!".

ذُعر جميع الحاضرين. وصرخت نوريَّة وهيلة. وتركت حنيني مكانها، وركضت نحو حِيِّيم وجذبته بقوّة من قميصه، متجاهلة أبيها الذي لم تعد خائفة منه. لقد أصبحت على أيّ حال في عداد الموتى بعد أن طلّقها حِيِّيم. "كيف تطلّقني بهذه السهولة؟ أين حبّنا؟ أين أحلامنا؟ انتهى كلّ شيء في لحظة لأنّ أبي أغضبك؟ كان عليك المحاربة من أجل حبّنا – وعدم السماح لأيّ أحد بأن يفرّق بيننا"، صرخت وتوجّهت إلى أبيها بمرارة: "هل أنت راضٍ الآن؟".

سحبها يعقوب من ذراعها ووضع يده على فمها.

"أغلقي فمك واحفظي كرامتك"، قال بوجه عابس.

دفعها نحو أمّها وأمرها:

"خذيها إلى البيت قبل أن تتسبّب لنا في فضائح أمام كلّ من هو غير جدير بذلك". أخذت هيلة ابنتها الوحيدة التي كانت كالطائر المكسور الجناح، وخرجت معها من البيت الذي كان من المفترض أن يكون بيتها بعد زواجها من حِيِّيم. لم تستطع هيلة إنجاب أطفال آخرين بعد أن أنجبت حنيني. فقد آمنت بكلّ جوارحها بأنّ السحر الأسود الذي تمارسه مريم وبناتها في البيت الأزرق الذي تسكنه، هو سبب ربط رحمها. فقد فحصتها القابلة سليمة وقالت أنّه ليست لديها أيّ مشكلة طبّيّة، واقترحت عليها ترك البيت المليء بالسحر، الذي جلب سوء الحظّ على ساكنيه، لكنّ كلّ توسّلاتها ليعقوب بالخروج من البيت الملعون والانتقال للسكن في بيت آخر لم تُجدِ نفعًا، وأصرّ على البقاء في البيت الذي وُلد فيه، مع إخوته- خاصة مريم، التي عشقت التراب الذي يسير عليه. وعندما ترمّلت أختاه فقدت هيلة الأمل وكفّت عن الإلحاح عليه.

دعا يعقوب الشهود وأراهم خاتم ابنته الذي قدّس به حِيِّيم حنيني. ووافق الشهود على أن هذا هو الخاتم. أمسك يد حِيِّيم، الذي كان مذهولًا من إعلانه، وفتحها عنوة ووضع فيها الخاتم، وكلّ المصاغ الذي اشتراه لابنته في فترة الخطوبة. ألقاها حِيِّيم كلّها على الأرض باشمئزاز، وفتح الباب على مصراعيه وخرج إلى الشارع.

ابيضّ وجه نوريَّة وكاد قلبها أن ينفطر. جرى كلّ شيء بسرعة. فقبل ثانية واحدة كانت حنيني ستكون زوجة ابنها –وفي لحظة واحدة طلّقها حِيِّيم، قبل أن تفتح فمها لترفع صوتها وتخرج غضبها المتراكم داخلها لسنوات من أخيها الصغير. استمرّ أَدْوَر وشأنه كما لو أنّ شيئًا لم يحدث في الحجرة سوى التحلّل من نذوره، ودعا الحاضرين إلى مساعدته، لأنّه ينقصه مصلٍّ م واحد لإكمال الطقس. وعندما لم يستجب له أحد، فتح الباب وطرد يعقوب والشهود.

"أُركض وراء حِيِّيم واحرص عليه"، طلبت نوريَّة من يوسف.

"لن يخرج أحد من البيت"، صرخ أَدْوَر، وأغلق الباب وأخفى المفتاح في جيبه. أرادت نوريَّة الصراخ فيه: "كيف يمكنك الاهتمام بنفسك فقط، وتجاهل الجميع؟!" لكن لم يكن في مقدورها الشجار معه عشيّة العيد، وفضّلت العودة إلى المطبخ بهدوء والتركيز في إعداد الطعام. كانت واثقة من أنّ حِيِّيم لن يؤذي نفسه، وسيعود إلى البيت بعد أن يهدأ. وهذا ما اعتاده كلّما أغضبها أَدْوَر: كان يترك البيت، ويتمشّى بجوار النهر، وينفّس عن غضبه بقذف الحجارة، ثمّ يعود بعدها إلى البيت هادئًا، ويتأكّد من أنّ أباه لم يضربها، وبعد أن كانت تقسم له أنّ كلّ شيء على ما يرام، كان يقبّل يديها ويعود إلى حجرته للدراسة.

نظرت نوريَّة عبر النافذ وشاهدت مرّة أخرى نظرة الخروف الكئيبة. انفطر قلبها عليه، وخرجت إليه ووضعت أمامه طبق ماء. تجاهلها الخروف، حتّى عندما داعبت رأسه، واستمرّ في إظهار عدم الاكتراث بها، فعادت إلى طبيخها لكنّ حزن الخروف التصق بها. كما سبّبت لها رائحة البهارات القويّة في المطبخ دوارًا بسيطًا. فلعنت يعقوب. وكان امتعاضها منه شديدًا، مليئًا برواسب الطفولة واستمرّ على مدار سنوات طويلة. كان يعقوب الولد الوحيد في الأسرة، دلّله الجميع، وحرصوا على ألّا ينقصه شيء. وعندما كبر تعامل معها كما لو كانت جاريته. كان يجلس على كرسيّه، ومن الصباح حتّى المساء يأمرها بتنظيف حذائه، وغسل قدميه، وملابسه، ويرسلها لتشتري له السجائر، من مقهى الحيّ. استمرّت هذه المعاملة السيّئة طوال سنوات طفولتها وشبابها، وبسبب المرارة التي أثارتها فيها، كانت تختفي هي نفسها من البيت وتتجوّل في أزقّة الحيّ.

كانت تدلّ أصوات البهجة من البيت الأزرق على أنّ الخروف في بيت أختيها صالح للذبح حسب الهلاخاه (الشريعة اليهوديّة). أفاقت نوريَّة من ذكرياتها المؤلمة عن يعقوب، ونظرت مرّة أخرى إلى خروفها، الذي قد حان دوره الآن. دخل الذبّاح إلى الفناء وأقام الخروف بالقوّة من رقوده. وقفت الدموع في عينيها،

وأرادت الصراخ بأن يتركوا الحيوان المسكين وشأنه، لكنّ الكلمات وكأنّها علقت في حلقها مرّة أخرى، ولم تستطع النطق. قرّب الذبّاح السكّين من الخروف ووضعها على رقبته. شعرت نوريَّة كما لو أنّهم يذبحونها وأنّها هي الخروف المساق إلى الذبح. لم تتمالك نفسها، وهربت من المطبخ وجلست منكمشة تتلوّى من الألم على الأرض في زاوية حجرة الضيوف.

أوقف أَدْوَر الذبّاح وطلب منه فحص صلاحيّة السكّين قبل الذبح. أغضب تدقيق أَدْوَر الذبّاح، لكنّه لسبب لممارسة عمله، متغاضيًا عما لحق بكرامته، وأراه السكين ومرَّر ظفره على شفرتها.

"حادّة وملساء من دون أيّ عيب"، قال الذبّاح بنفاد صبر.

لم يثق أَدْوَر فيه وأخذ السكين وأنعم النظر فيها بطولها وعرضها، ومن جانبيها، حينها فقط أومأ برأسه ووافق على أن يواصل الذبّاح العمل.

"ليكن الحيوان قربان تكفير ذنوب أفراد أسرة أَدْوَر بن موشيه ولطرد الحظّ السيّئ عن بيته مع دخول العام الجديد"، بارك الذبّاح بصوت ساخط، من دون أي مظاهر احتفاليّة، كما لو كان هذا ذبحًا عاديًّا، وليس ذبحًا خاصًّا بمناسبة السنة الجديدة.

"لماذا لم تبارك بركة الذبح؟" وبّخ أَدْوَر الرجل الكبير الذي وقف أمامه كما لو كان يوبخ طفلًا صغيرًا. "ستبدأ الآن كل شيء من جديد كما ينبغي".

تمتم الذبّاح بارتباك:

"مبارك أنت يا إلهي يا ملك العالم ... الذي ... قدّسنا بوصاياه ... وأمرنا بالذبح"، بارك بقلب خافق وبوجه شاحب من الخجل والغضب المكظوم. وكان يبدو لوهلة أنّه سيترك الخروف قبل أن يذبحه ويذهب، لكنّه قرّر مرّة أخرى التغاضي عمّا لحق بكرامته وإتمام العمل. "أحضري الصواني، والدلاء. يجب غسل دماء الخروف. كم من الوقت علينا الانتظار؟" صرخ أَدْوَر في نوريَّة.

رفضت أقدام نوريَّة النهوض من أرضيّة الحجرة، واضطرّت إلى جرها بالقوّة. لقد خافت من رؤية الخروف مشقوقًا ينزف، كما لو كانت تشاهد نفسها في موتها.

بيد مرتعشة غرس الذبّاح السكين في الشق الأماميّ من رقبة الحيوان، ثمّ سحبها إلى الأمام والخلف من دون أن يضغط على رقبته. انهار الخروف على الفور. خرجت نوريَّة إليهما ولم تلحظ أنّها حافية القدمين. وقدمت لأَدْوَر الصواني الفضيّة الكبيرة بثقل وعدم بهجة. اختبر الذبّاح الذبح وصرخ في خوف:

"محرّمة".

"لماذا؟" سأل أَدْوَر.

"لا أعرف لكنّي أخطأت. لقد أزلت علامات الحلال. فقد استأصلت القصبة الهوائية والمريء بدلًا من قطعهما"، أجاب بارتجاف.

"علمت منذ البداية أنّ شيئًا ما بك ليس على ما يرام"، صرخ أَدْوَر، وألقى الصواني على الأرض بغضب ودخل البيت، واضطرّ للتنازل عن غمس "المزوزة" (التي توضع على باب بيت اليهوديّ) بدماء الخروف، بمناسبة ذكرى المعجزة التي صنعها الله للأبناء البكور في مصر.

بدأ دم نوريَّة يغلي. "ألا يكفي أنّهم ذبحوا الخروف – هي الآن غير جديرة بالأكل واحتلال مكانة محترمة على مائدة العيد"، اشتكت بداخلها وهي مستمرّة في التطرّق إلى الخروف كما لو كان أنثى. فهي لم تعرف نفسها. "هذا بالطبع عقاب من السماء لأنّني لم أدافع عنها مثلما لم أدافع عن مئير من أيدي مريم وبِيرْطَة

الفظيعتين. لقد صلّيت طوال السنة لتكون سنة أفضل، لكنّها لم تبدأ هكذا"، صرخت. أمسكت برأسها واستدارت بلا حول ولا قوّة إلى الذبّاح، من دون أن تلحظ أنّ دماء الخروف قد التصقت بقدميها الحافيتين.

"سيدخل العيد بعد أربع ساعات – وليس لدي في البيت لحم خروف حلال. ماذا سأصنع؟" سألت.

اقترب الذبّاح منها وعرض عليها الذهاب بسرعة وشراء لحم من رحمو الذبّاح قبل أن يغلق دكّانه، ووعدها بأن يُخلي البيت من اللحم المحرّم وسيغسل بنفسه أرضيّة البيت من دم الخروف. فتحت كيسها وأخرجت قطعة نقد فضية لكنّ الذبّاح أعاد المال إليها وحثّها على الذهاب:

"شكرًا، يا أم مئير. ليساعدك الله. أركضي قبل أن يحلّ العيد من دون أن يكون لديك لحم".

كانت مائدة العيد مليئة بعناقيد التمر المجفّف، الأصفر والطازج، وحبوب الرمان المغموسة بشرابها الأحمر، والتفاح الأصفر المغموس بالعسل، والعنب المعصور، وشرائح البطّيخ الحلو، واللوبيا الخضراء والصفراء، والكوسا المحشيّة باللحم المغموس بصلصة الطماطم، والسمك الفيليه المقليّ، والدجاج وشرائح اللحم مع الأرزّ الأبيض، الكُبَّة البيضاء، التي فاحت منها رائحة البهارات في أنحاء البيت. لكنّ المائدة – التي لم تشرّفها رأس الخروف، لم تكن كاملة.

جلس أَدْوَر على رأس المائدة بوجه حزين ملقيًّا الذنب على يعقوب. "بسببه ليس لديّ رأس خروف، لأعلن عليه أنّنا سنكون الرأس لا الذَّنب. إنّ مائدتك منقوصة يا نوريَّة، بسبب وجهك الكئيب، و□لْبَخْتْ □لْمِصْبُوغ (الحظّ السيء)، لعائلتك"، قال بغضب متزايد وقطّب وجهه.

"يستحسن أن أتمالك نفسي"، قالت في نفسها، "فلنتجاوز العيد فقط بهدوء، كي لا يجد سببًا ليقلب المائدة رأسًا على عقب". هكذا هدّأت بالتدريج النار المشتعلة في داخلها.

جلس مئير الذي خرج من المستشفى ليقضي العيد مع أسرته، منحنيًّا ومتألّمًا إلى جوار أبيه من دون زوجته وابنته. فقد فضّلت بِيرْطَة التي تعلم أنّها غير مرحّب بها في بيت نوريَّة، الاحتفال بالسنة الجديدة مع عائلتها في البيت الأزرق، على الرغم من أنّها علمت بأنّها ستُسعد نعيمة عندما تراها من دون مئير. وافق حِيِّيم على الجلوس معهم بعدما توسّلت إليه نوريَّة ألّا يوفّر لأبيه سببًا لتدمير العيد. نظرت إلى أبنائها، وكان كلٌّ منهم مهموم بشؤونه. فكان مئير معزولًا وبعيدًا، وحِيِّيم حانقًا وغاضبًا. فقد ملأ قلبه الألم فراقه حنيني. أمّا يوسف أصغر الأبناء، فقد انتظر اللحظة التي سينتهي فيها العيد من أجل العودة والتعمق في كتب التلمود.

ولحُسن حظّ نوريَّة انقضت أيّام العيد بهدوء. وقضى أَدْوَر العيد في تلاوة التوراة في البيت والكنيس، أمّا نوريَّة فقد انتظرت اللحظة المناسبة، وجذبت حِيِّيم إلى ركن الحجرة وتوسّلت إليه ألّا يتجنّد في الجيش العراقيّ. ووعدته بأنّها ستتحدث مع يعقوب وستعيد حنيني إليه، لكنّه أصرّ على رفضه، وحبس نفسه في حجرته، ولم يسمح لأحد بالدخول حتّى انتهاء العيد. سيطر شعور بالضعف عليها. وأحاطتها العزلة الداخليّة. ارتعشت قدماها، واستطاعت، بصعوبة، تلمُّس طريقها إلى أريكة الضيوف حيث تمدّدت وانتظرت حِيِّيم حتّى يخرج من غرفته.

قطرات المطر الأولى رافقت حِيِّيم في طريقه إلى مكتب التجنيد. وكان يعلّق على كتفه حقيبة سوداء كبيرة وضع فيها، عنوة، ملابسه، وبطانيّة، وبعض الكتب والزوّادة التي أعدّتها له أمّه. وقفت نوريَّة بجوار مدخل البيت ودهشت عندما اكتشفت أنّه قص خصل شعره الطويلة التي حرص على إطالتها. عانقته وقبلت وجهه وتمنّت له بصوت تخنقه العبرات أن يعود في غمضة عين. لكنّه لم يكن معها؛ فقد كان باله ما زال مشغولًا بوداعه القاسي لحنيني، والاستعطاف والحبّ، والغضب الذي ظهر في عينيها عندما أمسكت

بقميصه، أشغلته كثيرًا. امتلأ قلبه بالغضب، وأغلق قبضتي يديه بقوّة وظهرت على وجهه ملامح قاسية، في الوقت الذي خرج فيه من البيت مصممًا. أسرعت نوريَّة وأخذت جرة ماء، وسكبت ما فيها عند مدخل البيت ودعت الله أن يعيده سالمًا.

.14

"مات الملك فيصل!" هذا ما أعلنته المنشورات في شوارع بغداد معلنة الحداد أربعين يومًا. سُمع صراخ الانهيار في بيوت المسلمين واليهود على السواء على موت الملك الذي أحسن لرعاياه. "فقبل أقلّ من عام احتفلنا باستقلال العراق – وها نحن نفقد ملكنا المحبوب"، انتحبوا في الشوارع.

ملأ نوريَّة القلق من أن يؤثّر موت الملك في مصير حِيِّيم، وانتظرت عودة أَدْوَر ويوسف لتسمع رأيهما. وهدأت قليلًا عندما سمعت أَدْوَر يقول ليوسف إنّ المملكة مستقرّة وأنّ وليّ العهد غازي سيُحسن إلى اليهود مثل أبيه، وسيعتبرهم أبناء الشعب العراقيّ مثل المسلمين والمسيحيّين فيه. وخلع السدارة في أثناء الحديث معه ووضعها على المائدة، وخلع نعليه والبدلة المكوّنة من ثلاث قطع – ملابس العمل الجديدة، التي كان يبدو فيها مثل مدير حسابات أوروبّيّ- ولبس الدشداشة، وفتح كتاب العهد القديم.

"علينا أن نستمرّ في الحفاظ على ولائنا للملك غازي كما فعلنا مع أبيه والصلاة من أجل استقرار العراق"، قال وبدأ بالتلاوة من الكتاب: "مثلما قال النبيّ إرمياء: "واطلبوا سلام المدينة التي سُبيتم إليها وصلّوا لأجلها إلى الربّ لأنّه بسلامها يكون لكم سلام" أترى، يا بنيّ؟ حتّى في أسفار الأنبياء مكتوب أنّه علينا أن نحافظ على الولاء للعراق". أحاط به بريق من الفخر على مقدرته على إظهار معرفته بالتوراة المكتوبة.

غير أن سعادته كانت قصيرة، لأنّ يوسف قال له إنّه خسارة أنّه لم يستمرّ في اقتباس أقوال النبي لسبايا بابل، لأنّ استنتاجاته كانت ستتغيّر بعدها. فبدأ في الاقتباس من سفر إرمياء بعينين مغمضتين: "عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردّكم إلى هذا الموضع، لأني عرفت الأفكار التي أنا مفتكر بها عنكم يقول الربّ أفكار سلام لا شر لأعطيكم آخرة ورجاء فتدعونني وتذهبون وتصلون إلي فأسمع لكم، وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكلّ قلبكم، فأوجد لكم يقول الربّ وأرد سبيكم وأجمعكم من كلّ الأمم ومن كل المواضع التي طردتكم إليها يقول الرب وأردكم إلى الموضع الذي سبيتكم منه". أنهى الاقتباس وفتح عينيه العسليّتين واستمرّ في حديثه: "يؤسفني يا أبي، لكنّ وطننا هو الأرض المقدّسة، ولقد أوفي الله وعده: سبعين سنة بعد شتات بابل عاد خمسون ألف رجل إلى القدس بعد إعلان كورش– لكنّ معظم أجدادنا قرّروا البقاء هنا لأنّ الوضع كان جيِّدا بالنسبة لهم من الناحية الاقتصاديّة". أشار أَدْوَر بيديه محاولًا نفي كلامه، لكنّ يوسف استمرّ في حديثه: "علينا التنازل عن قدور اللحم والعودة إلى أرض أجدادنا، لأن الأيّام السيّئة تنتظرنا لو بقينا في الشتات. انظر كيف ذبح العراقيّون الجدد الأشوريّين المسيحيّين قبل شهر، لأنّهم أرادوا هم أيضًا الاستقلال. يجب ألّا نغمض أعيننا إزاء الإشارات التي يرسلها لنا الله، سبحانه وتعالى"، قال لأبيه بعينين لامعتين.

تململ أَدْوَر بانزعاج في كرسيّه وسارع إلى تغيير الموضوع، أمّا نوريَّة فلم تستطع أن تفهم عمَّ يتحدّثان من اللحظة التي تحوّلا فيها من الحديث باللغة العربيّة إلى الحديث باللغة المقدّسة؛ لكنّها عندما سمعت كلام يوسف زاد قلقها مرّة أخرى.

كانت نوريَّة تَعُدّ الأيّام بنفاد صبر حتّى عودة حِيِّيم. وقامت بخطّ تسعين خطًّا على لوحة كبيرة في المطبخ ومحت خطًّا واحدًا مع انتهاء كلّ يوم. كانت تتجوّل أحيانًا في شوارع بغداد على أمل أن تلقى ابنها بين جنود الحرس العراقيّ الذين يحرسون المؤسّسات الحكوميّة، لكنّه لم يكن من بينهم للأسف الشديد. هي لم تعلم أنّ حِيِّيم لم يكن في بغداد نهائيًّا فقد أُرسل إلى خارج العاصمة منذ اليوم الأوّل لحراسة حدود العراق. وشعرت في أثناء تجوّلها في شوارع المدينة بالعداء الشديد تُجاه اليهود ممّن كانوا حولها حيث قام المارّة بسبهم والبصق عليهم. حتّى صور الوجه الشاب للملك غازي، الذي عُلّقت صوره في كلّ مكان بدلًا من

صور أبيه، كانت تنظر إليها بغضب.

وفي اليوم الذي كان من المقرّر أن ينهي فيه حِيِّيم خدمته العسكريّة استيقظت في الصباح الباكر، قبل صياح الديك في فناء البيت الأزرق، من أجل الاستعداد لاستقباله. عملت بمفردها بجدّ على إعداد الأطعمة المحبّبة إليه، في الوقت الذي ساعدها فيه يوسف وجارتها عزيزة على تنظيف وترتيب البيت استعدادًا للاحتفال. وبعد أن أنهت جميع الاستعدادات غطست في الماء الدافئ من أجل إزالة التوتّر والإرهاق اللذَيْن تراكما عليها. ارتدت بعدها ثوبًا أحمر عليه دوائر بيضاء، خاطته خصّيصا لهذه المناسبة، وسكبت على نفسها ماء الورد، ووضعت الكحل في عينيها، ووضعت على وجنتيها أحمر شفاه منحها لوينات من الأحمر. هي لم تعرف متى سيعود حِيِّيم بالضبط، لكنّها خمّنت أن يكون ذلك قبيل المساء. ولقد نغّص فرحتها تفكيرها في أنّ مئير لن يستطيع المشاركة، لأنّ عليه البقاء في المستشفى لاستكمال الفحوصات ومتابعة أداء قلبه، الذي أُضير منذ أن حمل رحمو الذبّاح. دعت نوريَّة إلى الاحتفال الكثير من أبناء الزقاق، ومن بينهم أفراد عائلتها أيضًا لأنّ عزيزة نجحت في إقناعها أنه لن تكون لديهم بهذه الطريقة ذريعة للحديث عنها بسوء. قالت لها حنيني إنّ أمّها أقنعت أباها بالحضور كما ستحضر عمّاتها مع أفراد عائلتهنّ. كان واضحًا للجميع أنّ خطبة حنيني لن تصبح بالأمر اليسير بعد أن فسخ حِيِّيم خطبتهما: فهي تُعد كالمطلّقة – حتّى وإن لم تتزوّج فعليًّا. فالعرسان الجيّدون لن يطرقوا بابها، وعرضت عليها الخاطبات أرامل مع أطفالهم، وشيوخ، ومرضى، ومعاقين، ومتخلّفين عقليًّا. أرادت أمّها هيلة إرسالها إلى خالَيْها في القدس ليزوّجوها هناك، لكنّ أباها رفض السماح لها بالسفر إلى مكان بعيد فيه يذبح العرب اليهود. لذلك كانت أمّها تدعو كّل يوم بأن يعيد الله حِيِّيم بسلام حتّى يصبح لابنتها زوجًا مناسبًا.

انتظر الضيوف على مقاعدهم عودة الجنديّ المسرح. وكانت رائحة لحم الخروف، الذي ذُبح خصّيصا لهذه المناسبة ووضع في صوانٍ كبيرة في وسط المائدة، تثير شهيّتهم، لكنّهم لم يجرؤا على الأكل قبل أن يظهر وجه عريس الحفل. مرّت ساعة وبدأ الأطفال يُظهرون علامات الجوع والضجر. وأثار بكاء الأطفال الرضّع الضيق حتّى لدى آبائهم، وكان هناك ضجيج عصبيّ بين الموائد. بَردَ الطعام وبدأ الذباب يغطيه ويزعج الجالسين لكن لم يجرؤ أحد على مدّ يده إلى الطعام. قام يعقوب أوّلًا من على المائدة وترك المكان في استعراض. ولم تساعد توسّلات هيلة هذه المرّة، ثمّ قام بعده كلّ من نعيمة ومريم، وأفراد عائلاتهما. وتوسّلت إليهم نوريَّة أن يبقوا ووعدتهم بأنّ حِيِّيم سوف يأتي في أيّ لحظة، لكنّهم تجاهلوها وظهر على وجوههم مزيج من الشماتة والازدراء لم يحاول أيّ منهم إخفائهما. وكانت حنيني هي الوحيدة التي بقيت منتظرة مع المدعوّوين.

في النهاية صعق الغضب أَدْوَر، عندما رأى الطعام الكثير الموجود على المائدة دون أن يقترب منه أحد، ومن فرط غضبه سحب المفرش وألقى بكلّ الطعام والأواني من الطاولة إلى الأرض. قفز الحاضرون من مقاعدهم وتركوا الفناء مع أولادهم فزعين. قامت حنيني نحو أَدْوَر، وكلّها غضب من تصرّفه المشين مع نوريَّة، وأرادت الدفاع عمّن كانت ستكون حماتها، لكنّ نوريَّة وقفت أمامها وأوقفتها. دخل أَدْوَر حجرته وأغلق الباب خلفه بقوّة. كان عزاؤها أنّ مئير بقي في المستشفى، لأنّه كان سينفعل من تصرّف أبيه ومن يدري كيف كان سيؤثر ذلك في قلبه المريض.

"الطعام ليس مهمًا؛ المهمّ الآن هو معرفة لماذا لم يعُد حِيِّيم"، قالت بألم وحاولت تهدئة حنيني. لكنّ حنيني رفضت أن تعزّيها بهذه الكلمات وانفجرت بالبكاء المرير، حتّى بدا أنّها على وشك الاختناق.

وفقط بعد أن نجحت في تهدئة حنيني وإعادة روحها إليها، طلبت نوريَّة من يوسف أن يصحب ابنة خاله إلى بيتها، في الوقت الذي استغلّت فيه هي نفسها الهدوء الذي ساد البيت لتلقي الطعام الملقى على الأرض مع الأطباق والأكواب المهشمة في صندوق القمامة. وعندما عاد يوسف، ساعدها في تنظيف الفناء وإعادة الموائد والكراسي إلى أماكنها. وكان وجههما طوال الوقت متجه نحو الباب، على أمل أن يظهر حِيِّيم فجأة

ويقف عند مدخل الباب وابتسامة الفرح على وجهه.

بقيت نوريَّة مستيقظة طوال الليل. "ربّما يعود في الصباح"، حاولت تهدئة نفسها. ومع بزوغ أوّل شعاع ضوء في النهار قامت من فراشها وفتحت الباب، على أمل أن يكون منتظرًا في الخارج كي لا يوقظ أهل البيت. تفحّصت عيناها كلّ أركان الفناء وكذلك الزقاق، لكنّها لم تجد أيّ علامة على وصوله. لم يمنحها الخوف الراحة للحظة، وسارت ذهابًا وإيابًا في كلّ حجرات البيت، تفكّر في كل الناس الذين عرفتهم، ولو معرفة سطحيّة، لكن لم يخطر ببالها أيّ شخص يمكنها مشاورته. لم يكن التجنيد إجباريًّا، لذلك لم يُجنّد أيّ من محيطها في الجيش سوى ابنها حِيِّيم. ولكون زيزي في رحلة حفلات مع زوجها في لبنان، فقد اضطرّت مرغمة إلى أن تطلب من أدْوَر أن يذهب معها إلى مركز التجنيد– لكنّها أسفت على الفور على ذلك؛ فقد صرخ فيها مع تلويحة يده التي تعرفها، قائلًا لها:

"من تظنّين نفسك؟ إنّ حكومة العراق المستقلّة مشغولة بالحرب ضدّ المتمرّدين عليها – أتعتقدين أنّ لديهم وقت من أجلك؟"

"ألا يعنيك ما الذي قد يكون حدث لحِيِّيم؟ إنّه ابنك! أين قلبك؟" قالت غاضبة منه، لكنّه تجاهلها.

"أين أنتِ يا زيزي، عندما أكون بحاجة إليك؟" قالت في نفسها.

أمضت الليلة التالية أيضًا بجوار فراش حِيِّيم اليتيم. ولم تستطع النوم من شدّة الخوف والتفكير. واستطاعت قبيل الصباح فقط أن تغفو قليلًا. ومع بزوغ الفجر عندما أيقظها صياح الديك من فناء مريم، قرّرت مع ذلك الذهاب إلى مكتب التجنيد – حتّى وإن قامت بذلك وحدها. فهي معتادة على القيام بكلّ شيء بنفسها! فانتظرت حتّى يخرج أدْوَر من البيت مع يوسف وسارعت بارتداء العباءة، وغطّت وجهها بپوشي، وتوجّهت إلى مكتب التجنيد، وهي تردّد ما تودّ أن تقوله وكيف ستجيب عن الأسئلة التي ستوجّه إليها بالطبع.

رفض الجنديّ الواقف عند مدخل المركز السماح لها بالدخول ومقابلة القائد، على الرغم من أنّها وعدته بأنّها لن تزعجه وستسأله سؤالًا واحدًا فقط. توسّلت وكانت على استعداد لتقبيل يده وقدمه إن طلب ذلك.

"لا دخول لليهود النتنون! اغربي عن هنا ولا تعودي! أنتِ تلوّثين الجوّ"، صرخ الجنديّ وأغلق الباب، ثمّ ذهب بعدها ليغسل يده ووجهه خشية أن تكون نجاسة اليهوديّة قد التصقت به.

شُحب وجهها خجلًا، وحرقت المهانة قلبها، وأضعفها التعب والإحباط والخوف على مصير ابنها، واستطاعت العودة إلى بيتها بصعوبة. لقد كان كلّ انتباهها مُنصبًّا على حِيِّيم لدرجة أنّها تكاد تكون نسيت مرض مئير. وطلبت على مدى أسبوع كامل مشورة الحاخامات المتصوّفين في يشيبات (المدرسة الدينيّة) زلخة، حتّى أنّها زارت قبر إسحاق ألگاؤون في وسط سوق حِنُّونِي، وتضرّعت إليه أن يرسل إليها علامات بخصوص مكان ابنها. أشارت عليها حنيني بالذهاب معها إلى رئيس الطائفة، وانتظرت معها ساعات طويلة في مكتب الحاخام ساسون خضوري، لكنّ الحاخام لم يكن لديه وقت لمقابلتها. واضطرّت إلى العودة إلى البيت خالية الوفاض. وعندما أخبرت نوريَّة عزيزة بخيبة أملها في الحاخام، شجّعتها جارتها على الذهاب إلى □يكتوريا ابنة الحاخام.

"يقولون عنها أنّها امرأة قويّة وواسعة الاطلاع. ومنذ وفاة أمّها والحاخام معتاد على التشاور معها. لقد أنجبت ابني فريدًا عندما ولدتها أمّها. من المفترض أن تبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا على الأقلّ، لكنّها ما زالت عزباء. طيّبة القلب جدًّا، وتساعد الجميع، خاصّة الفقراء والأيتام. أنّها تذكّرني بك بعض الشيء. أنا واثقة أنّها ستساعدك في العثور على حِيِّيم"، غرست الأمل في قلبها، وخرجت نوريَّة ثانية في طريقها إلى بيت الحاخام؛ لكنّ خيبة أملها كانت كبيرة عندما أخبرها حارس البيت أن □يكتوريا سافرت إلى البصرة وستعود بعد أسبوعين.

اشتعلت يداها من تيّارات الحرارة الداخليّة، ما فسّرته على أنّ حِيِّيم في ضائقة، وتجمّع في قلبها حزن مكبوت –لأنّه لم يبدُ لها أنّ أحدًا يبالي بمصير حِيِّيم سواها، حتّى أبوه أَدْوَر. فقرّرت مرغمة العودة إلى مركز التجنيد- حتّى إذا اضطرّت إلى مواجهة الحارس المسلم – ليكون أحد الضبّاط مستعدًّا للحديث معها. نظرت إلى المركز من بعيد فترة طويلة في انتظار اللحظة التي يترك فيها الجنديّ ورديّته، لمحاولة التسلّل إلى داخل المركز. وبالفعل وفي وقت الظهيرة قام وابتعد عن الموقع، ولحُسن حظّها ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه. استغلّت نوريَّة الفرصة السانحة وتسلّلت بخطوات سريعة إلى داخل المركز. خفضت رأسها وسحبت البوشي على وجهها خشية أن تقابل الحارس، وسارت على طول الردهة. عندما وصلت إلى نهايتها تجرّأت على سؤال الحارس الذي وقف على باب إحدى الحجرات بلهجة العرب المسلمين، أين القائد المسؤول. أشار إليها الحارس إلى أحد الأبواب. أعطته نوريَّة قطعة نقد فضية، وأدخلها بسرور إلى الحجرة الكبيرة، التي سطعت فيها صورة الملك غازي بالزيّ العسكريّ، وجلس في نهايتها خلف مكتب كبير ضابط بشارب ونظر إليها في دهشة. ركعت نوريَّة على ركبتيها وقبلت يديه ووضعت فيهما بعض المال.

"كيف أستطيع أن أساعدك؟" سأل.

أخبرته نوريَّة بصوت مرتعش أنّ ابنها أنهى شهور التطوّع من أجل العراق لكنّه لم يعُد بعد.

أراد معرفة اسمه وتاريخ تجنيده. وما إن أخبرته بالبيانات نظر في سجل كبير كان موضوعًا أمامه على المكتب، وبعد عدّة دقائق وجد اسم حِيِّيم.

"هو موجود على الحدود الإيرانيّة"، قال.

"سيّدي الضابط، لماذا لم يعُد بعد ثلاثة شهور؟" سألت.

"هو يدافع عن الوطن من أعدائه"، أجاب غير راغب في إكمال الحوار معها.

"متى سيعود؟" سألت بخوف.

نظر إليها الضابط، لكنّ عينيه ذهبت إلى السلسة الذهبية في عنقها. فأسرعت بخلع السلسلة والقرطين ووضعتها في يديه.

"أنا أعتمد عليك أن تحرص على أن يعود"، قالت في انتظار ردّ منه.

لم يجب لكنّه نادى مساعده، ووضع ورقة في يديه وأمره بالحرص على تسريح الجنديّ المذكور اسمه في الورقة، لأنّه قد أنهى فترة تطوّعه. تناولت نوريَّة يده وقبلتها.

بغداد، 1934

.15

فوجئت نوريَّة من منظر الرجل المتّسخ الذي دخل بيتها في وسط النهار. كان يرتدي ملابس بالية أكبر من مقاسه ومربوطة بحبل على جسده النحيف، وغطّت وجهه لحية كثيفة غير مهذّبة وبرزت عظام وجنتيه، وكانت عيونه غائرة في محاجرها، ولم يتوقّف عن السعال في منديل أمسكه بيديه.

اعتقدت في البداية أنّه رجل سكّير ضالّ.

"من أنت؟ ماذا تريد؟" سألت بخوف ووضعت يدها على أنفها كي لا تشم الرائحة الكريهة التي انبعثت منه.

"ماما، هذا أنا، حِيِّيم. أنسيتني؟" قال مندهشًا بصوت واهن.

"حِيِّيم!" صرخت. شعرت بدوار وكادت أن تسقط، لكنّها استفاقت، وعانقته بحرارة، وفي أثناء سحبه إلى داخل البيت قالت: "يا زهرتي، ماذا فعلوا بك؟".

نظر حوله كما لو كان نظره مشوشًا وفجأة انهار وسقط. سقط المنديل من يديه ورأت نوريَّة أنّه ملطّخ بالدم. خرجت من البيت وصرخت إلى جيرانها بأن يستدعوا الطبيب على وجه السرعة، ثمّ عادت إلى الداخل، ورشت الماء على وجهه وطلبت من نِسيم، زوج عزيزة الذي هبّ لنجدتها أن يساعدها في حمل حِيِّيم من على الأرض ووضعه على الأريكة في حجرة الضيوف. بعدها سكبت عليه العطر وتوسّلت:

"حِيِّيم، استيقظ! يا ربّ، ساعد ابني!".

اجتمع الكثير من الجيران حوله، لكنّها لم تستطع مشاهدة أحد من أبناء عائلتها. وصل الطبيب الذي تمّ استدعاؤه خلال فترة قصيرة، وبعد أن شقّ طريقه بين الفضوليّين المجتمعين، فحص المنديل الملوث بالدماء، وفتح فم حِيِّيم، وفحص رئتيه وقال:

"لقد أصيب بالسلّ".

طلبت نوريَّة من الطبيب أن يشرح لها معنى ذلك، وما هو ذلك المرض، لكن الطبيب القلق تجاهلها وأمر بنقل حِيِّيم على وجه السرعة إلى مستشفى "المجيديّة" الحكوميّ.

كانت حجرة الانتظار خالية من الزائرين ودخل حِيِّيم على وجه السرعة إلى حجرة العلاج، دخل الأطبّاء والممرّضات إلى الحجرة مغطّون من أقدامهم وحتّى رؤوسهم بالنايلون الشفاف، وفمهم مغطًّى بغطاء أبيض. لم يتفرّغ أيّ منهم ليشرح لها ما هي حالة ابنها. سمعت أحد الأطبّاء يقول للممرّضة، إنّه يجب الحرص على عزله وعدم الدخول إلى حجرته من دون الملابس الخاصّة لذلك.

استدعى الجار نِسيم أَدْوَر من محلّ عمله، فجاء مسرعًا إلى المستشفى ومرّ بجوارها.

"قال الطبيب إنّه مريض بالسلّ. أتعلم ماذا يعني ذلك؟ لم يخبروني ماذا به. أخذوه إلى المستشفى على وجه السرعة"، قالت وحاولت جذبه للحديث معه.

تجاهلها أَدْوَر وذهب مباشرة إلى حجرة الأطبّاء لاستيضاح حالة حِيِّيم. عاد إلى حجرة الانتظار بعد حوالي ربع ساعة وجلس على المقعد مطأطأ رأسه وعيناه دامعتان. هي لم ترَ أَدْوَر يبكي أبدًا. كانت عيناه جافّتين وفارغتين حتّى عندما مات والداه قبل عدّة سنوات. هي فقط التي بكت عليهما على الرغم من إهاناتهما. وفجأة ضرب قدميه بقبضة يده.

"ماذا أصاب حِيِّيم؟ ماذا قال لك الأطبّاء؟ لماذا تبكي؟ لماذا يخرج الدم من فمه؟" توسّلت إليه، لكنّه تجاهلها، وقام من مكانه وصرخ: "لقد فات الأوان. كيف أستطيع مواجهة ربّي يوم وفاتي، والدفاع عن نفسي؟"

"ما قصدك بهذا؟ ماذا تقصد بيا ربّ؟ ماذا عن بكلمات الدفاع عن نفسك؟ اشرح لي"، توسّلت إليه، لكنّه أدار لها ظهره واستمرّ في رفع قبضته بعصبيّة من شدّة الغضب من نفسه. قام من مكانه ليذهب ليصلي في الكنيس، وطلب العفو من الله على تصرّفاته مع أبنائه أيضًا.

"لماذا تذهب الآن؟" سألته، "وماذا عن حِيِّيم؟" لكنّه تجاهلها كعادته وغادر المستشفى.

نفد صبر نوريَّة، وذهبت إلى الممرّضة وتوسّلت إليها أن تُدخِلها إلى غرفة حِيِّيم. ولدهشتها، استجابت الممرّضة لطلبها، وبعد أن غطّت جسمها بالنايلون ووضعت غطاءً من القماش على فمها، سمحت لها بالدخول.

كان السرير الذي تمدّد عليه حِيِّيم بلا حول ولا قوّة، الوحيد في الحجرة. وكان شعر رأسه وذقنه قد حُلِق، وفاحت رائحة صابون زيت الزيتون من جسده. وأبرزت ملابسه النظيفة والفضفاضة قلّة وزنه. كانت بشرته شاحبة كالجير، وكانت عيناه الخضراوان مستقرّتين في محاجرهما. لم تستطع أن تجد في الفتى الممدّد على الفراش أيّ شيء يذكّرها بابنها، مثلما كان قبل أربعة شهور.

"ماذا صنعوا بك؟" أرادت الصراخ والنحيب – لكنّها بدلًا من ذلك اقتربت منه وعانقته وحاولت إزالة الغطاء من على فمها لتقبيله؛ لكنّ حِيِّيم أشار إليها بألّا تلمسه.

"لا تقتربي منّي يا أمي. هذا خطير. من الممكن أن أنقل العدوى إليك"، قال بخوف.

"أنا "بدالك" أنا فداؤك. ماذا بك؟ أنت نظيف ولامع؟ أيّ عدوىً تنقل إليّ؟" سألته بسذاجة.

سعل حِيِّيم بشدّة. أدار وجهه وبصق داخل المنديل. آلمه صدره وتأوّه بهدوء. اقتربت نوريَّة منه وأرادت أن تربّت على صدره. وسألته ما الذي يؤلمه بالضبط على أمل أن تنجح في علاجه بقواها الخاصّة. بالتدريج، وبهمس، وهو يتوقّف من حين لآخر للاستراحة، بدأ في إخبارها ماذا حدث له:

"أرسلونا لقمع التمرّد ضدّ العراق... ولم أستطع فهم إلى أيّ درجة قد يكون الإنسان قاسيًّا... الذين يعيشون في نفس الأرض... بجوار بعضهم، وأنا... الذي اعتقدت أنّه لا فرق بين اليهود والمسلمين وبين الأكراد والعرب وأنّنا جميعًا أبناء العراق... أبناء دجلة والفرات ... اكتشفت أنّنا نحن اليهود لن نكون أبدًا... أبدًا مساوين لهم... لأنّهم سينظرون إلينا دائمًا من أعلى ... إلى من هو مختلف عنهم"، قال كلماته بألم شديد.

لم يكن الانكسار الذي حلّ بابنها بعد التغيّرات التي طرأت على العراق بعد نيله استقلاله من أولويّاتها، وأرادت معرفة حالته ومتى سيشفى. "لكن ممّا مرضت؟" سألت مرّة أخرى، فأخبرها وهو يتنفّس بصعوبة، أنّ الجنود في المعسكر الذي خدم فيه كانوا يأكِلُون الطعام بأيديهم من نفس الصينية نفسها. كان طعام لا مذاق له، وكان يقلّ مع الوقت، لعدم وصول الإمدادات وكذلك الجنود لاستبدالهم. كانت الأواني تُغسل بالأيدي لا بالصابون؛ ولم تكن لديهم ملابس ليبدّلوها. وكانوا يستحمّون بصعوبة؛ حتّى سكن القمل رؤوسهم. وفي الليل كان الجوّ باردًا جدًّا ولم يكن لديهم ما يتغطّون به، لذلك ناموا بجوار بعضهم متلاصقين.

تلوّى ألمًا عندما حكى عن الموتى الذين اضطرّ إلى دفنهم بيديه، ولقد أخافت الصرخات الغريبة التي صدرت من حلقه الممرّضة. دخل الطبيب، وطلب من نوريَّة الخروج من الحجرة. توسّلت إليهم أن يسمحوا لها بالبقاء مع ابنها، لكنّ الطبيب أوضح لها أنّ في ذلك خطرًا على صحّتها لذلك عليها الخروج.

عندما خرجت بحثت عن أدْوَر في ردهات المستشفى، لكنّه لم يكن قد عاد بعدُ. طلبت منها الممرضة أن تذهب إلى البيت، لأنّ حِيِّيم قد أخذ حقنة تخدير الآن وسينام بالتأكيد حتّى صباح الغد. لكن إلى أين تذهب لتحصل على تفسير لحالته؟ يائسة وبلا حول ولا قوّة ذهبت إلى الممرّضة ثانية، التي أوضحت لها أنّ الطبيب فقط هو المخوّل بتقديم الإجابات، لكنّه مشغول الآن ولا تعلم متى سيتسنّى لها الحديث إليه. في النهاية خرجت من المستشفى في ساعة متأخّرة من الليل وتوجّهت إلى بيت زيزي عسى أن تكون صديقتها قد عادت من جولة حفلاتها في لبنان. فرحت حين بشّرها الحارس أنّ زيزي قد عادت من رحلتها؛ وعندما لاحظ ملامح وجهها الفزعة سارع إلى إخبار صاحبة البيت بالزيارة الليليّة. استيقظت زيزي من نومها وأسرعت إليها والقلق يتملّكها.

"عاد ابني حِيِّيم من الجيش وهو مريض بالسلّ، ولا أحد مستعدّ لإخباري عن هذا لمرض، وإلى أيّ درجة حالته خطيرة"، اشتكت لها بضعف. "أنا أحتاج إلى عونك!".

"في أيّ مستشفًى يرقد؟" سألت.

"نقلوه إلى مستشفى "المجيديّة"، أجابت نوريَّة.

لماذا أرسلوه إلى هناك، وليس للمستشفى اليهوديّ "مئير إلياس"؟ هذا المستشفى قديم وغير متطوّر. سأحرص على نقله إلى هناك وسيحصل على أفضل رعاية"، قالت زيزي بحزم.

لم تتردّد لحظة وارتدت سريعًا أحد فساتينها الفاخرة. وشربت شربة واحدة من كوب القهوة الذي أعدّه الحارس ونادت السائق ليأخذهما إلى المستشفى. لم يصدّق الطبيب المناوب ما تراه عيناه عندما تعرّف إلى زيزي، واستدعى على الفور مدير المستشفى لاستقبالها. أخرجت من حقيبتها سيجارة رفيعة، فأخرج مدير المستشفى سريعًا ولّاعة فخمة وأشعلها لها منفعلًا.

"إنّه لشرف لنا أن نستضيفك. لقد أنرت المستشفى بوجودك"، قال وهو منفعلٌ للغاية.

"شكرًا"، قالت.

"ما سبب التشريف؟" سأل.

"جئت للاستعلام عن حالة مريض عندكم باسم حِيِّيم أَدْوَر موشيه. فعائلته عزيزة على قلبي"، قالت وابتسمت، لنوريَّة.

أرسل المدير الممرّضة الرئيسية لإحضار ملفّ حِيِّيم. وعندما قدّمته له، تصفّح الأوراق بتركيز، ورفع نظره وقال بصوت بائس:

"لقد أصيب بالسلّ بسبب ظروف معيشيّة متردّية، البرد وعدم الحرص على النظافة. تفشّى المرض في الرئتين وليس هناك... يمكن فقط التخفيف عنه"، قال.

"ليس هناك ماذا؟" سألت نوريَّة بخوف.

"بماذا يمكن التخفيف عنه؟" سألت زيزي وجذبت إليها انتباه الطبيب، كي لا يجيب عن أسئلة نوريَّة.

"يمكن إرساله إلى مصحّة في لبنان، فالجوّ هناك في الجبال المرتفعة سيساعده في التنفس بشكل أفضل ويخفّف من آلامه، لكن ذلك سيكلّف أموالًا طائلة"، قال المدير.

"سأكون ممتنّة إذا حدّدت الترتيبات لنقله على الفور، وسجّل لي التكاليف"، قالت زيزي من دون أن تتشاور مع نوريَّة.

يجب استصدار جواز سفر له وتصريح مرور. تعلمين كم من الصعب الآن الخروج والدخول"، قال.

"لا داعي للقلق سأرتّب ذلك مع أصدقائي في الحكومة"، قالت وخرجت من غرفته، ونوريَّة تتبعها.

"زيزي، لم أفهم ماذا قال. هل سيشفى حِيِّيم؟" سألت نوريَّة.

"بعون الله. ليست هناك حاجة إلى نقله إلى مستشفى آخر، لأنّنا سنرسله إلى لبنان خلال عدّة أيّام"، أجابتها.

قبّلت نوريَّة يدي زيزي، لكنّها سحبتهما منها، ثمّ عانقتها طويلًا. استيقظ حِيِّيم من نومه، وسمح الطبيب لنوريَّة بمقابلته وإخباره بأنّهم سينقلونه قريبًا إلى لبنان. تعجّبت عندما تلقى الخبر بلامبالاة من دون أن يجادلها.

أشرق نور الصباح، ولم تتوقّف نوريَّة طوال الطريق إلى البيت عن التفكير في حِيِّيم ومئير. حاولت فهم ما العمل السيّئ الذي اقترفاه ليعاقبهما الله عليه. انتظرتها حنيني عند مدخل البيت، وهي ترتجف كلّها، وأرادت الاطمئنان على حِيِّيم وماذا قال الأطبّاء.

"ساعديني، يا عمّة. لم أستطع النوم طوال الليل. لا أعرف ماذا أصنع. لا أحد يخبرني بما حدث. أمّي تخاف من أبي، وتشعر بعزلة كبيرة. وأبي لم يتوقّف منذ الصباح عن إخبار كلّ شخص كيف استطاع إنقاذي من الزواج من "نصف إنسان". سمعته يتحدّث مع عمّتي مريم، واتّفقا في ما بينهما على أن يزوجاني من ابنها، فؤاد. أعتقد أنّ الموت أفضل لي من الزواج من هذا الأحمق، المصاب بالصرع، حتّى إنّه لا يعرف كتابة اسمه"، قالت بعينين تملؤهما الدموع.

"أعلم الآن أين كانت عائلتي عندما طلبت المساعدة"، تمتمت نوريَّة بمرارة. "إن يديَّ مكبّلتان يا ابنتي. ولا أستطيع مساعدتك. إنّ من كان يستطيع مساعدتك راقد في المستشفى مع رئتين متألّمتين ملؤهما الدم. اذهبي إليه. تحدّثي معه وشجّعيه على الحياة لينقذك من الأوغاد"، أجابتها نوريَّة بقلب حزين.

لم تعرف حنيني كيف تذهب إلى المستشفى، لأنّها لم تجتز أبدًا حدود الحيّ اليهوديّ. كما أنّها لم تتصوّر أنّها ستخرج أبدًا من الحيّ من دون رجل يرافقها، لذلك قالت لأمّها إنّها ذاهبة لمقابلة مدرّستها راحيل في أتيليه حكولي، وأخذت معها كرّاسة العاشقين التي تخصّها هي وحِيِّيم. سعدت أمّها بذلك، لأنّها توقّفت عن الدراسة منذ أن ألغيت خطبتها وحبست نفسها في البيت. عندما دخلت المدرسة، فرحت صديقاتها بقدومها واعتقدن أنّها قد عادت لاستكمال خياطة فستان زفافها: لكنّها ذهبت إلى راحيل مباشرة، وأخبرتها عن حِيِّيم وطلبت منها مساعدتها في الذهاب إلى المستشفى. أسرعت راحيل وأمرت ابنها وزوجته بمرافقة حنيني إلى المستشفى المجاور لحيّ المسلمين ا "باب المعظم"، وبعد وقت قصير كانت تسير بخوف في الردهات الطويلة. قالت لها نوريَّة أن تسأل عن مرضى السلّ، لكن اختلط كلّ شيء في رأسها، ولم تنجح في العثور على الغرفة التي يوجد فيها حِيِّيم، ولم تكن حتّى واثقة أنّها فهمت معنى المرض – السلّ. مرّت بها ممرّضة، فسألتها:

"أين يرقد المرضى الذين يخرجون الدم من الرئتين؟".

نظرت إليها الممرّضة نظرة غريبة، لم تفهم حنيني مغزاها، ووجهتها إلى القسم الداخليّ في نهاية الردهة. هناك قابلت ممرّضة أخرى وسألتها:

"عفوًا، هل هذا قسم المرضى الذين يخرجون الدم من رئاتهم؟"

"ليس قسمًا. فقط مريض واحد، الحمد لله"، أجابت الممرّضة.

أخبرتها حنيني أنّها خطيبة هذا المريض الواحد، فنظرت إليها الممرّضة بعطف، وغطّتها بالنايلون،

ووضعت غطاء على فمها.

فجأة تملّكتها رجفة قويّة وخافت أن تفقد الوعي عندما ترى حِيِّيم. لم تعلم ماذا تقول له وحاولت أن تصيغ العبارات في رأسها، لكن أيًّا منها لم تبدُ لها مناسبة لهذه الظروف. قبل أن تنجح في ترتيب أفكارها وجدت نفسها تقف أمامه، وانطلقت منها صرخة مكتومة عندما رأت جسمه النحيل.

"ماذا أصابك؟" سألت؛ وعندما لم يجبها، استمرّت: "لماذا أنت نحيل إلى هذا الحدّ؟"

غطّى حِيِّيم المُتفاجئ وجهه. "لا تنظري إليّ. اذهبي من هنا"، همس في محاولة أن يجعلها تتذكّره مثلما كان من قبل.

"لا تغضب منّي. أنا أطلب منك الصفح على الكلمات التي قلتها لك. ليتني أنا التي كنت أرقد في المستشفى بدلًا منك!" قالت باكية.

"أستحلفك بحياتك أن تتوقّفي عن البكاء"، توسّل إليها حِيِّيم، "إنّ هذا يؤلمني".

"أحتاج إلى مساعدتك. يجب أن تشفى وتعود كما كنت. أنا لا أعرف كيف يمكنني العيش من دونك والزواج من شخص آخر"، توسّلت بصوت متكسّر.

"سأسافر إلى لبنان. جهّزت أمي أوراق سفري، ولا أعلم متى سأعود"، همس وهو يغطّي وجهه بالملاءة البيضاء.

"سأنتظرك – حتّى وإن قتلني أبي. لن أوافق على أن يزوّجني من شخص آخر"، قالت بحزم وطلبت منه أن يريها وجهه.

اخترقت كلماتها قلبه، وتلوّى من الألم. ماذا سيقول لها؟ "انظري إلي. أنا لم أعد ذلك الفتى الوسيم الذي عرفته. لا تنتظريني، فلا داعي لذلك. ألا تدركين أنّني سأموت؟" لكنّ الحنجرة التي قالت بصرامة "أنت طالق" اختنقت هذه المرّة، ولم تستطع قول شيء. تمنّت أن تسمعه يقول إنّه سيعود؛ وأملت أن يقول "أحبّك، انتظريني حتّى أعود". لكنّ شفتيه بقيتا مضمومتين، وكان وجهه لا يزال مخبَّأ تحت الملاءة. أمسكت كرّاسة العاشقين بيدها وتوسّلت إليه مرّة أخرى أن يزيح الغطاء لتستطيع أن تنظر في عينيه. بصقت رئتاه الدماء، والذي استطاع قوله كان تأوُّها من الألم. دخلت الممرّضة الغرفة وطلبت منها الخروج. وضعت حنيني الكرّاسة على السرير وخرجت من الغرفة بعينين دامعتين.

.16

أثار الوجه المألوف للمرأة المشرقة انفعالًا كبير في المستشفى حتّى بين الممرّضات العبوسات اللواتي كنّ يرعين حِيِّيم. لم يفهم من هي المرأة التي تقف أمامه بقناع غطّى وجهها. وعندما قدّمت نفسها باسم زيزي، نظر في وجهها وتذكّر المطربة الشهيرة، واندهش أنّه من بين كلّ غرف المستشفى اختارت زيارة غرفة شابّ يهوديّ مريض بمرض مُعدٍ. طلب مدير المستشفى من الممرّضات الخروج من الغرفة وتركهما بمفردهما.

استغرب حِيِّيم حين توجّهت إليه المطربة الموقّرة باسمه وقالت له بعذوبة، أنّها أنهت ترتيبات سفره إلى لبنان، وإنّ مدير المستشفى اختار له أفضل مصحّة على الجبال أعلى بيروت. وضعت في يده جواز سفر، فيه صورته بهويّة فتًى مسلم يبلغ من العمر التاسعة عشر اسمه نوري عبد الرحمن، وطلبت منه أن يتصرّف على أساس الاسم الوارد في جواز السفر وأن يتصرّف كمسلم.

"قدِّم نفسك أمام كلّ من يعالجك على أنّك ابن عمّي، وأرسل رسائلك إليّ على هذا العنوان"، قالت وهي تعطيه ورقة عليها العنوان الذي سيرسل الخطابات إليه. "تذكّر ألّا تعبّر عن مواقف سياسيّة ولا تذكر أيًّا من أفراد عائلتك في الخطاب"، واصلت توجيهاتها.

"لماذا؟" سأل مشوَّشا، وهو مازال غير مستوعب لوجود المطربة في حجرته.

"الشرطة السرّيّة العراقيّة تقرأ كلّ خطاب يصل من خارج الدولة، وكان عليّ أن أختلق لك هويّة أخرى كي يصبح من السهل إخراجك من العراق"، همست في أذنه.

"لماذا تساعديني؟" أوضح سؤاله في تشكّك وتردّد.

"كلّ هذا بسبب أفضال أمّك الكثيرة التي صنعتها وتصنعها من أجلي"، أجابت.

"نوريَّة، أمّي؟" سأل بدهشة، وتعجّب من السماع عن علاقتها بأمّه.

"نعم، نوريَّة. لم يبق أمامنا وقت كاف. فبعد عدّة دقائق سيجهّزك الطاقم الطبّيّ للسفر، خارج المستشفى ينتظرك سائق سيّارة أجرة سينقلك إلى دمشق وسيكون مسؤولًا عن إكمال رحلتك إلى بيروت"، قالت وهي تحثّه.

"أين أمّي؟" فزع من العجلة في كلامها.

"أنا متأسّفة، لم يسعفني الوقت لإخبارها. لقد جئت مباشرة من مكتب الوزير، الذي جهّز لي تصاريح سفرك. سوف أخبرها عندما أخرج من هنا. لقد دُفعت جميع نفقات سفرك، وعندما تصل إلى لبنان سوف يهتمّ مدير المصحّة بكل احتياجاتك". ابتسمت له بدفء كبير، ووعدته بأنّها ستغنّي في زفافه عندما يشفى.

لم تعلم نوريَّة كيف تخبر أَدْوَر بسفر حِيِّيم. لقد كانت فزعة ومتوتّرة؛ لكن عندما توجه أَدْوَر نحو الباب وقال إنه ذاهب لزيارة حِيِّيم، لم يبق أمامها خيار، واضطرّت إلى الإسراع إليه وبصوت متردد أخبرته بأنّ حِيِّيم سافر إلى لبنان. احمرّ وجهه دفعة واحدة، وبدأ يضرب الطاولة والكراسي في طريقه بغضب شديد.

"ماذا أكون في هذا البيت، طَوطَو (أحمق)؟ منذ متى والنساء هي التي تقرّر؟ من أنت لتقرّري ما الذي يجب عمله؟". صرخ، وشعرت نوريَّة بخجل شديد من أنّ جيرانها وأفراد عائلتها يسمعون ثانية الصراخ القادم من بيتها. لقد أرادت أن تخبره بأنه لم يكن يهمّه أبدًا ما يحدث لمئير وحِيِّيم، وأنّه كان يتصرّف معهما كالأغراب، لكنّها قرّرت الصمت. "لا، هذا ليس الوقت المناسب للمحاسبة، كما أنّه لا يجب أن نكون على ألسنة النمّامين"، قالت في نفسها.

"هذا يكلف كثيرًا من المال. من سيدفع هذه النفقات؟" عاد وانفجر، واحمرّ وجهه ثانية من الغضب عندما أشارت إلى نفسها بتردّد.

"اعلمي أنّ مالك الملعون والحرام – هو الذي جلب الحظّ السيّئ إلى هذا البيت"، استمرّ في صراخه. دخل بعدها إلى حجرته لقراءة التوراة.

وصل أوّل خطاب من حِيِّيم بعد أسبوعين من سفره. افتتحه بتوجيه الشكر لزيزي وأخبرها أنّ البروفسور خوري مدير المصحّة يبذل كلّ ما بوسعه لمساعدته، ثمّ وصف بعدها مطوّلًا جمال جبال لبنان التي يطلّ عليها من حجرته، وأخبرها بأن تبلغ محبّيه أن هواء لبنان يحسّن من حالته ويجعله يتنفّس بشكل أفضل. وبعد عدّة شهور سيأتي فصل الربيع وسيستطيع التنزّه على كورنيش بيروت الشهير. قرأت زيزي الخطاب لنوريَّة التي قبّلته واشتمّت فيه رائحة حِيِّيم. أعطتها زيزي صندوقًا خشبيًّا صغيرًا وطلبت منها ألّا تأخذ الخطاب معها، وأنّ عليها الاحتفاظ به في الصندوق مع الخطابات التالية التي ستصل وإبقاؤها لديها في البيت.

ومنذ ذلك الوقت ونوريَّة تنتظر بشوق كبير أكثر من الماضي لقاءاتها بزيزي كلّ خميس، وكانت تتأثّر في كلّ مرّة عندما كانت تلوّح لها زيزي بخطاب آخر وصل من ابنها. وبالفعل، كان يصل مرّة كلّ أسبوعين خطاب منه مع السائقين الذين عملوا على خطّ دمشق-بغداد؛ وعندما كانت زيزي تقرأ الخطابات لنوريَّة كانت تشعر كيف أنّ روحها تنتقل من مكانها وتتنزّه مع ابنها في الأماكن التي تصفها زيزي وتكون معه ومع أصدقائه في المصحّة. فها هي مع إبراهيم السريانيّ، المقيم في الحجرة المجاورة لحِيِّيم، الذي كان يجلس دائمًا وحده ولم يتحدّث مع أحد من المحيطين به، ومثل حِيِّيم أرادت أن تجعله يُفضي بما في قلبه لها لتعلم لماذا هو وحيد وحزين. كما أرادت معانقة ميري الممرّضة، التي أكثر حِيِّيم في وصفها في خطاباته –حتّى وإن كانت تشعر أحيانًا بالانزعاج من إطرائه الشديد على جمالها وطيبة قلبها.

...انحبست أنفاسي عندما قابلتها أوّل مرّة. لم أشاهد مثل هذا الجمال من قبل. عيناها زرقاوان، شعرها طويل وغزير، قوامها نحيف وطويل. سألتها ماذا تفعل فتاة شابّة وجميلة مثلها مع المرضى، أخبرتني أنّ أباها مات بالسلّ عندما كانت في العاشرة من عمرها، وبعد أن هاجرت أمّها إلى فرنسا مع زوجها الثاني، انتقلت للعيش مع خالها، مدير المصحّة الذي عاملها كابنته. أنا محظوظ للغاية لأنّها ترعاني – وليست عجوز شمطاء كما كان في مستشفى "المجيديّة". أبدأ يومي بابتسامتها الملائكيّة، وأخلد للنوم عندما تعطيني الحقنة المهدّئة، كي يكون نومي هادئا ولا أعاني من الآلام في غيابها. هي ببساطة ملاكي، كما أنّها تذكّرني بحنيني حتّى في حبّها للقراءة والشعر ... "، واصلت زيزي قراءة الخطاب.

"أنا هادئة الآن عندما قال أنّها تذكره بحنيني، وأعلم الآن أنّه لم ينْسَها"، قالت نوريَّة وبدّدت مخاوفها من أن يكون ابنها قد أحبّ فتاة مسيحيّة.

أحبّت ميري أن تقرأ له الشعر من كتب الشعراء العرب المشهورين خاصّة الشاعر اللبنانيّ جبران خليل جبران. وكلّما مرّ الوقت كان يحلو لهما قربهما من بعضهما البعض. كما قرأت له أشعارًا كتبتها هي بنفسها، وأخبرها حِيِّيم أنّه كان يحلم أن يصبح أديبًا، لكنّه توقّف عن الكتابة منذ أن مرض. "المرض يكبّل جسدي وإبداعي"، تذمّر بوجودها.

"ما زال العمر أمامك، ولا يجب أن يمنع المرض حلمك"، شجّعته وأجلسته بجوارها في الشرفة، التي تطلّ على بحر بيروت المتلألئ. "انظر إلى الحرّيّة وشاهد كيف تختفي القيود من نفسها وستعود إلى الكتابة".

أحضرت له أقلام رصاص، وطلب منها أن تحضر له الكرّاسة الموضوعة تحت وسادته. كانت متشوّقة لمعرفة ماذا كتب في هذه الكرّاسة، التي يفتحها كلّ صباح ومساء، ويقرّبها من أنفه ليشمّ رائحتها، لكنّها لم

تجرؤ على فتحها. ربّما خمّنت الإجابة في نفسها، لكنّها فضّلت عدم معرفتها. وفي الأيّام التي أخبرها حِيِّيم بأنّه من الصعب عليه الكتابة نقلهما السائق إلى الكورنيش الشهير على شاطئ بحر بيروت، وعندما نظر إلى الأفق دُهش لاكتشافه أنْ لا نهاية لهذا البحر – ليس مثل دجلة، الذي كان يسبح فيه من الضفة إلى الضفة الأخرى. توقّف فجأة ومدّ يديه جانبًا، كما لو كان يريد أن يحتضن رحاب الحرّيّة، التي لم يعرف مذاقها في بغداد. فتح عيناه بدهشة مثل الطفل الصغير، الذي اكتشف الآن عوالم جديدة؛ وعندما وقف عند مداخل المقاهي الممتلئة بدخان السجائر، أراد أن يكون في صحبة الأدباء والشعراء، الذين قرأوا أعمالهم على مسامع الجمهور؛ لكنّ ميري أوقفته وقالت له إنّ في ذلك خطر على صحّته. اغتمّ قلبه عندما أدرك أنّ للحرّيّة قيودًا أيضًا.

*

في أحد أيّام الخميس، وهي في طريقها إلى زيزي، شعرت نوريَّة بألم شديد في صدرها. وقفت في مكانها وأمسكت قلبها، متردّدة إن كانت تعود إلى البيت، وفي النهاية لكنّها قرّرت الاستمرار، رافضة الاستسلام، على أمل أن يكون قد وصل اليوم، أيضًا، خطاب من حِيِّيم.

انتظرتها زيزي بترقّب عند مدخل البيت. "وصل خطاب آخر، ويقتلني الفضول لمعرفة ماذا كتب حِيِّيم"، قالت بعينين لامعتين وفتحت الخطاب بحماسة.

سعدت نوريَّة بالفرحة التي جلبتها خطابات حِيِّيم لزيزي، وانتظرت بنفاد صبر سماع كلامها. أرادت معرفة إن كان وزن حِيِّيم قد زاد. فقد اعتقدت أنّ ذلك سيكون علامة طيّبة على أنّه يتعافى.

قرأت زيزي عليها:

تحيّة لأحبابي البعيدين عنّي! كيف حال أمّي وإخوتي الأعزّاء؟ هل تعافى أخي الكبير؟ بمساعدة ميري عدت إلى الكتابة وأتمنّى أن أستطيع كتابة كتاب كامل قبل أن أعود إلى بغداد. أبطال الكتاب امرأتين فريدتين: الأولى امرأة تقليديّة، ملابسها بسيطة ومحتشمة للغاية، ومتزوجة من رجل متديّن وحريص وأمّ لثلاثة أبناء كبار؛ والثانية امرأة متحرّرة ترتدي ملابس أوروبيّة وسيّدة العالم الكبير. أريد أن أجمع بينهما وأجعلهما صديقتين، لكنّني أواجه منذ بداية الكتابة مشكلة صعبة. لا أعلم كيف يمكنني أن أطوّر صداقة بين امرأتين من عالمين مختلفين للغاية؟ ما ذا يمكن أن يكون سبب اللقاء بينهما؟ أنا محتار وأحتاج إلى مساعدة...".

ضحكت نوريَّة وزيزي وفهمتا أنّ صداقتهما تثير فضوله.

"أرى أنّ حِيِّيم قد اختار بطريقة ذكيّة أن يسأل عنّا. إنّه يحتاج إلى وقت طويل. وكنت واثقة أنّه سوف يسأل عن التفاصيل في خطاباته الأولى. كان عليك أن تشاهدي الدهشة على وجهه عندما أخبرته أنّني أعرفك"، ضحكت زيزي.

شعرت نوريَّة بوخزة في القلب عندما وصفت لها زيزي لقاءها بحِيِّيم، والأسى على أنّها لم يكن أمامها فرصة لتوديعه قبل أن يسافر إلى لبنان. لم يتوقّف الألم في قلبها، وطلبت من زيزي أن تخبرها إذا كان حِيِّيم قد زاد وزنه. مرّت زيزي على الخطاب بسرعة وأجابتها بأنّ الخطاب يتناول الكتاب الذي يكتبه. خاب أمل نوريَّة من الردّ وأخبرت زيزي بأنّها تشعر بسوء. طلبت منها أن تكتب له الردّ من دونها وتسأل حِيِّيم ماذا يأكل، وإن كان زاد وزنه. ودّعتها زيزي، ثمّ جلست وراء المكتب وكتبت الرد على رسالة حِيِّيم:

ابن عمّي العزيز،

سعدتُ بالسماع عن موضوع كتابك. وكأديب عليك ألّا تنساق وراء ما يراه الجميع. يجب أن تكون لديك رؤية

مختلفة. أكثر عمقًا. إن الشخصيّات التي تكتب عنها معقّدة للغاية. فحقًّا كلّ واحدة منهما هي من عالم آخر، لكن كي تصبحا صديقتين عليك أن تجد العامل الذي يجمع بينهما. ربّما كان ذلك سرًّا بينهما؟ أو أنّ واحدة تجد لدى الأخرى ما ينقصها؟ ربّما كان اللقاء بينهما قدريًّا، شيء ما يوجّههما من أعلى؟ عليك أن تكون أكثر إبداعًا من أجل خلق اللقاء بينهما. يتملّكني الفضول لمعرفة ما ذا ستكتب.

الأسرة كلها ترسل إليك تحيّاتها وأشواقها.

ووقّعت باسم "ابنة عمك زيزي"، ونسيت سؤاله عن وزنه.

ألقت نوريَّة التحيّة على حارس بيت زيزي، ثمّ عادت الآلام لتشقّ صدرها، لكنّها رغم ذلك أسرعت في خطاها، داعية الله ألّا يكون قد حدث شيء لأحد معارفها. تذكّرت أنّها شعرت بآلام مشابهة عندما ماتت أمّها. "يا إلهي، احفظ زهراتي! وأعدك بأن أقوم بمهمّتي – فقط احفظهم!" قالت متضرّعة وهي تشقّ طريقها مسرعة بين الجموع الغفيرة التي ملأت الرصيف على طول نهر دجلة. وعندما اقتربت من الزقاق شاهدت حنيني تقف وتبكي عند مدخل بيتها. كانت نوريَّة معتادة على رؤيتها تنتظرها كلّ يوم خميس لسماع أخبار عن حِيِّيم، لكنّ بكاءها أثار فزعها. "لم أعد أحتمل سماع أخبار سيّئة أخرى"، قالت لنفسها، وخفق قلبها بقوّة كما لو كان سينفجر.

"ماذا حدث؟" هزّت كتفيّ حنيني، التي لم تنتبه لمجيئها.

"حسنًا أنّك جئت يا عمّة. لقد أخذوا مئير إلى المستشفى"، قالت بعينين دامعتين، فأمسكت نوريَّة قلبها.

"لا تقلقي يا عمّة! لقد اهتمّ به الطبيب، وهو الآن تحت العناية"، حاولت تهدئتها.

"أين هو؟ ما الذي حدث له؟" سألت، وكلّ جسدها يرتجف واحمرّ وجهها فزعًا.

"كلّ شيء بسبب بِيرْطَة. لقد أغضبته فترك البيت ليأتي إلى هنا، لكنّه سقط في الطريق. من حُسن الحظّ أن ذلك حدث بجوار مقهى ناجي زبيدة، وكان الرجل من الفطنة أن استدعانا واستدعى الطبيب. يوسف وأَدْوَر متواجدان مع مئير في المستشفى، وأنا انتظرتك لنذهب معًا"، قالت حنيني.

"علمتُ أنّ شيئًا ما حدث. لقد علم قلبي"، لطمت نوريَّة وجهها وركضت مع حنيني إلى المستشفى. جلس يوسف وأَدْوَر إلى جوار فراش مئير، وعلى وجه أَدْوَر تعبيرات قاسية. تجاهلها تمامًا ولم يقُل شيئًا. رقد مئير في الفراش، وضمّادة كبيرة تغطي رأسه.

"بدالك، أنا فداؤك، ماذا جرى لك؟ أنا فداك"، ارتجفت نوريَّة ومسحت على رأس ابنها.

"هو بخير يا أمّي. فقد أصيب في رأسه عندما سقط على الأرض، وقال الأطبّاء إنّه في حاجة إلى أن يكون تحت المراقبة في المستشفى"، هدّأها يوسف.

"لم يُصَب بأيّ شيء خطير؟" تردّدت نوريَّة في سؤالها.

"لا. لا قدّر الله! لكنّه سيبقى في المستشفى عدّة أيّام، لأنّه يجب إجراء بعض الفحوصات له"، استمرّ ابنها يوسف في تهدئتها وأجلسها مكانه.

*

في اللقاء الأسبوعيّ التالي مع زيزي جاءت نوريَّة ومعها كريمات جديدة قامت بتركيبها قبل يوم. دخلت حجرة زيزي ووجدتها تجلس بجوار المكتب تكتب رسالة.

"أوصل خطاب من حِيِّيم؟" تعجّبت نوريَّة لأنّه قد مر أسبوع واحد فقط.

"أجل، وأنا أكتب له الردّ"، أجابتها من دون أن ترفع رأسها.

"ماذا قال؟" سألت.

"لم يقُلّ شيئًا خاصًّ. أرسل لي فصلًا من كتابه وأراد منّي أن أُبدي له ملاحظاتي"، أجابت.

"هل كتب أنّه زاد وزنه؟" سألت. كانت زيزي مشغولة بالكتابة ولم تُنصت إليها نهائيًّا. جلست نوريَّة على الكرسيّ غاضبة. كان يبدو لها أنّ الحياة تدور بِها من دون أن تكون لديها القدرة على التحكّم بها: فبِيرْطَة سيطرت على عقل مئير بسحرها الشرير؛ وأدْوَر سيطر على يوسف وقرّر أنّه سيُدرِّس في المدارس الدينيّة، وأنّه هو وحده المسؤول عن تعليمه، كي لا تُفسد هي نفسه الطاهرة– هكذا زعم؛ والآن زيزي تأخذ حِيِّيم منها وتتصرّف كما لو كان ابنها. "هي حتّى لم تسألني عن صحّة مئير"، قالت في نفسها. وأكثر من أيّ شيء غارت من معرفة زيزي القراءة والكتابة، ولقد أثارها مشهد زيزي وهي تستمتع بالهدوء في جلوسها للردّ على خطاب حِيِّيم. قامت وخرجت من دون أن تقول لها شيئًا. كانت زيزي مستغرقة كليًّا في كتابة الخطاب، ولم تلحظ أنّ نوريَّة قد غادرت. لقد كانت سعيدة للغاية بطريقة تحليلها للعلاقات بينها وبين نوريَّة من أجل كتابة كتاب حِيِّيم، لدرجة أنّها نسيت نوريَّة الحقيقيّة للحظة.

ابن عمّي العزيز،

في أثناء تعليمي، أعددت دراسة عن حوّاء واكتشفت أنّ هناك رواية تقول إنّ حواء التي خلقت من ضلع آدم لم تكن زوجته الأولى. فقد خلق الله ليليت أوّلا كي تذهب ضجر آدم. وكانت تتشاجر معه طوال الوقت، لأنّها لم تكن قادرة على قبول سيادته، لأنّها خلقت من تراب مثله. ويروي تراث اليهود أنّها لم تخلق من التراب، بل من نفايات الرماد والقاذورات؛ ولأنّها قالت اسم الله، فقد اختفت في الفضاء أو غاصت في البحر، مسكن الجان. لكنّني أميل إلى قبول الرواية الأولى.

عندما قرأت الفصل الأوّل من كتابك، تذكّرت هذه الدراسة، ويبدو لي أنّه يجب أن تفكّر في قصة حوّاء وليليت عند وصف بطلتَي قصّتك. على ما يبدو أنّ المرأة التقليديّة، المتزوّجة من الرجل الحريص، تشبه في صفاتها حوّاء، التي خلقت لمساعَدة آدم– أمّا المرأة العلمانيّة، سيّدة العالم الكبير، التي تعيش في المجتمع الراقي، فهي تشبه في صفاتها ليليت، التي خلقت لتسلية آدم. لكن، لو كنت أنا التي أكتب القصّة بدلا منك، كنت سأصِف المرأة التقليديّة كامرأة صاحبةِ آراء تقدميّة بالنسبة للمجتمع المحافظ الذي تعيش فيه، وأنّها كانت تريد أن تكون بعضا من ليليت وأنّ تبيّن أنّها هي أيضا، كامرأة، لها صوت ومَطالِب. هي لا تحاول التمرد وتغيير نظام العالم، لأنّه من الواضح لها أنّ المجتمع الذي تعيش فيه سيحاول الاحتماء منها، لذلك سيعمل على نبذها منه، وبذلك تكون مقدرتها على البقاء وحدها ومن دون مساعدة الرجل معدومة. في المجمل هي تريد تحسين أحوالها بعض الشيء وأحوال أبنائها بشكل غير مرتبط بزوجها البخيل، وتتطلّع إلى أن يغيّر معاملته معهم. أمّا المرأة الليبراليّة فإنّها تبحث عن السعادة التي سُلبت منها بالقوّة، وكانت ترغب في أن تصبح القليل من حوّاء وتجلس في بيتها، وتربّي أطفالها، وتصبح زوجة مخلصة وعونا لزوجها – لكنّ القدر ساقها إلى أماكن أخرى. إنّ النساء عندك مخلوقة من تنوّع مختلف وهنّ مركّبات للغاية. هما في حاجة إلى بعضهما، لأنّ كل واحدة منهما وحيدة في مجتمعها، ولكلّ منهما القدرة على مساعدة الأخرى في التعامل مع القدر الذي فرض عليها. يُسعدني قراءة الفصول التالية.

تحيّاتي،

ابنة عمّك زيزي

سعيدة بما كتبته توجّهت زيزي إلى بيت أحد سائقي سيّارات الأجرة، الذين عملوا كحلقة وصل لنقل الرسائل بينها وبين حِيِّيم. وبعد أن خرجت من هناك فقط، تذكّرت أنّها لم نتنبه أبدًا متى غادرت نوريَّة بيتها، بل إنّها لم تسألها عن صحّة مئير.

.17

كانت ترتدي العباءة السوداء كي لا يتعرّف إليها أحد. اقترب منها وهمس لها بالعلامة المتّفق عليها بينهما، والتي تشير إلى أنّه لا أحد في الجوار، وأنّها تستطيع إزاحة البوشي من على وجهها. أزاحت حنيني البوشي، وقفز حِيِّيم عندما شاهد وجه ميري. "أين أخفيت محبوبتي حنيني؟" أراد المعرفة، لكنّ ميري لم تجبه: "أنا محبوبتك". استيقظ حِيِّيم من نومه فزعًا. ووقفت ميري أمامه، وهي توقظه لصباح يوم جديد.

"لماذا فزعت، ولماذا وجهك شاحب؟" سألت.

"مجرّد كابوس"، أجاب.

رافقت ميري حِيِّيم إلى شرفة المصحّة كي يواصل العمل على كتابه. "الكتّاب لا يموتون لأنّهم يواصلون العيش من خلال أعمالهم"، اعتاد القول لميري. هي لم تحبّ هذه العبارة، لكنّها سعدت برؤيته يكتب بجِدّ، خاصّة بعد أن تلقّى خطاب زيزي وفيه ملاحظاتها حول الفصول التي أرسلها. لم يشرك ميري في محتوى كتابته، لكنّه وعدها بأنّها ستكون أوّل من يقرأ العمل كاملًا.

لفتت زيزي انتباهه إلى أنّ كلّ الشخصيّات في كتابه، سواء النساء أو الرجال، ليست متحرّرة، بل مخنوقة ومكبّلة بالأغلال سواء أغلال المجتمع، والدين والتقاليد، أو أغلال السحر الأسود. أرادت معرفة إن كان لا يظنّ أنّه يجب تحرير بعضها من هذه الأغلال، كي يمكنها التعامل مع الحاجة إلى تحديد طريقها – وألّا يكون القدر هو الذي يسوقها. "بهذه الطريقة أنت لا تسمح للقصّة بالتطوّر، لأنّها محدّدة سلفًا"، كتبت له.

حتّى بعد أن قرأ ملاحظات زيزي صعب عليه فهم ما الذي جعلها تصادق أمّه، وما السرّ الذي يجمع بينهما. "ما الذي بين المسلمة واليهوديّة؟" سأل نفسه. كان واضحًا له أنّ زيزي تساعد أمه في التعامل مع المشكلات التي لا تستطيع حلّها بنفسها؛ لكن لماذا تحتاج زيزي أمّه؟ وما هي السعادة التي سلِبت منها بالقوّة؟ وظهر من خطاباتها أنّها امرأة مثقّفة، حصلت على تعليم جيّد ومعقول وأنّها وُلدت لأسرة من مستوى جيّد. إن كان الأمر كذلك، فما الذي جعلها تغنّي في الملاهي الليليّة أمام الرجال الفاسقين والسكارى؟ لم تجلب له هذه الأسئلة الراحة، لكنّه قرّر عدم التعمّق فيها الآن، ورأى أنّه من الأفضل طرحها عندما يعود إلى بغداد، حينها يمكنه استكمال الجزء المنقوص في كتابه. وسجل أمامه أنّ عليه محاولة فهم العالم الداخليّ لكلّ شخصيّة في كتابه وظروف حياتها. كما ذكر أنّه يجب التركيز على إشكاليّة وحيدة، التي أحبّت عائلتها جدًّا، وحافظت عليها في ما يُشبه الدفيئة، لكنّها أضرّتها بأفعالها وقراراتها أكثر من أيّ شخص آخر.

كان أبوه لغزًا في نظره. فكان من الصعب عليه أن يعرضه كشخصيّة سلبيّة – على الرغم من تعامله معهم بقسوة، ويرمقهم دائمًا بنظرته المسكِتة. هو لم يعرف عنه شيئًا تقريبًا. ولا يذكر أنه لعب معهم أو اهتمّ بسلامتهم أو دراستهم. فقط صرخ فيهم أو أجبرهم على الاستماع يوميًّا إلى خطبه ومواعظه. لقد كرّس أبوه كلّ وقته ليوسف، لكنّ ذلك لم يجعله هو أو مئير يحقدان عليه. على العكس – فقد أشفقا على أخيهما الصغير؛ لأنّ أباهم تعامل معه بسيطرة تامّة متجاهلًا مشاعره ورغباته. تذكّر كيف كان يُخفي دواوين الشعر التي أحبّ قراءتها؛ لأنّها كانت في نظر أبيه جزءًا من الثقافة العلمانيّة للجيل الشابّ وأبعدته عن الدين، لكنّه عندما أدرك أنّ أباه لا يهتمّ به، كان يقرأها علنًا أمام الجميع. لقد كانت لديه رغبة جامحة في أن يلفت انتباهه، وذلك كان سبب التصرّف معه بوقاحة واستفزازه؛ لكن بدلًا من الصراخ فيه تجاهله وصرخ في مئير المسكين، الذي تسمّر رعبًا كلّما شاهده. مسح أبوه على رأسه مرّة واحدة فقط في حياته: عندما قرأ نصّ الهفطارا (فصل من سفر الأنبياء) من العهد القديم في حفل "البار متسـ□اه (سنّ التكليف)، بشكل سليم ومن دون أيّ خطأ. وعندما ابتسم له أبوه واستطاع أن يرى في عينيه المضيئتين السكينة التي جلبها له– لم

يكن هناك من هو أسعد منه.

تعلّقت الدموع في عينيه، ومسحها. قام عن الكرسيّ وأطلّ من الشرفة على الطبيعة الجبليّة الرائعة الممتدّة أمامه. "ستختفي الشمس بعد قليل وسيعود البرد ليلفّ لبنان"، قال، وكان قلبه مثقلًا. عاد إلى كرسيّه وبدأ بتحليل كلّ شخصيّة كتب عنها في الكتاب". فعلًا كلّها مكبّلة بالقيود، ولا تستطيع التخلّص من العُقد التي تقيّدها"، قال في نفسه. فكّر في أنّه ربّما تكون كتابته متأثّرة بصورة طفولته المنغلقة والمقموعة: البيوت محبوسة في الأزقّة الضيقة. كلّ شيء رماديّ ومخنوق. لكنّ المساحات مفتوحة، ولا توجد أشجار تقريبًا. ربّما تكون كتابته متأثرة بذاته، فهو نفسه مكبّل بمرضه ولا يستطيع التحرّر منه والعودة إلى حياته، التي توقّفت بسبب قراره الالتحاق بالجيش. غضب من حماقته وعناده اللذين جعلاه يتبع، عن غير وعي، رؤيا الوطن العراقيّ. لقد شوّشت المذابح ضدّ الأشوريّين والأكراد المفاهيم الواضحة التي من أجلها تطوّع في الجيش. والآن لم يعد واثقًا من حقيقة الشعب العراقيّ: من هو ولمن الحقّ في الوطن؟ هل سيمس، يومًا ما، العرب القوميّون باليهود الموجودين في العراق منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام؟ وهل باعتبارهم نسل أبينا إبراهيم، فإن أصل اليهود هو في العراق – أم صدق الصهاينة، وأنّ الوطن الوحيد لليهود هو الأرض المقدّسة؟ أمسك رأسه من شدّة الأسى عندما أدرك أنّ قراره التطوّع في الجيش لم يكن من أجل وصيّة الربّ كما اعتقد، وأنّه لم يضرّ بنفسه فقط، بل بحنيني أيضًا.

"ماذا صنعت؟" لقد دمُّرت حياتي. أنا لا أختلف عن بِيرْطَة التي آذت أخي!" ضرب المنضدة بقبضته.

"ماذا حدث؟" فزعت ميري. "ما المكتوب في الخطاب؟" سألته.

شعر بالاختناق وطلب منها أن تعيده إلى غرفته.

في الردهة شاهد حِيِّيم ممرّضتين تنظّفان حجرة جاره إبراهيم وتُخلِيا فراشه. أمسكت ميري بحِيِّيم بيد وصلّبت باليد الأخرى.

"أين إبراهيم؟" سأل حِيِّيم وشحب وجهه.

تجاهلت ميري سؤاله.

"أمات هو؟" أصرّ أن يعرف.

أومأت ميري برأسها.

"متى؟" ارتعش ذراعه أسفل يدها.

"بالأمس"، تردّدت في الإجابة.

"أين دفنوه؟" تنبّأ له قلبه بالسيئ.

"في المقابر المجاورة"، أجابت بهمس.

"لماذا لم يدفنوه في قريته؟" تعجّب حِيِّيم.

"منذ أن تمّ اكتشاف مرضه قاطعته عائلته. ولم يكن لدينا من نخبره بموته".

شحب وجهه، وطلب من ميري أن تأخذه إلى مدير المصحّة على الفور.

"أخبرني بالحقيقة – حتّى وإن كانت مرّة"، طلب. "هل لديّ فرصة في الشفاء من المرض؟" ارتجفت يداه.

نظر المدير إلى ميري، محاولًا أن يفهم من نظراتها ماذا حدث لحِيِّيم. "كم بقي لي من الوقت لأعيش؟"

واصل حِيِّيم كلامه، مغتاظا إلى حدّ كبير.

"للأسف، لم يظهر دواء لمرضك بعد. وكلّ ما نستطيع فعله هو التخفيف عنك فقط حتّى تستطيع التنفس بشكل أفضل"، أجاب المدير.

"كم بقي لي من الوقت لأعيش؟" أصر حِيِّيم على المعرفة.

"ليس الكثير. أنت هنا منذ أكثر من نصف عام، ووصلت إلى مرحلة متقدّمة جدًّا من المرض. وإذا كنت قد بقيت في بغداد، لما كنت تستطيع الصمود أكثر من شهر"، أجابه المدير وشعر بنفسه محاصرًا.

اختنقت ميري وخرجت من الحجرة. منذ أن وصل حِيِّيم إلى المصحّة وهي تحاول تجاهل حالته الصحّيّة، وإخفاء ذلك عنه أيضًا. وهي الآن تشعر بأنّ كلمات خالها القاطعة قد قطعت حياتها.

أظلم العالم في وجه حِيِّيم. "أطلب منك أن تصنع لي معروفًا أخيرًا"، قال وعيناه تملؤهما الدموع، "احرص على إرسالي سريعًا إلى بيتي في بغداد. أريد أن أرى عائلتي قبل أن أموت، وأن أُدفن مع أهلي – لا في المقابر الواقعة في الجهة الأخرى من الشارع".

بعد مرور أسبوع انتظر حِيِّيم خارج المصحّة سائق أُرسل ليصحبه إلى دمشق، ومن هناك تمّ تجهيز سيّارة أجرة أخرى لتنقله إلى بغداد. طرقت ميري باب حجرته برعشة، وفتح حِيِّيم الباب ثائرًا.

"انتظرتك، ادخلي. أريد أن أشكرك على كلّ ما صنعته من أجلي. سأترك لك كلّ كتبي. أخذت فقط كتاب الشاعر المحبّب إلي، جبران خليل جبران. لقد اعتدت سماعك تردّدين لي أشعاره، لذلك يبدو لي أنّه سيكون من الصعب عليّ النوم من دونه".

ذهب حِيِّيم لأخذ الحقيبة الصغيرة، لكنّها اقتربت منه وأمسكت بيده. أرادت الكلام. وضع حِيِّيم يده على فمها، وخشي أن يسمع كلماتها. فمنذ أن حلم بها بصورة حنيني توقّف عن التصرّف معها بحرّيّة، وكانت كلّ كلمة يخرجها من فمه محسوبة.

"أيّ شيء ستقولينه الآن غير ضروريّ. سأعطيك كتابي – على الرغم من أنّه غير مكتمل – وكرّاستي. كلّ شيء مكتوب فيهما – قصّة حياتي وحبّي. أنا واثق من أنك ستستطيعين إحيائي كلّ مرّة من جديد عندما تحكي لمرضاك الآخرين عنّي. فنحن نعلم أنّ الأمس هو فقط ذاكرة اليوم، وأنّ الغد هو حلم اليوم. إذا أردت، يمكنك إحيائي في ذكرياتك، لكن احتفظي بأحلامك لآخرين على قيد الحياة يحيطون بك، وسيحبّونك أنت فقط"، ورصَّع بعض كلماته بتأثير كلمات الشاعر وأعطاها الكتاب والكرّاسة بيدين مرتعشتين. لكنّ ميري أصرّت على قول ما تريد.

"إنّ واقع الإنسان الآخر ليس في ما يُظهره لك، بل في ما هو غير قادر على إظهاره. لذلك إذا استطعت أن تفهمه، لا تنصت لما يقوله، لكن لما لا يقوله"، ردّت على كلماته بتأثير الشاعر، واستمرّت على الفور: "عندما قرَّرت السفر، أدركت أنّني غير قادرة على البقاء هنا. فكلّ ركن في هذا المكان سيذكّرني بك. وفي كلّ مرّة سأقف في الشرفة سأنتظر رؤيتك. وعندما أرى البحر سأتذكّر ابتسامتك، وعينيك الذكيّتين، وخصلات شعرك ...".

"إلى أين ستسافرين؟" نظر إلى الحقيبة الموضوعة عند قدميها.

"إلى أمّي في فرنسا. هل ظننت أنّني سأستطيع إنقاذك بحبّي لك، لكنّني فشلت"، ارتعش صوتها.

تألّم حِيِّيم لكلامها، وانقبض قلبه. كان واضحًا له أنّه لن يستطيع صنع شيء مع الحبّ الذي لن يقدر على احتوائه في داخله. تحرّك في مكانه بانزعاج واحمرّ وجهه خجلًا.

هبّ البروفسور خوري لمساعدة حِيِّيم وحثّه على النزول إلى السائق، الذي طلب من الممرّضات أن يناديه. أمسك حِيِّيم يد ميري ونزل معها إلى بوّابة المستشفى. وعندما وصلا إلى السيّارة، أراد أن يحتضنها بين ذراعيه ويعانقها بقوّة، لكنّه اكتفى، بدلًا من ذلك، بالمصافحة، وتمنّى لها أن تستطيع تحقيق الحبّ الذي في داخلها مع من يمنحها السعادة وأسرع بالدخول إلى السيارة. حثّ السائق على التحرّك على الفور كي لا يسمع بكاء ميري. وعندما التفت برأسه إلى الوراء شاهدها تنظر إلى السيارة المبتعدة وخالها يحتضنها ويواسيها.

عرف حِيِّيم، منذ لحظة وصوله إلى بغداد، أنّه سيودّع شوارعها والنهر الواسع وحدائق النخيل والمقاهي المليئة بالرجال الذين يمضون أوقات فراغهم في شرب التشاي وألعاب الطاولة والدومينو وأزقّة الحيّ اليهوديّ الضيّقة. بعد أن خرج من السيّارة التي أحضرته إلى مسقط رأسه، أخذ صرّته بيده وتوجّه إلى حيّ طفولته. أثّرت فيه أصوات الأطفال الذين يلعبون في الأفنية الداخليّة، وذكّره نهر دجلة بأوّل سباحة له، عندما ربط المعلّم حول خصره أعواد النخيل المغطاة بالقماش ليطفو، ولم يكن هناك أسعد منه عندما سبح أوّل مرّة من دون عوّامة. رائحة السمك المتبّل بالكاري التي كانت تثير شهيّته السليمة يومًا ما، سبّبت له غثيانًا بسيطًا، ونداءات التجّار في سوق حِنُّونِي، التي كانت تُفرح قلبه، بدت له كخليط من الأصوات المزعجة التي تصمّ الآذان. المرض والمكوث في المصحّة في لبنان أضعفا الشابّ العنيد ولفّاه بقليل من العاطفيّة، وبدت النداوة على زوايا عينيه من كلّ منظر، وصوت ورائحة، تجاهلها مرّة أو تطرّق إليها كما لو كانت مفهومة ضمنًا. وقف فِتّاح فال (عرّاف)، أمامه وأراد قراءة كفّ يده ليخبره بقدره، لكنّه استطاع التملّص منه وتوجّه نحو الكنيس الكبير، الذي كان يضمّ بين جدرانه قصص مجد يهود بابل، كي يشمّ رائحة تراب القدس، التي لن يراها أبدًا. تحرّك عبد الله الشحّاذ في مكانه بقلق، وتململ من الفتى الذي ضايقه. ناداه حِيِّيم باسمه، واستطاع الشحّاذ التعرف على صوت الفتى الذي كان يُحضر له، كلّ يوم جمعة، طبق الأرزّ مع الكفتة. قفز من مكانه فرِحًا، وسحب حِيِّيم من يده حتّى مدخل الكنيس. دخل حِيِّيم ونظر إلى التابوت المقدّس، الذي يُحفظ فيه كتاب التوراة، الذي قرأ فيه الهفطارا عندما بلغ سنّ التكليف، وتذكّر عيني والده اللتين ملأهما الفخر، عندما قرأ بأحكام القراءة بثقة وبصوت مرتفع من دون أيّ خطأ. صورة أبيه وهو يلاطفه ويقبّل رأسه، عندما نزل من على المنصّة، جعلت عينيه تدمعان. سارع إلى الانتفاض من حنينه، وحيّا عبد الله، ثمّ أسرع خطاه.

حملته قدماه إلى بيت حنيني. وكلّما اقترب من هناك تعالت أصوات الرقص والغناء الصادرة منه – في حين أنّ بيته المجاور له غارق في الظلمة. قرّر حِيِّيم التوجّه أوّلًا إلى بيت عائلته. وعندما نظر في الداخل كضيف غير متوقّع، وجد أمّه نائمة على الأريكة في مدخل البيت.

شاهدت نوريَّة في حلمها الخروف، الذي ذُبح قبل عام في فناء بيتها، يطلب منها العفو لأنّه خيّب أملها ولم يزيّن مائدة عيدها. لقد جاء ملاك الربّ، وسكّين الذبّاح بيده. ووقف عند مدخل بيتها، وعندما لم يشاهد كفّ اليد من دماء الخروف على المزوزاه (ما يضعه اليهود على عضادة باب البيت)، نزلت دمعة من عينيه ودخل بيتها. مال حِيِّيم عليها وناداها:

"ماما، لقد وصلت. عدت إلى البيت للأبد".

كان يبدو لها في البداية أنّها تسمع صوتًا في الحلم وواصلت النوم، لكنّ حِيِّيم مدّ يده وهزّها. فتحت عينيها، وعندما رأت ابنها قفزت من مكانها فَرِحة وأمطرته بالقبُلات والعناق.

"ابني، أشفيت؟ كلّ شيء على ما يرام؟" قالت بانفعال وبإحساس من الدهشة والأمل، لكنّ حِيِّيم تجاهل سؤالها. كان منزعجًا من الأصوات الاحتفاليّة، وتنبّأ قلبه بالسيّئ. أشار إلى البيت الأزرق ونظر إلى أمّه نظرة الراغب في معرفة كلّ شيء، لكنّها كانت غارقة في الفرح بمجيئه، ولم تنتبه أبدًا إلى أنّ الزغاريد

المنطلقة من بيت عائلتها هي التي تثير فضوله.

"بأيّ مناسبة يحتفلون هناك؟" أصرّ، وقلبه كان يعلم. تردّدت نوريَّة. لم ينتظر حِيِّيم ردّها وفتح الباب، وأبعد أمّه عن طريقه التي حاولت منعه من الخروج. توجّه نحو البيت الأزرق مندفعًا إلى الفناء. تسمّر المحتفلون الذين لاحظوا وجوده في مكانهم، وتوقّفت فرحتهم على الفور. حتّى الراقصة التي دارت حول العروس، تسمّرت في مكانها. لمع وجه وعينا حِيِّيم، وكان يبدو كما لو كان قد انفجر من داخله حيوان متوحّش، وكما لو كان المرض قد هجره لوهلة. وقف في وسط الفناء ونظر حوله، وللحظة دبّت فيه روح جديدة. طلب الخال يعقوب من المحتفلين تجاهله وأشار إلى العازفين بالاستمرار في العزف وإلى الراقصة بالاستمرار في الرقص؛ لكن، في الوقت الذي استمرّ الحاضرون، بأنفاس معقودة، يراقبون الضيف غير المدعوّ بصمت، دخلت نوريَّة راكضة بقدمين حافيتين، ووقفت بينه وبين عائلتها. تركت حنيني المرتبكة كرسيّ العروس وركضت نحوه. جرى أبوها خلفها، لكنّ نوريَّة ولأوّل مرّة في حياتها، ترفع صوتها على أخيها، ونظرت إليه بعينين يتطاير منهما الشرر، وصرخت فيه بصوت الآمر:

"أُتركه يتحدّث معها! وإذا تجرّأت على المسّ به- أقسم بالله أني سأدقّ عنقك بيدي".

ذهل يعقوب من أخته ورجع إلى الوراء. أخذ حِيِّيم حنيني بعيدًا عن عيون أفراد العائلة، بينما كانت نوريَّة تراقب الموقف، خشية اقتراب أحد منهما.

"أطلب منك السماح. لم أستطع الوفاء بعهدي لك. هدّد أبي بقتلي إذا لم أتزوّج فؤاد، ولم أرغب في الموت قبل أن أراك"، قالت وألقت بالطرحة من على رأسها.

"أنا الذي يجب أن أطلب منك السماح على تركك والذهاب للقتال في حرب ليست حربي. إنّنا في شهر المغفرة [8] ، ولقد عدت لكي أحلّك من وعدك. وأتمنّى لك أن تعيشي حياة سعيدة"، قال وأدار ظهره يريد الذهاب.

"كيف يمكنني أن أكون سعيدة من دونك؟ اعتقدت أنك جئت لتخليصي ولتعيدني إليك. لماذا تهجرني مرّة أخرى وتسمح لأبي بتكبيلي بحياة بائسة؟" صرخت في ظهره المبتعد عنها.

رفعت مريم، أمّ العريس، صوتها الأجشّ، وصرخت في أختها نوريَّة:

"ألا تدركون أنّها متزوجة الآن، ولها زوج؟ متى ستتركوننا وشأننا؟ اعتقدنا أنّ ابنك لن يعود. خذيه من هنا قبل أن...".

"قبل أن ماذا؟ تضربينه؟ أم تسحرينه كما سحرت أخاه؟" فتحت نوريَّة يدها وأبعدتها عنها.

نفد صبر يعقوب، واقترب من حنيني التي وقفت يائسة وحائرة، وجذبها بالقوّة إلى كرسيّ العروس ثانية.

عاد حِيِّيم إلى بيته وجلس على الأريكة في حجرة الضيوف المفتوحة على الفناء. وسقطت قطرات المطر الأولى على البيت وجلبت معها رائحة الأرض الرطبة المسكرة. دخلت نوريَّة وراءه ونظرت في عينيه المفتوحتين. اقتربت منه وأمعنت النظر فيه، وبدا لها للحظة أنّه يتحاشى النظر إليها. وضعت يدها على رأسه الذي امتلأ مرّة أخرى بخصلات الشعر البني، وشقّت صرخة الموت التي انطلقت من حلقها الجوّ وفرحة المحتفلين.

.18

اضطرّت نوريَّة إلى إخفاء خبر وفاة حِيِّيم عن أخيه مئير؛ كي لا تسوء حالته الصحّيّة. لذلك كانت كلّما تزوره في المستشفى، تخلع ثياب الحزن في الحمام وترتدي الثياب العاديّة. كان مئير قد أمضى ثلاثة أسابيع في المستشفى منذ أن سقط في مقهى ناجي زبيدة، ولقد وعدها الأطبّاء بأنّهم سوف يسرّحونه من المستشفى قريبًا. كما طلبت من أَدْوَر ويوسف وحنيني إخفاء أمر وفاة حِيِّيم عنه. أمّا بِيرْطَة فقد قرّرت تجاوزها لأنّها قالت "إنّ قدمها لن تطأ مصنع الميكروبات"، ولدهشتها وفرحتها فقد استجاب أَدْوَر لطلبها، وكان مستعدًّا لإزالة شريط الحزن الذي ربطه أعلى ذراعه، قبل أن يدخل إلى حجرة مئير. ولوهلة، انبعث فيها بصيص من الأمل بأنّ عطف أَدْوَر النائم قد استيقظ بموت حِيِّيم وربّما يتوقّف عن قهرها. كما لاحظت أنّه بعد مرور "أيّام الحزن السبعة" لم يترك من يديه "السيدور" كتاب صلوات حِيِّيم. ويبدو هذا "السيدور" جديدًا مثلما تلقّاه حِيِّيم من أبيه بمناسبة "البار متسـاه" (سنّ التكليف)، وبعد موته كتب أَدْوَر في الصفحة الأولى من كتاب الصلاة تاريخ ميلاد ووفاة ابنه حسب التقويم العبريّ بخطّ راشي.

"ماما، حمامة بيضاء وقفت بشباكي"، قال مئير عندما دخلت أمّه الغرفة. وتجاهلت نوريَّة كلامه، لكنّ مئير لم يتوقّف:

"لقد طرقت بقوّة على الشبّاك وأرادت دخول حجرتي. لم أستطع القيام من الفراش وفتح الشبّاك، وفي النهاية طردتها الممرّضة"، استمرّ في قصّته.

"آه، هذا لا شيء"، تظاهرت نوريَّة بأنّها لا تفهم المغزى الرمزيّ للحمامة.

على مدى ثلاثة أيّام أخبرها عن الحمامة التي تظهر في شبّاك غرفته، وزعم مصرًّا أنّ ظهورها ليس من قبيل المصادفة.

"عادت الحمامة البيضاء لزيارتي. إنّ هذا يزعجني. على الرغم من أنّ الممرّضة تطردها، فهي تصرّ على العودة إلى شبّاكي. ماذا تريد منّي؟ هل جاءت لأخذ روحي؟" قال مئير لأمّه بصوت ضعيف.

"لا قدّر الله! لا تقل ذلك حتّى ولو من باب السخرية!" غضبت منه نوريَّة. أدركت أنّها لن تستطيع الاستمرار في الكذب عليه. فكان من الواضح أنّ الحمامة هي روح حِيِّيم، التي لا تجد الراحة طالما لم تودّع كلّ أحبّائها، وعلى رأسهم أخيه المحبوب مئير. نادت الطبيب وأرادت التشاور معه حول كيفيّة إخبار مئير بموت أخيه، من دون أن يسبّب له ذلك الانفعال الذي يؤذي قلبه. وعدها الطبيب بأنّه سيخبره بنفسه.

*

في الصباح نفسه بالضبط، تلقّت زيزي خطابًا من حِيِّيم أزعجها فحواه للغاية.

أشكرك، يا ابنة عمّي، على لفت انتباهي والتوضيح لي. لقد استطعت حتّى الآن تعديل معظم ملاحظاتك، لكن يؤسفني أنّ الهواء قد انتهى عندي، لذلك لن أستطيع إنهاء كتابي وتحرير أبطاله من قيودهم. أنا ذاهب في طريقي من دون أن أنجح في حلّ لغز المرأتين في كتابي، لكن اعلمي أنّني أضع ثقتي بك فقط، لأنّك ستعرفين كيف تعتنين بأمّي، توأم روحك. ابن عمّك

خائفة على مصير حِيِّيم، وعلى الحالة النفسيّة لنوريَّة، التي طلب منها حمايتها، تذكّرت زيزي أنّها لم تشاهد صديقتها منذ ذلك اليوم الذي تجاهلت فيه وجودها في بيتها عندما أخذتها الحماسة في الردّ على خطاب حِيِّيم. ولأنّها خافت أن تذهب إلى بيت نوريَّة، قرّرت محاولة مقابلتها في المستشفى، بعد أن علمت من صاحب الملهى الذي عملت فيه أنّ مئير يرقد هناك ثانية. غطّت نفسها مرّة أخرى بالعباءة الكبيرة،

التي أخفت هويّتها، وانتظرت في الردهة التي تطلّ على حجرة مئير، على أمل أن تأتي نوريَّة وحدها ومن دون أقاربها.

*

أخذت الصدمة مئير عندما سمع من الطبيب بموت أخيه. "لكنّك قلت لي إنّه في لبنان وإنّه يتعافى"، تمتم نحو أمّه كمن لا يصدّق. انفجرت نوريَّة بالبكاء عند سماع كلامه، هي أيضًا اعتقدت أنّه بالفعل سافر إلى لبنان للتعافي. غطّت قطرات العرق جبينه، وانتشر البياض على وجهه. كانت الممرّضة مستعدّة بحقنة مهدّئة، وطلب الطبيب من نوريَّة وأدْوَر الخروج من الحجرة. طلبت منه نوريَّة البقاء قليلًا مع ابنها، لكنّ الطبيب قال إنّه يجب أن يُخدَّر مئير حتّى صباح الغد قبل أن تؤثّر الصدمة في قلبه. خرجت نوريَّة من الحجرة بانفعال وتوجّهت بخطوات سريعة إلى حمّام المستشفى. خرجت مرتدية ملابس سوداء وانضمّت إلى أدْوَر، الذي ربط إشارة الحزن على ذراعه من جديد. تسمّرت زيزي في مكانها، وبعد أن استفاقت – كانت نوريَّة قد اختفت. دخلت إلى حجرة مئير وشاهدت الطبيب يعطيه حقنة، وهو راقد في فراشه ينتحب، لكنّها لاحظت أنّ عينيه تغمضان ببطء بتأثير الحقنة.

"ماذا حدث؟" سألت زيزي بخوف وكشفت عن وجهها للطبيب الذي عيّنته بنفسها للاعتناء بمئير.

"لقد علم الآن أنّ أخاه قد مات"، ردّ بأسف.

انفلتت صرخة من فم زيزي، وسقطت على الأرض. شعرت نوريَّة، التي كانت قد خرجت من المستشفى، كيف أنّ قلبها يتهاوى داخلها. "لا يمكن أن أتركه بمفرده. يجب أن أعود. يجب أن أراقب قلبه"، قالت لأدْوَر وركضت بكلّ قواها عائدة إلى المستشفى، متجاهلة نداءات أدْوَر بأنّه ليس هناك ما تفعله أكثر من أنّها ستقضّ مضجعه. وعندما اقتربت من الحجرة خائرة القوى، لاحظت وجود حركة كبيرة حول الغرفة، وتوقّعت الأسوأ. ولدهشتها وجدت الأطبّاء يعالجون امرأة ممدّدة على الأرض، وابنها مئير نائم في فراشه. اقتربت نوريَّة لترى ماذا حدث، واستغربت حين اكتشفت أنّ المرأة الملقاة على أرض الغرفة والجميع متحلّقون حولها ويحاولون إفاقتها هي صديقتها زيزي.

"معذرة"، تمتمت زيزي عندما رأت وجه نوريَّة فوقها.

احتضنتها نوريَّة بين ذراعيها، وساعدت الأطبّاء في حملها عن الأرض، وجلستا متعانقتين على المقعد المجاور لحجرة مئير تنتحبان على مصابهما.

بعد عدّة أيّام تحسنت حالة مئير، وخرج من المستشفى وعاد إلى بيته ليكون قريبًا من ابنته ليلي.

طلبت نوريَّة من حنيني أن تُكثر من زيارة بِيرْطَة لتقف على حالة مئير، لكنّ بِيرْطَة، التي كرهت حنيني، أدركت أنّ هدف هذه الزيارات ليس بريئًا، وقرّرت طردها من بيتها.

"لماذا ترتدين الأسود؟ لماذا تحزنين عليه؟ أنسيت أنّه طردك؟ انسيه! أنت متزوّجة من أخي الآن، وليس من حِيِّيم. من حُسن الحظّ أنّ أخي فؤاد وافق على الزواج منك – وإلّا لبقيت عانسًا عجوزًا طوال حياتك"، قالت بِيرْطَة مستفزّة حنيني.

"ليس هناك رجل في العالم يساوي نعل حذاء حِيِّيم. ولولا أبي لفضّلت البقاء عانسًا وعدم الزواج بأخيك الغبيّ، الذي بالكاد يكتب اسمه"، ردّت عليها حنيني في غضب، ورمقتها بنظرة كراهية.

"كيف تجرؤين على المقارنة بين أخي وحِيِّيم، الذي لم يكن رجلًا حتّى! ليتك تكونين فداء لأخي، أنت وكلّ عائلة نوريَّة"، وبصقت بِيرْطَة في وجهها ومزّقت ملابس الحزن التي تلبسها. "اذهبي والبسي ملابس

عروس مبهجة واحرصي على إنجاب أطفال لأخي"، واصلت جدالها. وسخرت منها حنيني في قلبها.

"لولا السحر الذي تصنعينه أنت وأمّك كلّ يوم لمئير لم يكن لينظر إليك، وكان ليبصق في وجهك الأسود من السواد ويتركك منذ وقت طويل. أنا على عكسك، أعرف ما هو الحبّ، لأنّ حِيِّيم أحبّني بكلّ روحه. لكنّك لن تذوقي طعم الحبّ أبدًا، لأنّ قلب مئير مع شخص آخر، يناسب مكانته ومستواه"، ردّت عليها حنيني، ومسحت من على وجهها لعاب بِيرْطَة ورتبت ثوبها الممزّق.

"مئير في يدي مثل الخاتم، ولن تستطيع أيّ واحدة أن تأخذه منّي"، قالت لها بِيرْطَة، في الوقت الذي رفعت فيه ذراعها لتلطم حنيني؛ وقبل أن تستطيع حنيني أن تردّ لها اللطمة جذبتها بِيرْطَة من شعرها بكلّ قوّة وصرخت.

خرج مئير من الحجرة وطلب من بِيرْطَة التوقّف عن الصراخ، لأنّه لا يستطيع النوم؛ لكنّها طلبت منه أن يخرس ويدخل الحجرة، وأن يخبرها في ما بعد بالخليعة التي يصاحبها. في تلك الأثناء تركت حنيني ورجعت إلى الخلف، وهي تراقب حركات ابنة خالها. بقيت حنيني في مكانها مذهولة من انقضاض بِيرْطَة العنيف عليها، وأكثر من ذلك من معاملتها المشينة لمئير. وتجاهلت ثوبها الممزّق والضربات التي تلقّتها، وخرجت راكضة نحو بيت نوريَّة وطرقت الباب بقبضتين فزعتين.

"يا عمّة، أنقذي مئير قبل أن يذهب هو أيضًا مثل حِيِّيم! إنّ حقدهنّ وسحرهنّ سوف يقتله. لقد شاهدت بعيني بِيرْطَة والعمّة مريم تجهّزان السحر وتخلطانه بطعامه. إنّهما تخدّرانه. أنقذيه!". أطلقت كلماتها بهوَس نحو نوريَّة، التي سارعت إلى فتح الباب لها. "أُقسِم لك أنّ هذه ستكون نهايته. ساعديه، فهما لا رحمة في قلوبهما ولا حتّى ذرّة حبّ، فقط شرّ وكراهية"، أضافت.

نظرت نوريَّة إلى شعرها الأشعث وثوبها الممزّق.

"من صنع بك ذلك؟" سألتها وأشارت إلى ثوبها.

"من يمكنه فعل ذلك؟ بِيرْطَة المجنونة. اذهبي، يا عمّة إلى مئير"، توسّلت إليها، "أنقذيه"، قالت وهي تحثّها.

ركضت نوريَّة، الفزعة بجنون إلى بيت مئير ودفعت بِيرْطَة التي وقفت في طريقها إلى الحجرة، ووجدت مئير ممسكًا برأسه ويتمتم:

"أنقذيني منها يا ماما، أنّها تخنقني".

ذهبت إلى خزانة الملابس وجمعت ملابسه في بطّانيّة. "هذه المرّة سآخذك إلى الأبد، ولن أسمح لبِيرْطَة بإيذائك"، قالت. حملت الصرّة بيد، وباليد الثانية أقامت مئير من مكانه. فسدّت بِيرْطَة بسدّ المخرج.

"أنا غاضبة للغاية، وإذا لم تفسحي الطريق، فلن أكون مسؤولة عن أفعالي"، حذّرتها نوريَّة بعينين مهدّدتين.

"إنّه يخصني أنا فقط، ولن يعود إليك"، صرخت بِيرْطَة بعد أن أفسحت الطريق.

أحضرت نوريَّة مئير إلى بيتها وأرقدته في الفراش. لقد خافت أن تفقده هو أيضًا، ونظرت إليه بعينيين مذهولتين عندما شاهدت جسمه يشحب. ورأت بقواها الخاصّة قلبه نائمًا ومحاطًا بطرق مسدودة ومظلمة. سألت حنيني إذا كانت تعرف أغنية "أمل" للمطربة زيزي، التي أصبحت شائعة في العراق.

"ليس فقط أعرف الأغنية، بل أعلم أيضًا عمّن كُتبت...". قالت وسارعت في الكفّ عن الكلام.

"أكملي، أخبريني: من أين تعرفين أمل؟ هل أخبرك مئير بها؟" قالت نوريَّة وهي تحثّ حنيني.

"لقد كنت عندها في البيت بعد أن تزوّج مئير من وجه بِيرْطة الأعوج. طلب منّي تسليمها رسالة منه. كان ذلك سرًّا. أنا آسفة لأنّني لم أستطع إخبارك"، طأطأت رأسها بخجل. "لقد وعدته".

"غنّي الأغنية في الوقت الذي أعالجه فيه"، قالت نوريَّة ووضعت يدها على رأس مئير وقلبه. وبحركات لطيفة، هي فقط التي عرفت جوهرها، أبعدت الظلمة من داخله. ونقلت إليه كلّ قواها لتبعث فيه رغبته في الحياة من جديد، لكنّه لم يكفّ عن التمتمة مرّة أخرى:

"أنّها تخنقني ... أنّها تخنقني".

أبقت نوريَّة يدًا واحدة فوق رأسه، ومرّرت الأخرى على رقبته لتبعد إحساس الاختناق من حلقه. وقفت حنيني بجوارهما وهي تغنّي الأغنية عن أمل. في البداية غنّت بهدوء، لكنّها رفعت صوتها بالتدريج حتّى دوّى صوتها بكلّ قوّتها. ظهرت ابتسامة بسيطة على جانب شفتَي مئير، لاحظتها نوريَّة وتفاءلت بها، ودعت الله أن يحمي ابنها البكر.

فجأة سيطرت رعشة شديدة على جسم مئير، وغسلت الدموع وجهه. خافت نوريَّة أن تبعد يدها عنه ولو للحظة وطلبت من حنيني أن تغطّيه بالبطانيّات، لكنّه بقي يرتجف.

"ماما، عانقيني. أعيديني إليك"، همس مئير كالغارق.

أرادت نوريَّة معانقته وضمّه إليها، لكنّها خافت أن تنزل يدها من عليه وتسمح للظلمة بأن تعود للسيطرة على جسده مرّة أخرى. لكنّ توسّلاته أضعفتها فاستسلمت لها: أزاحت يدها من على جسمه وعانقته، كما لو كان طفلًا رضيعًا بين يديها. أحاطه دفء جسمها، فتوقّف عن الارتعاش. واصلت حنيني غناء أغنيته، فأغمض عينيه بهدوء. تذكّرت نوريَّة صرّة الشيخ التي أخذتها زيزي إليه، وأخرجتها من صدريّتها. فمنذ أن رقد مئير في المستشفى وهي تأخذ الصرّة معها في إلى كلّ مكان. فقد كان لديها شعور بأنّها ستحتاجها. ووضعتها فوق حلق مئير وعاودت جهودها لطرد الظلام الذي سيطر عليه.

"يا أبانا يا ملكنا، ارحمنا! يا أبانا يا ملكنا، عطفك ولطفك!" ردّدت بتوسّل آية تذكّرتها من صلوات أَدْوَر، وكرّرتها عدّة مرات بتركيز حقيقيّ. وفي النهاية عاد النور إلى وجه مئير الشاحب.

"أمل، أخيرًا سمعتِ ندائي وحرّرت قلبي من القفص"، قال هامسًا.

خنقت العبرات حنيني، واختنق حلقها. ضعف جسد نوريَّة، وأومأت برأسها وأشارت إليها بأنّها يمكنها التوقّف عن الغناء. لفتها حنيني ببطانية وأخرجتها من الحجرة، وسقطت نوريَّة واهية من الضعف على الأريكة فبدت كأنّها تعرّضت للإغماء. فزعت حنيني لكنّ نوريَّة أشارت إليها بيدها ألّا تقلق وأن تتركها لترتاح. مرّت دقائق طويلة حتّى عادت إليها قواها. نظرت حنيني إليها وطلبت منها أن تقول لها ماذا سيكون مصير مئير.

"ابني ضاع. لقد أصبح كلّه أصفر. يجب تحرير روحه ليتمكّن من الراحة"، ردّت نوريَّة.

خرجت صرخة من فم حنيني، لكنّها تمالكت نفسها على الفور وأرسلت الجارة عزيزة لاستدعاء أَدْوَر والطبيب، في الوقت الذي أسرعت فيه هي إلى بيت أمل، متجاهلة الآلام والضعف الذي أحاطها. حاولت إقناع نفسها بأنّ حبّهما سينتصر على سحر بِيرْطة وسيعود مئير مثلما كان. وبيد مرتعشة طرقت باب البيت. فتحت الباب امرأة مسنّة، وأخبرتها عند المدخل بأنّ أمل وضعت قبل دقائق طفلها الأوّل، وتمنّت لها أن يرزقها الله بالبنين. طلبت منها حنيني أن تخبرها تهانيها وعادت إلى بيت نوريَّة باكية. وجدتها تقف على باب حجرة مئير تنظر إلى وجهه المضيء. تمتم كلمات غير مفهومة، وأصبح فمه أبيضَ ومضيئًا. التصقت حنيني بنوريَّة التي همست لها بأنّ الملائكة معه.

وصل أَدْوَر ومعه الطبيب. خرجت نوريَّة إليهما وطلبت منهما أن يدخلا الحجرة بعد عدّة دقائق. فتح أَدْوَر سفر المزامير وبدأ بالتلاوة:

"ترنيمة المصاعد. أرفع عيني إلى الجبال من حيث يأتي عوني. معونتي من عند الرب صانع السماوات والأرض".

شحب وجه مئير وأصبح صافيًا كالطفل يوم ولادته. دخل الطبيب إلى الحجرة، وأمسك بيد مئير وحدّد وفاته.

اعتقدت نوريَّة أنّ الملاك عندما دخل إلى بيتها، ورأته في حلمها حينما عاد حِيِّيم من لبنان، جاء لأخذه؛ لكن اتّضح لها الآن أنّه لم يكتف بذلك، وأنّ نيّته كانت أن يأخذ ابنها البكر أيضًا. عانقت حنيني وسألتها:

"أين ذهبت عندما اعتنيت بمئير؟"

نظرت إليها حنيني بأسًى وبعينين تملؤهما الدموع، ولم تفهم كيف استطاعت نوريَّة التصرّف بهذه القوّة ورباطة الجأش، كما لو لم يكن مئير قد مات.

"أين ذهبت؟" كرّرت السؤال.

"إلى من يمكنني الذهاب؟ أنت تعرفين: ذهبت إليها. أردت إحضارها إلى هنا، لكنّ أمّها قالت لي أنّها ولدت في اللحظة نفسها ابنها البكر"، قالت حنيني بعينين دامعتين، وبصوت مختنق.

"الله طعا والله أخذ" (الله أعطى، والله أخذ)، قالت نوريَّة هذه العبارة التي تكرهها، لكنّها قالتها هذه المرّة من دون أيّ غضب. "الابن الذي وُلد كان يجب أن يكون ابن مئير. ما أعجب سبل الله!" قالت نوريَّة لحنيني وطلبت منها ألّا تسمح لأخواتها وبناتهنّ بدخول البيت حتّى الجنازة. وهي نفسها دخلت حجرة مئير، وشقّ صراخ حزنها صمت الحيّ. نظرت حنيني إلى الداخل مخافة أن تؤذي نوريَّة نفسها، لكنّها اكتشفت أنّها جاثمة فوق مئير وتحضنه.

بقيت حنيني واقفة عند مدخل الحجرة وحرصت على ألّا يزعج أحد نوريَّة، أمّا يوسف فذهب لإخبار "حـ□را قاديشا" (جمعيّة دفن الموتى)، للحضور وتجهيز الميّت، في الوقت الذي كان فيه أَدْوَر مشغولًا بتجهيز البيت "لأيّام الحداد السبعة". أسرع إلى سكب الماء الراكد الذي كان في البيت وطلب من كلّ الجيران أصحاب البيوت الملاصقة لهم فعل ذلك؛ غطى المرايا والصور، ووضع على الأرض الفرش للعزاء. وفي رهبة مقدّسة أخرج كتاب صلوات مئير "السيدور" من خزانة الكتب المقدّسة، وكتب في صفحته الأولى اسم ابنه البكر وتاريخ ميلاده ووفاته، ثمّ أعاده إلى الرفّ في حجرته بجوار كتاب صلوات "سيدور" حِيِّيم. وعندما وصل رجال "حـ□را قاديشا"، غسلوا جثمان مئير، طهّروه، كفّنوه، ثمّ وضعوه بعدها في صندوق خشبي مفتوح. مزّق يوسف وأَدْوَر طيّة سترة ملابسهما وقالا: "مبارك أنت يا ديّان الحقّ".

بدأت رحلة الجنازة. رافق الرجال، وعلى رأسهم أَدْوَر ويوسف، جثمان مئير إلى القبر، وانضمّت إليهما جموع الناس. حتّى أولئك الذين لم يشاركوا في الجنازة وقفوا أمام مداخل بيوتهم عند مرورها. قرأ الحاخام بصوت يملأه التأنيب قصيدة "سكان بيوت الطين" لابن غبيرول [9] ، التي تظهر تفاهة الإنسان: "يا سكّان بيوت الطين، لماذا ترفعون أعينكم؟ وليس للإنسان مزية عن البهيمة!... ما أفضليّة الرجل؟ وآخرته للقبر...". انفجر أَدْوَر بالبكاء ندمًا على سلوكه مع مئير وأسفًا على حياته التي ليس لها قيمة، رفع يده إلى السماء كما في القصيدة، ورفع صوته مع الحاخام في ترديده العبارة الأخيرة في القصيدة آملا أن ينال عفو الله: "امنح رحمتك للشعب الطارق على بابك، لأنّك أنت سيّدنا، ونظرنا إليك". وعندما وصلوا إلى القبر

أخرجوا جثمان مئير ودفنوه في الثرى، أمّا الصندوق الفارغ فقد دحرجوه على الأرض سبع مرّات بجوار القبر وقلبوه على وجهه، معتقدين أنّهم بذلك يبعدون الموت عن الأُسرة الحزينة.

بقيت النساء في البيت، فحسب العادات، لا تشارك النساء في الجنازة أو في مراسم الدفن، كما لا يمزّقن ملابسهن. أمّا العدادات (المنتحبات) اللواتي بدَين كمجموعة غربان تنقض على غنيمتها، فقد جئن ثانية إلى بيت نوريَّة، يرتدين ملابس سوداء من أخمص أقدامهن وحتّى رؤوسهنّ، لكنّها أرسلت حنيني هذه المرّة لإبعادهنّ قبل أن يفتحن أفواههن ويلطمن على أجسادهن. كان البيت مليئًا ببنات العائلة وبهمس النساء حول مصير نوريَّة، التي لم تكد تخلع ثوبها الأسود حدادًا على حِيِّيم – حتّى دخلت "أيّام الحزن السبعة" على ابنها البكر مئير.

شدّت ثوب الحزن الذي على جسدها وضربت على صدرها بقوّة.

"ابني لم يمت اليوم"، صرخت، ونظرن إليها جميعًا واعتقدن أنّها جُنّت.

"ابني مات يوم عرسه، في اليوم الذي أُخذ منه قلبه بالخديعة وأغرق في أعماق البحار السبعة. إنّ قتلة ابني سرقوا منه شبابه، طعم الحبّ الحقيقيّ، وحبسوه في العزلة اللا متناهية...".

"لتُسكِت إحداكنّ هذه المجنونة، التي أخذت زوجي منّي ولم تسمح لي ولا لليلي الصغيرة بوداعه"، قالت بِيرْطَة مقاطعة كلامها.

قامت حنيني من مكانها ولطمتها وقالت لها:

"كيف لا تخجلين؟ يا قاتلة، ويا سارقة القلوب!".

ردّت بِيرْطَة لحنيني الصاع صاعين، إذ قفزت من مكانها، وجذبت حنيني مرّة أخرى بِقوّة من شعرها الطويل والغزير. لكن حنيني تجاهلت الألم، واستغلّت الهرج الذي ثار وقفزت على بِيرْطَة، وخلعت من رقبتها قفل قلب مئير، وأعطته بيد مرتعشة لنوريَّة.

"يا عمّة"، قالت لها وفرحة النصر على وجهها، "خذي القفل، افتحيه ودعي مئير يتحرّر، في موته على الأقلّ".

.19

كانت أيّام الحداد على مئير صعبة ومؤلمة. قست نوريَّة على نفسها بالأسئلة التي لم تجد إجابات عنها. "ماذا كان سيحدث لو أنّني وافقت على الزواج من نعيم، ولو أنّني استجبت لطلب نعيمة وزوّجت مئير من دوريس، ولو أنّني صمّمت أكثر على منع حِيِّيم من الذهاب إلى الجيش؟ هل كانت الأمور ستختلف؟ هل باستطاعتي التأثير في قدري – أم أنّه كُتب عليّ منذ اللحظة التي وُلدت فيها؟ هكذا أو هكذا، ألم يكن من الأفضل لو لم أجئ نهائيًّا إلى هذه الدنيا؟" تمتمت في نفسها وهي تميل من جانب إلى آخر. "إنّ كل ما أردته هو أن يكون أبنائي متعلّمين وسعداء، وأن تكون حياتي مختلفة عن الحياة البائسة التي فرضها التراث علينا ويمليها على بنات مجتمعنا. لم يفهمني أحد، لذلك اعتقدوا بأنّي متعالية وناكرة للجميل". أكثر شيء لم تستطع فهمه هو لماذا تقبّل الله، الذي أودع في يديها القدرة على الشفاء وكرّسها لمساعدة الناس، لعنات وحيدة وأختَيها، وقطف أبناءها قبل أن يضربوا بجذورهم، ومنعها من حمايتهم.

خرج أَدْوَر، ويوسف، ويعقوب وأبناء نعيمة ومريم في الصباح الباكر لتلاوة "القِدِّيشْ" (تلاوة معيّنة تُقرأ على روح الميّت) على قبر مئير قبل وصول المعزّين إلى البيت. وهذا ما صنعوه طوال "أيّام الحداد السبعة". أمّا نوريَّة فقد كانت تحرص على إشعال القنديل في الصباح الباكر، لذكرى مئير. تلا آيات من سفر المزامير وكتاب "الزوهر"، في البيت مرتّان حرص أَدْوَر على إحضارهما من الكنيس وصاحبا الموجودين في الحداد ليلًا ونهارًا. قرأ أحدهما من سفر المزامير من دون توقّف من منتصف الليل وحتّى منتصف نهار اليوم التالي، والثاني حلّ محلّه وتلا من كتاب "الزوهر" منذ منتصف النهار وحتّى منتصف الليل.

ترك بعض أفراد عائلة نوريَّة البيت، بعد أن اتّهمت مريم وبِيرْطَة بالتسبّب في موت مئير، وجلسوا "أيّام الحداد السبعة" في بيت بِيرْطَة. لقد علمت أنّ جيرانها حضروا إلى بيتها بدافع الأدب فقط، وهم يخافون الاقتراب منها والنظر في عينيها، لأنّهم عرفوا أنّ عينيها الفريدتين في لونهما مسحورتان، وتجذبان الشرّ إليهما كأوراق السذاب. ومن فرط حزنها ضعف جسمها ورفضت قدماها القيام من على الفرش. لولا حنيني، لما أدخلت في جوفها حتّى ولو لقمة صغيرة. وكانت عزيزة وحنيني تحرصان على تقديم واجبات الضيافة للمعزّين، وإعداد وجبات الطعام، بل إنّ حنيني بقيت للنوم في بيتها من أجل رعايتها، على الرغم من استياء أبيها وزوجها. وكانت عزيزة، كأمّها رحمة إم كِلُّو، تحبّ تقديم المشورة، وتحدّثت مع حنيني في المطبخ المتفحم، وطلبت منها عدم المبالغة في تجاهل مطالب أبيها وزوجها، كي لا ينفد صبرهما ويضرباها. "ماذا يستطيع أن يصنع لي زوجي الأحمق هذا؟ يا ليته يطلقني فأتحرّر منه ومن كلّ هذه العائلة. فأنا لم تعُد لي حياة أصلًا"، هزّت حنيني كتفيها.

على الرغم من استغراقها في الحزن، إلّا إنّ نوريَّة لم تتوقّف عن التفكير في زيزي، وتمنّت في نفسها أن ينتهي شهر الحداد لتستطيع الخروج من بيتها والاعتناء بها. كان حديث اليوم خلال "أيّام الحداد السبعة" انهيار المطربة زيزي في أثناء ظهورها أمام رئيس الحكومة العراقيّة، وتحدّث الجميع عن أغنيتها "أمل"، التي كانت تُردّد في كلّ مكان في العراق وخارجه. أوقف أَدْوَر كلامهم وطلب منهم ألّا يتحدّثوا عن العاهرات في بيته، خاصّة في أثناء أيّام الحداد. نوريَّة، التي علمت سبب انهيارها، ملأها الأسى على عدم قدرتها على مساعدتها من مكان حدادها.

عندما اكتملت الثلاثون يومًا على موت مئير، ذهب أَدْوَر إلى الحلّاق، الذي قص شعر رأسه وحلق لحيته التي طال شعرها على وجهه بشكل غير مهذّب. حاولت نوريَّة أيضًا استعادة قواها، فقصّت أظافرها وغطست طويلًا في المياه الدافئة. وشعرت بأن قواها الجديدة قد زُرعت في جسمها. بعدها على الفور

ذهبت إلى بيت زيزي، ولم تُفاجأ باكتشافها قابعة في بيتها، لأنّها هي أيضًا في حداد على ابنيها.

غيوم سوداء رافقتهما وهما في طريقهما إلى المقابر اليهودية في غاس □لجّولْ (بداية الصحراء عند الخروج من بغداد)، وانحنت قمم إشجار النخيل من شدّة الرياح. ركعت نوريَّة بجوار قبري ابنيها، ومرّرت يدها على أسميهما اللذَيْن كتبا بحروف عبريّة، وعانقت القبرين كما لو كانت تريد أن تحميهما من البرد. بدأت قطرات المطر تهطل، وقامت زيزي، التي جاءتا إلى المقبرة بناءً على طلب منها، بتغطية القبرين بإيشارب على رأسها.

"نوريَّة، مرّري يديك على مئير وحِيِّيم ودفّئيهما. فالجو برد عندهما في الأسفل. يجب تدفئتهما"، توسّلت إليها. تبلل شعرها والتصق برأسها، وخافت نوريَّة أن تتكشف هوية زيزي أمام روّاد المقابر، لذلك نزعت المنديل من على رأسها وغطّتها به. "يجب الذهاب. هما الآن بين يدي الله الرحيمة، وهو الذي يحرسهما ويربّيهما في جنّته". أنهضت زيزي وقادتها إلى خارج المقبرة.

غضبت زيزي في داخلها من الرضا الظاهر في كلام نوريَّة ومن تعاملها المتسامح مع الله – في الوقت الذي كانت تريد فيه الصراخ بكلّ قوّتها: "أين الله الرحيم؟" ولم يكن يهمّها ماذا سيقول الناس من حولها عنها. إن كان هناك مثل ذلك الإله، فلماذا يسبب لنوريَّة الألم الذي ليس له أيّ كفارة؟ لماذا أضرّها هي نفسها وأخذ منها ابنها وحيدها وهي ما زالت ترضعه؟

*

كانت نوريَّة تمقُت الملابس السوداء التي غطّت جسمها، لأنّها حوّلتها إلى شاهد قبر حيّ على الحظّ السيّئ الذي يطاردها. والنساء اللواتي كانت تعالجهنّ لم يعدنَ يطرقن بابها كثيرًا، وكان الناس في الأسواق والشوارع يتجاهلون وجودها – حتّى عندما كانت تتّجه إليهم لتحيّتهم. صرخ قلبها: "لا تقاطعوني! أريد أن أكون بينكم، أحتاج إلى عناقكم. لا تخنقوني بالعزلة التي تفرضونها عليّ!" غير أن أحدًا لم يكترث بها، وخاف الجميع من الاقتراب منها، وخافوا من النظر في عينيها الخضراوين على وجه الخصوص. فقط عبد الله الشحّاذ هو الذي قام كالعادة من مرقده عند مدخل الكنيس الكبير وقفز نحوها. جذب يدها نحوه وقبلها، وعندما رفع رأسه رأت الدموع في عينيه الرماديّتين، مسحت على رأسه، فاتّكأ على يدها وحاول الكلام، لكن خرجت من حنجرته أصوات غير مفهومة.

أثقلت العزلة التي فُرضت عليها بين الخليقة كاهلها، والأشدّ من ذلك كان الألم لشعورها بالوحشة داخل بيتها. فقد شعر أُدْوَر أنّه على الرغم من كونه رجلًا نزيهًا، ومستقيمًا، يخشى الله، غير شرّير، فلا يُعد صدِّيقًا بالشكل الكافي في نظر الله، لذلك فرض على نفسه أساليب زهد، وبنصيحة من حاخاماته كان يحرص على تنفيذ الوصايا للتكفير عن أخطائه مع أبنائه. فقد آمن بكلّ جوارحه بأن الإنسان هو من يجلب الألم لنفسه بذنوبه، لذلك عليه الرضا بعقابه بصمت وخضوع. لم يترك سفر المزامير من يديه، وكرّس ساعات طويلة لدراسة التوراة والتلمود مع يوسف. "أطلب إلى الله وعلى الله أجعل أمري". اعتاد القول بصوت مرتفع.

أمّا يوسف الذي كان يحب المجادلة، فحاول تبادل الحديث معه ليفهم كيف يمكن تفسير موت أخويه قبل الأوان؟

"الإنسان ضعيف العقل، وليس في مقدوره فهم أعمال الله والحكم عليها. لذلك أسلم طريقة هي التوجّه إلى الله بالدعاء والابتهال بأن يجازينا بالخير"، ردّ عليه أبوه.

لم يكتف يوسف بذلك وتوجّه إلى حجرته محاولًا العثور على إجابات في الكتب المقدّسة. وتعمّق في

□لِكَمَارَا وفي أسفار أيّوب، وإرمياء، والمزامير. هناك بحث عن إجابات عن الأسئلة التي ضايقته. "صدّيق ويحسن إليه – هذا واضح؛ لكن ماذا عن الصدّيق ويساء إليه؟ الصدّيق الذي يساء إليه – ليس صدّيقا خالصًا. من هنا نجد أنّ الله يجازي الإنسان حسب عمله. معنى ذلك أنّ مئير وحِيِّيم حوسبا على ذنوبهما. وإن كان الأمر كذلك، فما ذنبهما؟ إن كان حِيِّيم مات لعدم تنفيذه وصايا احترام الأب، أم لأنّه اقترف ذنب العناد والعجرفة وفضّل الذهاب إلى الجيش على زواجه من حنيني، على الرغم من أنّ هذه الحرب لم تكن من أجل وصيّة الربّ؟ وهل كان ذنب مئير أنّه فضّل التعليم العلمانيّ على دراسة التوراة؟ هل أذنب لعمله في حراسة ملهًى ليليّ؟ ربّما، لا قدّر لله، زنا أو شرب خمر الغرباء؟ قال الحاخام يوسي: الصدّيق ويساء إليه – هو صدّيق بن مذنب. أي أنّ معنى ذلك أنّ الآباء أكلوا حصرمًا، وأسنان الأبناء ضرست. هل اقترف أبي ذنب التكبّر عندما استهزأ بالناس الذين لا يفقهون في التوراة؟ أم لأنّه تبلّدت مشاعره مع أخويَّ الكبيرين وضرب أمّي؟ أم أنّ أمّي هي المذنبة، مثلما اعتاد أبي أن يقول في كلّ مرّة كان يحذّرها من المال الملعون؟ لو أنّ الله قد منحها القدرة على رعاية النساء في وقت الضيق، فإنّ المال الذي تحصل عليه والهدايا في المقابل هي شكر من النساء على البركة التي منحتها لهنّ. إذًا لماذا يقول أبي إنّ مالها ملعون؟ وربّما ليس هناك مذنب في عائلتي، وأنّ الله يختبرنا فقط مثلما اختبر أيوب؟ هل يحتمل ألّا تكون هناك عدالة إلهية؟" وضع يوسف يده على فمه كي يوقف سيل الأفكار قبل أن تخرج من فمه. لقد خاف أن يذنب في تفكيره عن الله مثل "الآخر"، إليشاع بن أبويا [10] الذي كان من المحظور نطق اسمه على لسانه. اختتم كلامه في النهاية بكلام الحاخام مئير، كبير التنائيم [11] : "صدّيق ويساء إليه؟ لا إجابة عن ذلك، لأنّها أمور غيبيّة، لن نفهمها ولن نعرفها".

يوسف

بغداد، 1934

.20

نبّهت أصوات البهجة في البيت نوريَّة التي دُهشت لرؤية أَدْوَر قادمًا باتّجاهها سعيدًا ومهلّلًا، على الرغم من أنّ أيّام الحداد على حِيِّيم ومئير لم تنته بعدِ. فمنذ موت مئير وهو عاد إلى لبس العباءة مع الروب، وكان يقضي وقت فراغه في دراسة التوراة و□لِگَمَارَا.

"لماذا الفرح؟" سألت.

"لقد قابلت حاخام المدرسة الدينيّة التي يتعلّم فيها يوسف، الحاخام ناوي، الذي خرج عن طوره عندما وصفه وقال لي إنّه معجون من طينة كبار الحاخامات الذين كانوا في بغداد ودرّسوا في المدرسة الدينيّة، وأنّه ينتظره مستقبل باهر. هذا الفتى حقّق لي حلمي بدرجة تفوق توقّعاتي، وأخيرًا أستطيع أن أرفع رأسي لأنّني هزمت أبي اليوم، الذي قال لي إنّ نسلي سيكونون مثلي غبر ناجحين".

"لماذا؟" قاطعت كلام أَدْوَر، مضطربة من أنّه يُجري معها حوارًا تضمّن أكثر من عبارة واحدة، بل أكثر من ذلك، إنّه لأوّل مرّة يتحدّث بكلام ضدّ أبيه.

"لأنّني أخجلته أمام عائلته، عندما لم أُقبل في صغري للدراسة في المدرسة الدينيّة؛ لذلك اضطررنا إلى ترك بيتنا القديم المحبّب والسكن في الزقاق بجوار بيتك، بعيدًا جدًّا عن عائلتنا. لكنّني الآن مرفوع الرأس بفضل يوسف. طوبى للعين التي رأت ذلك!" لمعت عيناه من السعادة وذكّرتاها بالنظرة التي شاهدتها في عينيه عند خطبتهما.

كلّما تغلغلت كلمات أَدْوَر في رأسها، صدمتها أكثر. فهل كان عليها الانتظار أكثر من عقدين من الزمان لتفهم السرّ الذي أخفته عائلته؟! فقد اعتقدت طوال السنين أنّ هناك سرًّا كبيرًا، لكنّها أدركت الآن أنّه تافه، ولا يبرّر الغموض الذي أحاطه طوال هذه السنين، ناهيك عن ترك مكان السكن الواسع وانفصالهم عن عائلتهم الكبيرة. لكن كعهدها بأبي أَدْوَر، كانت قادرة على فهم إلى أيّ درجة قد يؤدّي كبرياؤه وعناده، إلى مثل هذه الخطوة المتطرّفة. وعلى الرغم من أنّه غير مقبول الحديث عن الموتى بشكل غير لائق، إلّا أنّها لم تكن قادرة على أن تقول، ولو كلمة واحدة طيّبة، عن حميها. كان في نظرها تجسيدًا للقسوة، رجل يصعب الحديث معه والبقاء في صحبته، كان وجهه عابسًا دائمًا حتّى مع أحفاده الوحيدين. كانت زوجته تسير على أطراف أصابعها كي لا تثير غضبه. لكنّه عادة ما كان يجد نقصًا في أفعالها وكان يقلب البيت بصراخه. للأسف كان يبدو لها أنّ أَدْوَر أخذ الكثير من طباعه، ولم تستطع فهم كيف هو بالذات الذي عانى من معاملة أبيه السيّئة له، أن يتعامل بالأسلوب نفسه مع مئير ومعها.

في الوقت نفسه سعدت نوريَّة بسماع التقدير الكبير للحاخام لابنها وأرادت معانقة يوسف، الذي أصبح فتًى بلغ السابعة عشرة من عمره، لكنّها خافت أن يفترسها أَدْوَر بعينيه. لذلك اكتفت بمقولة "يوسف، غصن شجرة مثمرة، غصن شجرة مثمرة..." [12] ورشّ الملح على ابنها لإبعاد الحسد عنه.

*

منعها أَدْوَر من الاقتراب من يوسف منذ أن كان في الثالثة من عمره. وكانت أوّل حلاقة لشعر يوسف بالنسبة لأَدْوَر علامة على انتقاله إلى المرحلة التي يكون فيها الأطفال في سنّه جاهزين لتعلّم التوراة، لما ورد "وفي السنة الرابعة يكون كلّ ثمرها قدسًا لتمجيد الربّ". كانت هذه هي، أيضًا، المرحلة التي منع فيها أَدْوَر نوريَّة من التدخّل في تربية ولده.

"أوّل ولدين أفسدتِهما بتربيتك. فأحدهما أصبح متواكلًا ولا فائدة منه، والآخر متمرِّدا. من الآن سأكون مسؤولًا عن تربية يوسف، أمّا أنت فمسؤولة فقط عن مأكله وملبسه"، قال بعينين مهدّدتين وأرسل يوسف ليبدأ دراسة التوراة في كتّاب، للمعلّم منشّي، الذي كان معروفًا بحرصه. هناك تعلّم تلاوة التوراة والصلوات بالنغمات، والترنيم المطلوب. في نهاية اليوم الدراسيّ كان على الطفل اجتياز اختبار عند أَدْوَر في كلّ ما درسه في ذلك اليوم.

كان قلب نوريَّة يعتصر عندما كانت تشاهد عيني يوسف تستغيث بها وتطلب منها تخليصه من أسئلة أبيه. تجاهلت كلام أَدْوَر وحاولت أن تطلب منه أن يمنح الولد القليل من الحرّيّة، وأن يسمح له بالخروج للّعب مع الأطفال في الزقاق؛ لكنّه نظر إليها نظرته المُسكِتة وصرخ فيها: "جاهلة مثلك! ألا تفهمين أنّ العلم في الصغر كالنقش في الحجر؟" هذه المرّة اقتبس مثلًا من اللغة العربيّة تستطيع هي أيضًا فهمه.

في أحد الأيّام لم تستطع قوّتها تجاهل استغاثة يوسف، فذهبت إلى زوجة المعلّم منشّي لتطلب منها أن يقنع زوجها بالتخفيف عن ابنها قليلًا. تسلّلت إلى بيت المعلّم الذي كان فيه الكتّاب، من دون أن يراها يوسف، ونظرت إلى المعلّم الذي جلس في فناء البيت على كرسيّ، وأمامه منضدة صغيرة عليها كتاب الصلاة "السيدور"، وبجواره العصا التي يضرب بها الأطفال الذين لم يتماشوا مع وتيرة الدراسة. كان أمام المنضدة كرسيّ صغير، جلس عليه يوسف، وظهره نحو مدخل الفناء، يقرأ بترنيمة خاصّة في التوراة. جلس الأطفال في أنصاف دوائر حوله. وجلست مجموعة من الأطفال الذين درسوا "السيدور"، على مقاعد منخفضة من دون مساند، ومجموعة أخرى درست التوراة، جلست على مقاعد مرتفعة ذات مساند.

فتحت زوجة المعلّم التي كانت ترتدي طبقات من الملابس فوق بعضها كمجموعة من الخرَق، باب إحدى حجرات البيت، التي تطلّ على الفناء. ابتسمت لها نوريَّة وأعطتها صينيّة مخبوزات من صنع يديها قبل أن تشرح لها سبب زيارتها. كان الباب نصف مغلق. "هل يمكن أن نتحدّث في الداخل؟" سألت. "الحجرة غير مرتبة"، اعتذرت المرأة، وقرّرت نوريَّة ألّا تحرجها ووقفت عند المدخل. طلبت منها أن تتحدّث إلى زوجها ليخفّف بعض الشيء ممّا بدرّسه ليوسف. وفي اليوم التالي ذهبت إليها مرّة أخرى وأعطتها ثوبًا خاطته لها بنفسها، غير أنّ جهودها باءت بالفشل. "استوضحت الأمر، واتّضح لي أنّ زوجك يدفع لزوجي مبلغًا إضافيًّا خاصًّا ليعلّم يوسف أيضًا بشكل خصوصيّ"، أخبرتها، "لذلك فإنّ المعلّم في الكتّاب، لن يستطيع تلبية طلبك".

استمرت محاولات نوريَّة في التأثير في زوجة المعلّم عبر الثياب، والطعام والكريمات التي تصنعها بيديها، وطلبت منها أن تراقب يوسف وأن تحرص على أن يأكل كما ينبغي. كانت تطلّ من حين إلى آخر داخل الفناء لمشاهدة ابنها الذي كبر وأصبح تلميذًا نجيبًا وأمضى ساعات طويلة في مجادلة أبيه. عندما اكتشفت أن الأطفال يضربونه في طريقهم من "الكتّاب" بسبب المعاملة الخاصّة التي ينالها عند المعلّم، أغدقت الهدايا على شمعون الخِلفة، مساعد المعلّم، الذي كان يصحب الأولاد في طريقهم من بيوتهم إلى الكتّاب. ومع انتهاء الدراسة عند عودتهم إلى بيوتهم، وطلبت منه أن يحافظ عليه بعناية. انتقل يوسف من "الكتّاب" إلى المدرسة الدينيّة، ومن هناك إلى المعهد الدينيّ زلخة، التي تخرّج فيها عظماء الجيل، من أجل الحصول على لقب "حاخام". راقبته من بعيد في كلّ مكان ذهب إليه بعيدًا عن أعين أَدْوَر.

*

في صباح اليوم التالي قامت من فراشها تملؤها الحماسة لإعداد الأرزّ مع اللبن، والقيمر والسيلان، والبيض والجبن لأَدْوَر ويوسف قبل أن يذهبا إلى الكنيس، واعتقدت أنّ وجه أَدْوَر سيستمرّ في الإشراق بالطبع اليوم أيضًا. لكنّها، وللأسف، أحبطت وعاد إلى تعبيراته الكئيبة المعروفة. وضعت الطعام أمامه

وعادت إلى حجرتها، خائبة الرجاء وغاضبة من نفسها على خيبة رجائها.

صوت ضوضاء بسيط سمُع من وراء باب البيت، فألصقت نوريَّة عينيها بالنافذة المطلّة على الزقاق لتعلم ما مصدره. دهشت عندما شاهدت أخاها يعقوب يقف عند مدخل البيت ومريم تحثه على طرق الباب. سمعت طرقة على الباب، فذهب أَدْوَر لفتحه، وأطلق صوت تذمّر عندما رأى يعقوب.

"أعلم أنّ هذه ساعة مبكّرة من الصباح، لكن لأنّك رجل مؤمن، أردت الحديث معك عن أمر هامّ قبل أن تذهب إلى العمل"، اعتذر يعقوب. أنصتت نوريَّة للحوار من الشرفة في الطابق الثاني وأشارت ليوسف الذي اقترب منها أن يحافظ على هدوئه.

"لم أُصلّ الفجر بعد وأنا في طريقي إلى الكنيس"، حاول أَدْوَر التهرّب ومنع الازعاج غير المرتقب لنظام يومه الصارم.

"لم أحضر كي أضيّع وقتك هباء. جئت إلى هنا كي تلزم ابنك بأن ينفّذ وصيّة فرضتها علينا التوراة"، حاول يعقوب إقناعه بسماع كلامه، وبدا على وجهه أنّه يحاول جادًّا الحفاظ على رباطة جأشه، على غير عادته.

"عمّ تتحدث؟ وأيّ وصيّة لم ينفّذها ابني المؤمن؟" أجابه باشمئزاز.

فتح يعقوب كتاب التوراة الذي أحضره معه وبدأ بالتلاوة: "إذا سكن إخوة معًا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصر امرأة الميت إلى الخارج لرجل أجنبيّ. أخو زوجها يدخل عليها ويتّخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج". وأغلق كتاب التوراة واستمرّ في كلامه: "يجب أن يتزوّج يوسف من بِيرْطَة وأن يقيم نسلًا لأخيه المرحوم مئير؛ وإذا كان لا يريد أن يقيم نسلاً لأخيه، فيجب أن يطلّقها كي تستطيع الزواج".

"جاهل وأمّي! طولك طول النخلة وعقلك عقل السَّخْلَة، (طويل كالنخلة وبعقل عنزة). لا تفقه كلمات التوراة! فقط إذا كان الميّت لم يترك نسلًا فعلى أخيه أن يتزوّج من أرملته. ولمئير ابنة ونسله لم يَبِد"، رفع أَدْوَر صوته.

"لكن مكتوب في التوراة "وليس له ابن" – ومئير ليس له بنين وله ابنة فقط...".

"أفواه الحمقى تتفوّه بالجهل؛ كيف تجرؤ على اقتباس الكلام المقدّس؟ كيف تجرؤ أن تطلب من ابني النابغة في التوراة أن يقترف ذنب زنا المحارم؟ فامرأة أخيه الأرملة، محرّمة عليه. غْمَادْ، أحمق، أُخرج من بيتي، ولا تضيّع وقتي!" فتح أَدْوَر الباب. لم يتحرّك يعقوب من مكانه ورفض الخروج قبل أن يستمع أَدْوَر لبقيّة كلامه. ولأنّه رأى أنّ يعقوب لا ينوي الخروج. أخذ أَدْوَر كتاب الصلوات بيده وخرج من البيت، تاركًا يعقوب محبطًا في فناء البيت. لشدة غضبه نسي أن ينادي يوسف ليصحبه إلى الصلاة. نظر يعقوب إلى ظهر أَدْوَر المبتعد، وبعد أن أفاق خرج بعده وهو يغلق الباب بقوّة.

بقيت نوريَّة مرتجفة من الكلام الذي سمعته.

"لا توافق بأيّ حال من الأحوال على الزواج من هذه المرأة، التي دفنت أخاك حيًّا! حافظ على نفسك! لا تأكل شيئًا عندهم!" احتضنت يوسف وتوسّلت إليه.

"لا تقلقي! أنا محرّم عليها حسب الهلاخاه (الشريعة اليهوديّة)، لأنّها أنجبت ابنة لأخي. وعلى أيّ حال لم أكن لأتزوج من هذه المرأة. أفضّل أن تهينني وتبصق في وجهي في طقس "الخُلع" [13] على أن أشاركها حياتي"، هدأها يوسف.

نظرت نوريَّة في عيني ابنها ورأت إلى أيّ درجة كبر وأصبح رجلًا من دون أن تلحظ ذلك. لقد أصبح أطول منها برأس واحدة على الأقلّ، وذكّرها بأَدْوَر في شبابه، وبشعره الفاتح ووجه المزيّن بالشعر الذهبيّ وبالملابس التقليديّة، والعباءة والروب – التي استمرّ، كما يليق برجل دين، في ارتدائها بإخلاص متجاهلًا التغيّرات التي طرأت على ملبس الرجال في بغداد بتأثير الإنجليز. عادت نوريَّة وضمّته بشدة إلى قلبها كما لو كان رضيعها، ولوهلة كان محرجًا من الدفء الذي أغدقته عليه.

عاد يعقوب إلى بيته وأخبر مريم بغضب عن لقائه المهين بأَدْوَر، لكنّها استهانت بكلام أَدْوَر. " غْمَادَة عليه، ليذهب إلى الجحيم! عندما وُلدت ليلي، لعن أَدْوَر بِيرْطَة لأنّها أنجبت بنتًا– إذًا كيف تعتبر البنت في نظره الآن مثل الولد؟ منذ متى والبنات تساوي الأبناء عندنا؟" انفعلت وطلبت من يعقوب أن يذهب إلى حاخام الطائفة ويطلب تدخّله، كي يقيم يوسف وصيّة "اليِبُّوم" (الزواج بأرملة أخيه إذا لم تكُن لها ذرّيّة).

"لم تبلغ بِيرْطَة العشرين بعد وأصبحت أرملة. ما زالت قادرة على إنجاب الأولاد. لماذا عليها أن تعيش بقيّة حياتها أرملة مع طفلة صغيرة؟ ألا يكفي أنّها ترمّلت في سنّ صغيرة؟" صرخت بصوتها الأجشّ ودفعت أخاها إلى الخروج في طريقه.

لكنّ حاخام الطائفة أكّد على كلام أَدْوَر وشرح ليعقوب أنّ أخا الميّت لا يجب أن يتزوّج أرملته، لأنّ الميّت ترك نسلًا وراءه. وفتح له كتاب شرائع الرامبام (الحاخام موسى بن ميمون)، باب "اليِبُّوم والخُلع" وبدأ يتلو له: "وإذا لم يكن له ابن، يروي سفر التثنية الأصحاح 25 الآية 5 – واحد الابن، وواحد البنت، أو نسل الابن أو نسل البنت. والأرملة محرّمة عليه لأنّها امرأة رجل وله نسل"، أغلق الحاخام كتاب الشرائع، وأرشد سكرتيره يعقوب إلى الطريق خارج الحجرة.

"أَدْوَر محقّ. لا يوجد ما يمكن عمله"، قال يعقوب لأخته بخيبة أمل بعد عودته إلى البيت. "بِيرْطَة محرّمة على يوسف بالفعل لكن كأرملة يمكنها الزواج من أيّ شخص آخر"، حاول تعزيتها. "لنذهب اليوم إلى سِلمان الدلّال (دلّال زواج)، ونطلب منه أن يجد لها عريسًا – لا يهمّ من يكون، المهمّ أن يُنجب منها وينفق عليها. فالمرأة التي ليس لديها بنين – مصيرها الموت جوعًا، لأنّه ليس هناك من يرعاها، وأخشى ألّا يرعاها أحد بعد موتنا"، قال محاولًا إقناع أخته.

على الرغم من أنّ يعقوب اضطرّ إلى التخلّي عن فكرة "اليِبُّوم"، إلّا إنّ نوريَّة لم تكُن نوريَّة مرتاحة، وبقيت قلقة على مصير يوسف؛ وكان لديها إصرار على أن تجد له عروسًا قبل أن تُفرَض مريم بِيرْطَة عليه، وطلبت من حنيني، في هذه الأثناء، أن تراقب بِيرْطَة وأمّها وترى ماذا تخطّطان.

"أعلم أنّه بعد ما حدث لمئير لن تستطيعي دخول بيت بِيرْطَة، لكنّني واثقة من أنّك تستطيعين معرفة ما الذي يدور هناك، من أبيك، وأمك، وزوجك والنساء النمّامات اللواتي يذهبن إلى بيتهنّ ويخرجن منه. سأكون مستعدّة هذه المرّة ولن أسمح لهما بأخذه مني"، طلبت من حنيني وخرجت من البيت للقاء سميرة الدلّالة (الخاطبة). عندما عادت شاهدت حنيني تقف في باب بيتها فرحة. وفي حجرة الضيوف قالت لها حنيني بعينين لامعتين: "الله معنا يا عمّة. ذهب أبي لاستدعاء سِلمان دلّال الزواج ليجد عريسًا لبِيرْطَة". وبدلًا من الفرحة أصبح وجه نوريَّة أكثر جدّيّة: "أوغاد! لم يمرّ عام بعد على مئير – وهم يريدون تزويجها عْيُون بْلاَ عْيُون، بسرعة. ممّا يخافون؟ من أن تلوّث هذه الفاجرة سمعتهم؟"

"ليس المهمّ ممّن تتزوّج. من ناحيتي ليكن من ليـ□ـي العجوز. المهمّ أن ينجو يوسف من وجهها"، حاولت حنيني تطييب خاطرها، وانفجرت نوريَّة بالضحك، عندما تخيّلت بِيرْطَة متزوّجة من ليـ□ـي الذي يبلغ الخامسة والتسعين، ودفن ثلاث نساء ولايزال يبحث عن عروس جديدة. كانت حنيني سعيدة بأنّها استطاعت أن تجعل عمّتها تنسى مشكلاتها للحظة وتنفجر ضاحكة.

.21

عندما دعا الحاخام ناوي يوسف لتناول الطعام معه في بيته، كان منفعلًا ومندهشًا من الشرف الذي ناله. كان بيت الحاخام قريبًا من الكنيس الكبير، وانبهر من كمّيّة الكتب المقدّسة التي ملأت المكتبة في حجرة الضيوف. قال في نفسه: "كم كان سيكون أبوه سعيدًا إذا كان محاطًا بمثل هذا العدد من الكتب"، وسخر من نفسه بسبب تباهيه بخزانة كتبه، التي تضمّ خمسين كتابًا مقدَّسا على أقصى تقدير.

دخلت الحجرة فتاة وبيدها طست فيه ماء. ذكّره منظرها بحنيني، وكانت تبدو ليوسف كابنة الخامسة عشرة. شعرها الأسود مسدل على كتفيها، وعيناها السوداوان مائلتان كعينيّ الغزالة، ووجهها لطيف المنظر. كانت ترتدي ثوبًا أزرق غطّى كلّ جسمها. خلع الحاخام عنه العباءة الواسعة التي كانت تعتبر بالنسبة له معطفًا كذلك، وبقي بالزْبون (المعطف الطويل)، المزيّن بالخطوط الزرقاء والبيضاء. فكّ قليلًا الحزام القماشي الذي ربط به المعطف على ملابسه السفليّة، وخلع العمامة – قبّعة التوربان عن رأسه ووضعها على منضدة صغيرة. استغرب يوسف عندما شاهد شعر الحاخام الخفيف، مع أنّ لحيته كانت كثّة وتتدلّى حتّى صدره. استرخى الحاخام على كنبة كانت في الحجرة، بينما خلعت الفتاة نعليه وجواربه، وغسلت كفّي قدميه في الطست. بعد ذلك وضعت الطست جانبًا، وفرشت على الأرض منشفة، ثمّ جفّفت قدمَيه.

"تُبُورِكِتْ يَدَاكِ، يا ابنتي"، قال لها الحاخام وغمز بعينيه اللتين أخفاهما حاجبان غليظان وطويلان. وضعت القبقاب في قدميه وردّت عليه بصوت لطيف "ليباركك الله، يا أبي".

كان يوسف مسحورًا من أدبها في سلوكها. خرجت من الحجرة وعادت بعد عدّة دقائق تحمل في يديها طبقان من المياه وكوب غسيل اليدين الفضّيّ، ووضعتها على الطاولة ووضعت منشفتَين أمام يوسف وأبيها. "هيا نبارك على غسل اليدين قبل الطعام"، قال الحاخام وعندما انتهيا، رفعت الإناء والمنشفتَين. نظر إليها يوسف بطرف عينه كي لا يعتبر كمن يتخطّى حدود المسموح. دخلت الحجرة امرأة، كان يبدو أنّها زوجة الحاخام، ترتدي ثوبًا طويلًا باللون الأزرق الفاتح تزبّنه خيوط فضّيّة وتعتمر قبّعة تشبه البيس (الطربوش)، ويغطّي ذقنها العريضة منديل تظهر عليه زهور، وبيدها صينيّة كبيرة مليئة بالأرزّ الأحمر وقطع اللحم. ودهشت لرؤية الحاخام بلا قبّعة بجوار فتًى تجهله. تعرّق يوسف في كرسيّه منزعجًا، عندما شعر بأنّ زوجة الحاخام تعاينه من أخمص قدمه وحتّى رأسه. دخلت الفتاة مرّة أخرى إلى الحجرة ووضعت أمامهما الخبز وأكواب الماء. دخول الفتاة حوّل نظر المرأة المسنّة عنه، وشعر يوسف بالارتياح مرّة أخرى، وإن كان ازداد فضوله لمعرفة سبب دعوة الحاخام له في بيته. بعد أن بارك على الطعام قطع الحاخام الخبز وجمع فيه الأرزّ بيده وقطّع اللحم، ثمّ دعا يوسف إلى المباركة والأكل. خرجت الأمّ وابنتها من الحجرة وتركتاهما بمفردهما. وعندما انتهيا من تناول الطعام غسلا أيديهما وردّدا بركة الطعام. وعندما حضرت النساء كي تأخذن الأطباق، شكراهما على الطعام. بعدها توجّه الحاخام إلى طاولته وأحضر معه بعض الكتب.

"لا أحد يعلم متى ينتقل إلى جوار ربّه، وأنا ليس لي أبناء أستطيع أن أنقل إليهم علمي. لقد أكرمني الله بابنة واحدة، كالملاك بالنسبة لي، بعد سنوات طويلة من الدعاء". توقّف الحاخام للحظة وقبّل الكتاب الذي في يده وجلس يوسف إلى جواره لسماع بقيّة كلامه.

"إنّك أفضل تلاميذي، وأنا اخترتك كي تخلفني. سأحرص بداية من اليوم على أن أرفع من مستواك الروحانيّ، وفي هذه المرحلة سأنقل إليك علمي في علم القبلاه (التصوّف). لكن، لتعلم أنّه يُحظر عليك أن تشارك في هذا العلم من هو غير مؤهّل ومستعدّ لتلقّيه". مدّ الحاخام يده لمعانقته، لكنّ يوسف المنفعل

أمسك بيد الحاخام وقبّلها مثلما يفعل الكثير من التلاميذ مع حاخاماتهم.

عندما قدّم له الحاخام مؤلّفات الحاخام اسحق بن شلومو لوريا الملقّب بـ"هاري" وتلميذه الحاخام حِيِّيم □يطال، وقال إنّهما سيكونان الكتابين الأساسيّين لدراسة التصوّف اليهودي. تذكّر يوسف أنّه مع انتهاء طقس لبس التفيلين (طقس البار متس□اه بمناسبة بلوغ سنّ التكليف)، أدخله أبوه إلى حجرة الضيوف وفتح خزانة الكتب أمامه، وعرض عليه كتب القبلاه التي كانت تخصّ جدّه وقال له إنّها هديّته له بمناسبة البار متس□اه؛ وإنّه عندما يكبر سيجلسان معًا لدراستها. تذكّر أنّه أخفى وجهه وراء ظهر أبيه خائب الأمل لأنّه لم يشترِ له هدية يستطيع التباهي بها أمام زملائه في المدرسة الدينيّة، لكنّه عندما ذهب إلى حجرته، وجد على فراشه هديّة ملفوفة، وفي داخلها لعبة تركيبيّة كبيرة لخريطة العالم مكتوب عليها باللغة الإنجليزيّة أنّ أمّه أحضرتها له، غمرت وجنتيه دموع الفرحة. هكذا وسّع من ثقافته ودرس في الليل بمساعدة حِيِّيم بلدان العالم، ومواقعها على مجسّم الكرة الأرضيّة، وكذلك عن ثقافتها ولغتها، بعيدًا عن عيني أبيه.

دخلت زوجة الحاخام الحجرة، وعلى الرغم من أنّه كان يبدو عليه الشعور بالارتياح من الدراسة مع يوسف، إلّا إنّها استأذنته في إزعاجه تزعجه وهمست له بأنّ أحد أبناء الطائفة يريد مقابلته على وجه العجل. أعاد العمامة إلى رأسه، وبعدها فقط طلب من زوجته أن تدخله عليه. نظر الرجل إلى يوسف، فقال له الحاخام إنّه مساعده الشخصيّ، ويمكنه قول ما لديه. قال الرجل إنّه جاء لطلب العلاج لابنته، فهي متزوّجة ولديها طفلان، لكنّها منذ عدة شهور لا تشعر أنّها بخير، ولم يستطع كلّ الأطبّاء أن يحدّدوا المرض الذي تعاني منه. لديها آلام في صدرها وفي يدها اليسرى ولا تستطيع القيام بشيء، وتشعر كما لو كانت شمعة تنطفئ. وأحيانًا، قال، لا أستطيع أن أفهم ما الذي يحدث لها، فهي تجلس أمامي تملؤها البهجة والنشاط، ثمّ تصرخ فجأة من الألم، ودفعة واحدة تبدو كالخرقة التي جُفّفت من الماء حتّى آخر قطرة. إنّ هذا يبدو كما لو أنّ أحدًا يلعب بها مثل الدمية، يشغّلها ويوقفها. سأله الحاخام إذا كان الأطبّاء قد فحصوا قلبها، فأجابه بأنّه أخذها الى مستشفى "مئير إلياس"، هناك أجروا لها جميع الفحوصات، لكنّهم لم يجدوا شيئًا. نظر الحاخام إلى يوسف وسأله: "ما رأيك؟". سأل يوسف الرجل: "هل لها أعداء؟" وتذكّر خالته وأعمالها السحريّة. أجاب الرجل: "إنّها متزوّجة وتعيش بسعادة، ولها طفلان ناجحان. ربّما كانت الغيرة سببًا في ظهور الحاسدين؟" فأجاب الحاخام: "إذا لم تكن هناك مشكلة طبّيّة، فهذا شيء ما من العالم الروحانيّ؛ وحسب ما قلت فإنّ هذا أكثر من الحسد. سأصنع لها "تعويذة" [14] ، وسيعود كلّ شيء إلى طبيعته بإذن الله". كتب الحاخام اسمها واسم أمّها في كرّاسة وقال إنّه يجب الصلاة من أجل شفائها الكامل وضدّ من يضرّها. "سأصنع لها "الإصلاح" بنفسي، وستعود كما كانت بعون الله"، قال الحاخام. حاول الرجل أن يعطي الحاخام المال، لكنّ الحاخام رفض وطلب منه التصدّق به على الفقراء كفّارة لابنته. في أثناء الدرس دخل من حين إلى آخر أناس آخرون وعرضوا مشكلاتهم، وكان الحاخام يصغي لكلّ واحد بصبر كبير ويسأل يوسف عن رأيه قبل أن يقرّر ما الحلّ المناسب. تذكّر أمه وقال إنّها مثل الحاخام، تساعد الناس في التغلّب على هؤلاء الذين اشتغلوا في السحر المحرّم، واستغرب لماذا لا يفرح أبوه بصنيعها.

عندما خرج من بيت الحاخام، والسعادة تطلّ من وجهه، شاهد أباه ينتظره خارج باب البيت. "كيف علم أنّي هنا؟ فأنا لم أعد طفلًا يدرس في الكتّاب، وأنا غير محتاج إلى خِلفة ليراقبني ويرافقني من مكان إلى آخر"، قال في نفسه، لكنّه لم يجرؤ على قول هذا الكلام بصوت عالٍ، لأنّه خاف من ردّ فعل أبيه.

حاول أَدْوَر أن يعرف منه ماذا عمل في بيت الحاخام، وأخبره يوسف أنّه تناول العشاء معه.

"ومَن الناس الذين دخلوا بيت الحاخام؟" سأل.

"أناس طلبوا المساعدة"، أجاب باختصار وأخفى عنه ماذا قال له الحاخام.

انتظرت نوريَّة حضورهما، وعندما نظر إليها أدْوَر، قالت له بارتجاف وانفعال إنّ لدى سميرة دلّالة الزواج قائمة بأسماء بنات يناسبن يوسف ويجب أن يختار له عروسًا قبل أن تسحره أختها.

نظر أَدْوَر إليها بغضب. "أيّ سحر في رأسك؟ طلبت منك ألّا تتدخّلي في كلّ ما يخصّ ذلك الولد. أنا فقط المسؤول عنه، وسأجد له عروسًا مناسبة من عائلتي. عليك أن تكوني مثل الخرساء، الطرشاء، والعمياء في كلّ ما يخصّه".

شعرت نوريَّة بالمهانة من كلامه ودخلت حجرتها قبل أن يرى الدموع التي تعلّقت في عينيها. لقد انتظرت طوال النهار مجيئه، مصرّة على منع أختها، هذه المرّة، من المساس به – لكن كيف تساعده، إذا كان من المحظور عليها رؤيته، والاستماع إليه ولمسه؟ دخل يوسف وراءها إلى الحجرة ووجدها تبكي. "أنت جائع؟" مسحت دموعها وأرادت أن تقوم لتعدّ له الطعام. "أكلت. لماذا تواصلين النوم على الأرض ولا تنامين على فراش مئير، أو حِيِّيم؟" سأل.

"أرتاح هنا. هذا أفضل لظهري"، أجابت. لم ترد أن تخبره أنّها ترى مئير وحِيِّيم يعودان إليها أحيانًا وينامان في فراشهما. عانقها ووعدها بأنّه لا داعي إلى القلق عليه، لأنّه لن يحدث له أيّ مكروه. عطف وخوف نزلا عليها لشدّة الدهشة من أنّ ابنها، الذي كان يخجل في الصباح من عناقها، يعانقها الآن، كما لو كان مئير، ويعتني بها كما لو كان حِيِّيم، وامتلأ قلبها بنفحة جديدة من الأمل.

دخل يوسف فراشه، لكنّ دموع أمه منعته من النوم. كان أبوه يحاول أن يحقّق حلمه من خلاله، لكن ماذا عن رغباته هو؟ فهو يقهره منذ سنوات ولا يسمح له بأن يعيش حياته كما يريد. وعندما كان طفلًا منعه من أن يلعب مع أصدقائه وأن يطيّر معهم الطائرة الورقيّة أعلى سطح البيت. بل إنّه منعه من أن يتعلّم السباحة مثل كلّ الأطفال، لذلك هو الولد الوحيد في الزقاق الذي لا يعرف السباحة. لقد قيّده بالتوراة وبعبارة "بل تلهج فيه نهارًا وليلًا"، ولم يترك له الوقت لأمور أخرى. أجل، هو يحبّ دراسة التوراة المكتوبة، والمشناة، والتلمود والمدراش. لكن، هل يحتاج إلى أن يجلس مع أبيه ويراجع معه كلّ ما درسه في ذلك اليوم؟ من حُسن الحظّ أنّه لم يخبره بدراسة القبلاه – وإلّا لكان عليه أن يدرس معه، وأنّ الحاخام قد منعه من نقل هذه المعرفة لمن لا يعتبر في نظره نابغة في التوراة! قطّب جبينه عندما تذكّر كلام أبيه – أنّه سيختار له زوجة فضرب الفراش بقبضته.

ولأنّه كان من الصعب عليه النوم، استيقظ يوسف متأخّرا في اليوم التالي، وغضب أَدْوَر من بطئه.

"سأتأخر عن العمل بسببك"، صرخ فيه.

"ليس عليّ أن أصل قبل ساعتين من الوقت، قبل الجميع، فقط لأنّك تريد الذهاب إلى العمل. أنا في السابعة عشرة وأستطيع الذهاب إلى المدرسة الدينيّة بمفردي"، أجابه يوسف. ولم يصدق أَدْوَر ما تسمعه أذناه.

"سنخرج خلال خمس دقائق"، حثّه أَدْوَر.

"لن أخرج خلال خمس دقائق، لأنّه يجب أن آكل. اليوم الخميس وأمامي يوم طويل".

لأوّل مرّة في حياته يجرؤ يوسف ويصرّ على رغباته، وكان يبدو أن الحبل المربوط حول رقبته قد حُلّ بعض الشيء. خافت نوريَّة أن يضربه أَدْوَر، لكنّها لم تجرؤ على الوقوف بينهما- كي لا يخرج غضبه فيها. نظر أَدْوَر إلى الساعة بتذمّر، وتناول يوسف فطوره بهدوء عجيب، كما لو كان العالم قد توقّف عن السير بالنسبة له. وفي هذه الأثناء نقر بأصابعه نغمات قصيدة دينيّة دندن بها في رأسه. ما زالت نوريَّة متأثّرة من عناق ابنها لها، ولم تفهم ما الذي جعل يوسف يتغيّر بين عشيّة وضحاها، وأكثر ما كان يزعجها أين أكل بالأمس. لقد خافت من أن تكون أختها قد سحرته لذلك يتجرّأ على التصرّف بوقاحة مع أبيه.

استمرّ أبوه في حثه، لكنّه واصل تناول الطعام بوتيرته هو، حتّى نفد صبر أدْوَر وقام وترك البيت. اقتربت من يوسف ونظرت في عينيه ورأت أنّه ينظر إليها نظرة مركّزة ويقظة.

"أين أكلت بالأمس؟" سألته.

"عند الحاخام ناوي"، أجابها بفخر، فهدأت.

"أكان أبوك معك؟" سألته، فقال إنّه كان بمفرده.

استغربت وأرادت مواصلة الحديث معه، لكنّه بعد أن ذهب أَدْوَر أكل بسرعة ما تبقّى في طبقه، وأسرع في ارتداء ملابسه، كي يلحق صلاة الفجر وإخراج كتاب التوراة.

في طريقها إلى زيزي، مثل كلّ يوم خميس، كانت نوريَّة منزعجة من الأفكار ومرت على الباعة المتجوّلون والناس كما لو كانوا خلفيّة بشرية باهتة لا أهمّيّة لها. كان بالها مشغولًا بيوسف. هل القدر يضلّلها ويختبرها؟

"لقد أردت أن ينجح مئير ويكون محاميًّا كبيرًا ويتزوّج بامرأة مثقفة مثله. كان ذلك كلّ حلمي، لكنّني لم أفرض نفسي عليه أبدًا، ولم أسيطر على حياته، ولم أحاول تحويله إلى شخص على شاكلتي وفي صورتي، مثلما يصنع أدْوَر مع يوسف. فمنذ أن كان صغيرًا وهذا الولد يتوسّل إليّ أن أنقذه من يد أبيه، لكن لم يكن باليد حيلة. والآن يحكم عليّ أيضًا أن أبتعد عنه، ويقرّر أنّه سيختار له عروسًا من عائلته. مَن عائلته؟ أنا متزوّجة منه منذ أكثر من عشرين سنة ولم أشاهد أحدًا من عائلته. ابني لديه مشاعر ورغبات، وهو الذي يجب أن يختار عروسه لنفسه. ماذا يجب أن أفعل؟ أعترض وأستفزّ القدر مرّة أخرى، أم أصمت وأتركه في يد أدْوَر؟ "سألت زيزي: "ماذا يقول يوسف عن ذلك؟" وأجابتها نوريَّة: "اليوم كانت المرّة الأولى في حياته التي يجرؤ فيها على الإصرار على رأيه أمام أبيه. أنا لا أعلم ماذا يدور في رأسه. فهو يبدو لي هادئًا ومطمئنًّا جدًّا"، ضحكت عندما وصفت لزيزي كيف أكل يوسف ببطء وكاد أبوه ينفجر من الغيظ. سعدت زيزي بسماع صوت ضحكة نوريَّة مرّة أخرى، تلك الضحكة التي لم تسمعها منذ زواج مئير.

لكن يوسف كان يشتعل من داخله، فقد واصل التفكير، غير مرتاح، في الطريقة التي يختار بها حياته. كانت المواجهة مع أبيه في نظره إعلانًا عن استقلاله. وبالطبع كان أخوه حِيِّيم سيفتخر به، لكنّه لم يضمر الضغينة لأبيه، واحترم المعرفة والمكانة الخاصّة التي حظي بها بفضل حرصه وإصراره. وفي طريقه إلى المدرسة الدينيّة شدّت انتباهه نغمات عزف ضعيفة، جذبته إليها وشوّشت على تفكيره. وكلما استمرّ في تتبع النغمات، اتّضحت له أكثر حتّى وجد نفسه يقف تحت شباك العازف المجهول.

لقد أحبّ جدًّا ترتيل الصلوات والقصائد الدينيّة مع جمهور المصلين في الكنيس، حتّى وإن كان هناك نشاز ولم يُحفظ التناغم بين الأصوات، لأنّ كلًّا منهم غنّى اللحن بإيقاع مختلف وبقدرته الخاصّة. لكن هذه المرّة جعلته النغمات ينعم بالطرب لأوّل مرّة في حياته، ذلك السموّ الروحانيّ عندما يعزف اللحن في رأس السامع ويتوغّل في كلّ نفسه. لم يستطع فهم كيف أنّ مثل هذا اللحن النقيّ يمكن أن يؤثّر فيه ويسمو بروحه أكثر من أيّ قصيدة ثناء وتوسل إلى الله. النغمات العذبة لفّت جسمه كلّه وأنسته مشكلاته للحظة، غير إن صوت المؤذن الذي يصمّ الآذان أخرجه من الهدوء الذي أحاط به، وأسرع إلى الذهاب إلى المدرسة الدينيّة ليصل قبل إخراج كتاب التوراة من خزانة الكتاب المقدّس.

لكن اللحن لم يتركه. فقد رافقه في صلاة الفجر، وفي قراءة التوراة، وعندما قرأ بتأكيد خاصّ على عبارة "من فضلك بقوّة عظمة يمينك حِلّ المربوط"، وطلب من الله بكلّ قلبه أن يزيل القيود التي فرضها أبوه عليه. وصرخ أحيانًا بقوّة "تقبّل استغاثتنا، واسمع صراخنا"، كي يقبل الله تضرّعه. وعندما انتهت صلاة الفجر نظر يوسف في كتاب □لِكْمَارَا الذي كان موضوعًا أمامه وفكّر إذا كان يريد أن يقضي بقيّة عمره

بين الكتب المقدّسة ودور العبادة والمدارس الدينيّة. مجرّد السؤال نفسه جعله يرتعد ويفزع. "هل بذور الكفر قد نبتت في داخلي؟ فها أن قد تجرّأت على السؤال بعد موت أخي إن كانت هناك عدالة إلهيّة! وماذا عن الدور الذي يتنبّأ به الجميع لي؟" ارتجف في داخله.

كلّما مرت الساعات خَفَتَ صوت اللحن حتّى اختفى تمامًا. وما تبقّى في داخله كان الرغبة في التمرّد على الإطار الذي بناه له أبوه. وقف الحاخام ناوي أمامه، ولم ينتبه يوسف نهائيًّا عندما توجّه إليه بالسؤال. فقام وخرج من المدرسة الدينيّة، يحاول أن يتذكّر مرّة أخرى نغمات اللحن، الذي أنساه مشكلاته. ناداه الحاخام مرّة أخرى، لكنّه لم يكن معه. فقد حملته قدماه إلى أسفل شبّاك بيت العازف، هذه المرّة سمع نغمات من آلات وتريّة أخرى. وسعد بسماع نغمات القانون والعود، لكنّه تأثّر بعزف الكمان الذي توغّلت في جوارحه أكثر من أي شيء.

لفحت الشمس رأسه، لكنّه استمرّ في الوقوف تحت شبّاك بيت العازف وشعر بأنّ روحه تتطهّر وتطيب بسماع العزف. وفجأة توقّفت الموسيقى. وانتظر فترة طويلة، متعطّشا إلى عزوفات أخرى، لكن عندما أدرك أنّها لن تعود ترك المكان وعاد إلى بيته.

فوجئت نوريَّة عند عودتها من لقائها بزيزي، بمشاهدة يوسف في البيت في ساعة مبكّرة، واعتقدت أنّه ربّما كان مريضًا لا قدّر الله. فوضعت يدها على جبينه وهدأت عندما لم تجد به حرارة. كانت عيناه مركّزتين تلمعان، ملؤهما الهدوء.

"أكلْت؟" سألته، فأومأ برأسه.

"لقد وجدت وميض حياتي"، حكى لها بحماسة، لكنّها لم تفهم عمّا يتحدث. "الموسيقى، يا ماما. مثل الجمر في أحشائي. لقد لفّت النغمات كلّ جسمي وأنستني مشكلاتي. يجب أن أتعلّم كيف يخرجون هذه النغمات الإلهيّة من الكمان"، قال وعانقها من شدّة السعادة.

"أيّ مشكلات لديك؟ أجننت؟ ماذا هذا الهراء؟ احذر أن يسمع أبوك كلامك"، فزعت وقالت في نفسها إنّه يجب أن يتزوّج في أسرع وقت.

كان ردّ أمه التي كانت قبل لحظة تحيطه بالدفء وجعلته يحنّ إليها كالطفل؛ محبطًا له لأنّه كان يتمنّى في داخله أن تسانده. غطّى القلق وجه نوريَّة، وعندما أعدّت الكچري وطعام يوم السبت، حاولت استرجاع كلامه وفهمه. "أيّ مشاكل لديه؟ مئير وحِيِّيم كان لديهما مشاكل. السحر والمرض قطعا حياتهما قبل أن يستطيعا الضرب بجذورهما فيها. علاوة على ذلك، فقد تنكّر لهما أبوهما طوال حياتهما، لكنّه تعامل معه بطريقة مختلفة وكرّس له كلّ انتباهه...". انفلتت صرخة منها، عندما جرحت السكّين إصبعها واختلط الدم باللحم الذي قطعته. قفز يوسف إليها وفزع عندما رأى الدم ينزف من يدها. حاول تهدئتها وطلبت منه أن يقشّر حبّة بطاطا ويضع بعضها على إصبعها كي يوقف النزف.

شعر يوسف بتحسّن عندما شاهد حنيني أمامه وطلب منها أن تساعده. فذهبت على الفور لغسل يد نوريَّة، وهدأت عندما رأت أن الإصبع مكتمل وأن الجرح غير عميق. وجّهتها نوريَّة لطريقة عمل خليط من نباتات الحديقة، وربطت الخليط على الجرح حول إصبعها بقطعة قماش، ثمّ أعدّت لنوريَّة كوب تشاي وذهبت لإعداد طعام السبت. جلس يوسف أمام أمّه، وفحص إصبعها ليتأكّد من أنّ النزف قد توقّف. امتلأ قلبه ندمًا. وشعر أنّها أصيبت لأنه غضب منها في داخله، ورجا الله أن يحفظ أمّه من كلّ سوء، قبل أيّ رجاء آخر، توجّه فيه إلى الله خلال اليوم.

نظرت نوريَّة إلى حنيني في الوقت الذي قدّمت لهما الكچري على الطاولة ونادتهما لتناول الطعام. "ماذا اقترفت حنيني في حياتها كي يحكم الله عليها بمصير أسود من السواد، من دون خلاص؟" فكّرت في ابنة

أخيها ودمعت عيناها.

"أنت ابنتي"، قالت نوريَّة فجأة، وتذكّرت وحيدة عندما قالت لها كلمات مشابهة، ونظرت إليها حنيني بعينين متسائلتين.

أحضر يوسف كتاب التلمود وجلس لمراقبة أمّه في حجرة الضيوف. أغمضت نوريَّة عينيها، وظهر أمامها الخروف، الذي ذُبح بمناسبة رأس السنة، ودمه يسيل على الأرض. تذكّرت أنّها تطرّقت إلى الخروف كما لو كان أنثى، لأنّها اعتقدت أنّ النعجة المساقة إلى الذبح هي كالنساء في المجتمع الذي نشأت فيه. لكنّه الخروف الذي ذُبح في بيتها وأدركت أن المجتمع الذي تعيش فيه، المحبوس في أزقّة الحيّ القديم، يفرض على كلّ أفراده، ذكورًا وإناثًا، نمطَ حياةٍ قاسيًا لا يسمح بحرّيّة التعبير أو الاختيار، حفاظًا على نفسه من التأثيرات الخارجيّة. وكما في الدائرة المغلقة فإنّه من المنتظر من الأبناء أن يقبلوا سيادة من هم أكبر منهم، رجال الحرس القديم، الذين كان آباؤهم يسيطرون عليهم بالأمس – وكلّ شيء تحت شعار احترام الأكبر منك. لذلك فمن المنتظر أن يتحدّث الجميع اللغة نفسها، ويرتدون أزياء متشابهة، ويتناولون الطعام نفسه، ويعيشون نفس التجارب المشتركة – رغم أنّ الحياة في الخارج قد تغيّرت، وأصبح الناس في كلّ العالم يقاومون أنظمة الحكم القديمة لينالوا الحرّيّة، والاستقلال. حتّى إنّ العراق سيحتفل عمّا قريب بمرور سنتين على استقلاله بعد تحرّره من نير الأتراك أوّلًا، وبعده من الحماية البريطانيّة. "وكلّما واصلنا العيش بهذا الشكل الذي عاشه أجدادنا، فإنّ مصير يوسف وحنيني سيكون متشابهًا، ولا يهمّ إذا كان الحديث عن ولد أم بنت. لقد أخطأت عندما اعتقدت حتّى الآن أنّ مصير البنات فقط هو السيّئ. فقد فرض يعقوب على حنيني الزواج من فؤاد – على الرغم من أنّه لا يناسبها؛ وأَدْوَر يريد أن يفرض على يوسف امرأة لا يعرفها ويدير حياته حسب رغباته، متجاهلًا طموحات يوسف أن يكون سعيدًا"، فكّرت وعينيها مغمضتين، وتذكّرت أنّ عزيزة، مثل أمّها رحمة إم كِلُّو علمت بكلّ ما يدور حولها، وأخبرتها أن يكتوريا، الابنة الكريمة للحاخام ساسون خضوري، التي كانت معروفة بأنّها فتاة مستقلّة وعارفة – بل أنّهم قالوا عنها أنّها تجرّأت على لبس البنطلون وركوب الخيل – قد تزوّجت هذا الأسبوع، بخلاف رغبتها، من رجل ثري ونبيل، يكبرها بخمس عشرة سنة. قامت من فراشها فجأة، وقفز يوسف من كرسيّه نحوها. "سأساعدك على تحقيق حلمك – أن تدرس العزف، ولا يهمّني ماذا سيقول أبوك. أهمّ شيء أن تصبح سعيدًا"، قالت له.

دخل أَدْوَر البيت غاضبًا، بعد أن اكتشف أنّ يوسف ترك المدرسة الدينيّة بعد صلاة الفجر.

"كنت أعرف أنّه لا يجوز عليك أن تذهب من دوني. ماذا أدخلت أمّك في رأسك عندما لم أكن هنا؟" رفع يده ليضرب نوريَّة، لكنّ يوسف أمسك يده.

"سأحطم يديك إذا رفعت يدك لتضربها"، قال بغضب دافعًا يد أبيه.

كان أَدْوَر مذهولًا من كلام ابنه، الذي لم يجرؤ أبدًا على رفع عينيه فيه. تطايرت عينا نوريَّة غضبًا، وقالت لنفسها هذه المرّة إنّه إذا ضربها أو ضرب يوسف، فسوف تضربه هي الأخرى، وليكن ما يكون، فلو طلّقها، ستساندها زيزي.

"لماذا تركت المدرسة الدينيّة مبكّرا؟" سأله مرّة أخرى، وأخفى يوسف الحقيقة عنه، وأجابه أنّه لم يشعر بأنّه على ما يرام. "سامحني، يا الله، لا يمكنني الإخبار بما شعرت به اليوم، لأنّه لا يدرك أنّ هناك حياة غير "تلهج فيه نهارًا وليلًا"" ، قال في نفسه واستمرّ في التعمّق في كتاب لِجَمَارَا. سُمعت طرقة على الباب، ووقفت بالباب فتاة غريبة لم ترها نوريَّة أبدًا.

"أنا سارة ابنة الحاخام ناوي. لقد أرسلني لأطمئنّ على تلميذه"، قدّمت نفسها، وداعب صوتها اللطيف نوريَّة. وذكّرها وجهها الرقيق وعينيها الطيّبتين بحنيني على الفور. دعتها نوريَّة إلى الجلوس معهم في

حجرة الضيوف، لكنّها وقفت عند مدخل الحجرة وخجلت من الدخول عندما شاهدت أدْوَر ويوسف. دُهش يوسف لرؤيتها وسأل إذا كان كلّ شيء بخير عند الحاخام.

"أرسلني أبي لأطمئنّ عليك"، قالت من دون أن تنظر بعينيها إليه. لم تفهم نوريَّة لماذا أرسل الحاخام ابنته، وليس أحد تلاميذه أو مساعديه.

"أنا الآن بخير"، قال لها يوسف، متأثِّرا برؤيتها مرّة أخرى. دهشت نوريَّة من أنّ يوسف يعرفها، وتذكّرت أنه تناول الطعام في بيته بالأمس. "سأعود لأبشّر أبي بالبشرى الطيّبة، لأنّه يبدو قلقًا للغاية"، أجابت وأرادت المغادرة، لكنّ يوسف أوقفها وقال لها إنّه سيصحبها إلى بيتها. خرجت حنيني من المطبخ وقالت ليوسف أنّها ستأتي معهما؛ فقد خافت من النمّامات كي لا يغتبن ابنة الحاخام. وقف أدْوَر متسمِّرا في مكانه، ولم يفهم ما الذي يحدث أمامه.

حاولت نوريَّة تشجيعه كي لا يغضب من يوسف عندما يعود وقالت له: "الحمد لله! أرأيت كم هذا الولد مهمّ بالنسبة للحاخام؟ فقد أرسل ابنته إليه لشدّة قلقه عليه". لكنّ أدْوَر كان منزعجًا من أنّه يفقد السيطرة على يوسف لدرجة أنّه لم يستطع أن يهينها أمامه كعادته، فدخل حجرته.

عجزت الأرض أن تحمل يوسف من شدّة سعادته. فأحداث اليوم أثارت فيه الكثير من المشاعر. الموسيقى، وابنة الحاخام معًا، وفارق النوم جفونه مرّة أخرى. "إن الله يحبّني"، همس لنفسه. واستيقظ بصعوبة في الصباح، وتوسّلت إليه نوريَّة ألّا يوتِّر علاقته بأبيه، وأن يذهب معه كعادته إلى المدرسة الدينيّة. بل أنّها عادت ووعدته بأنّها ستهتمّ في الأسبوع المقبل بموضوع الموسيقى. قفز من الفراش وقبّل أمّه، وغمر نوريَّة إحساس لطيف وبهجة من القرب الزائد الذي أظهره ابنها الصغير تُجاهها في الأيّام الأخيرة.

في صباح يوم الأحد ذهبت نوريَّة إلى زيزي فوجدتها تبكي في غرفة عملها. وضعت نوريَّة يدها على كتف زيزي، وقفزت من مكانها لا تفهم ماذا تصنع نوريَّة في حجرتها.

"هل حدث مكروه ليوسف؟" سألت بدهشة.

"هو بخير. لماذا تبكين؟" سألتها نوريَّة.

"لا شيء، أحيانًا أجلس وحدي، وتنزل الدموع من عيني"، أجابت.

لكنّ كلامها لم يقنع نوريَّة. فقد رأت على مكتبها رسائل حِيِّيم، وسألتها بإلحاح: "أتبكين بسبب رسائل حِيِّيم؟".

"أجل، أنا أقرأ مرارًا وتكرارًا الفصول التي أرسلها إليّ حِيِّيم من الكتاب الذي بدأ بكتابته. ووصف بشكل رائع العلاقات داخل عائلتكم، ويؤلمني أنّه لم يستطع تحقيق حلمه ليكون كاتبًا. أتعلمين إن كان حِيِّيم أحضر معه الأوراق التي كتب فيها كتابه؟ ربّما كتب فصولًا أخرى؟" سألت.

"لم يُحضر شيئًا معه – باستثناء ملابسه وكتاب واحد لشاعر لبناني. حتّى حنيني سألتني إن كان أحضر الكرّاسة معه، فلم نجد شيئًا في أغراضه"، أجابت نوريَّة.

"في رحلتي التالية للبنان سأسأل مدير المصحّة إذا كان حِيِّيم قد ترك كرّاسات هناك. يجب أن أكمل كتابه وأنشره. لقد كتب بأسلوب جميل للغاية، وخسارة ألّا يتعرّف أحد على عمله"، قالت زيزي بعينين لامعتين.

احتضنتها نوريَّة وقالت لها: "لم نستطع تحقيق حلم مئير، لكنّه خلّف لنا ابنة على الأقلّ؛ أما حِيِّيم فلم يترك ذكرى، ربّما الكتاب...". لم تستطع إكمال العبارة، وذرفت عيناها الدموع عندما ظهرت الحقيقة المرّة على وجهها كالسكّين الحادّة. إنّ فرع ابنها سيظلّ أبتر من دون أن تنبت فيه براعم جديدة. انتقلت دموعها إلى

زيزي أيضًا، وعندما هدأت سألتها عن سبب زيارتها، فأخبرتها نوريَّة بحلم يوسف بتعلّم العزف على الكمان.

"أخبار طيّبة، أخيرًا"، قالت بابتسامة ودخلت حجرة زوجها. وخرجت بعد عدة دقائق، وبيدها كمان. "هذا هديّة من زوجي ليوسف. وسيتحدّث اليوم مع صديق له، موسيقي يهوديّ معروف يدعى يوسف زعرور، يعزف جيِّدا على الآلات الوتريّة، وسيطلب منه تعليم يوسف العزف على الكمان".

انفعلت نوريَّة جدًّا من كلمات زيزي: "لقد أرسلك الله إليّ لأعلم أنّه ما زالت هناك أشياء طيّبة في حياتي".

.22

بدأ يوسف بتعلّم العزف عند الأستاذ يوسف زعرور، الذي ذاع صيته كأفضل عازفي القانون في العالم العربيّ، حتّى أنّه عزف أمام عظماء الغناء العربيّ، عبد الوهاب وأم كلثوم عندما أحيا حفلات في العراق. دهش من رؤية الموسيقيّ يعزف على جميع الآلات الوتريّة من ذاكرته من دون النوتات الموسيقيّة. أخبره الأستاذ كيف استحوذت الموسيقى على حياته منذ نعومة أظفاره، وكيف أنّه في سنّ الثامنة صنع لنفسه آلة عزف أشبه بالقانون، لكنّ أباه أخذها منه؛ لأنّه خشي أن يؤثّر ذلك في دراسته. غير أنّ رغبته القويّة في العزف تغلّبت على أبيه، وصنع بنفسه قانونًا آخر أفضل من الأوّل. وفي سنّ الرابعة عشرة انضمّ إلى فرقة كانت تغنّي في الأفراح. وفقط في سنّ الثامنة عشرة اشترى قانونًا حقيقيًّا، جعله يتقدّم في عزفه. إنّ مواظبة الأستاذ على عمل ما يحبّه ونجاحه في بناء اسمٍ لنفسه كموسيقيّ كبير في العراق وخارجه، أثار إعجاب يوسف، لكنّه لم يعتبر الموسيقى بالنسبة له طريقًا لحياته، بل وسيلة للراحة النفسيّة كي يستطيع أن يكرّس حياته للدراسة والانشغال بالتوراة مثل الحاخام ناوي.

كان الأستاذ سعيدًا بقدرة يوسف على إمساك الكمان بشكل سليم خلال فترة قصيرة، وكذلك بأذنه الموسيقيّة – على الرغم من أنّ تجربة التلميذ الموسيقيّة لم تتعدّ ترتيل أدعية السبت في الكنيس. كما لم يكن هناك أسعد منه، عندما نجح يوسف في العزف بالقوس على أوتار الكمان وأن يخرج منها سريعًا نغمات رقيقة بدلًا من الأصوات التي تصمّ الآذان ذات الصرير المزعج، تلك التي ميّزت أيّام عزفه الأولى.

نظر يوسف إلى أبيه في الوقت الذي كانا يسيران فيه نحو البيت في نهاية اليوم الدراسيّ في المدرسة الدينيّة. وعكّرت نظرة أبيه العابسة مزاجه لوهلة، لكنّه أفاق على الفور وبدأ يدندن في رأسه أنغام اللحن الذي درسه في استراحة الظهيرة ليبعد عنه الروح الكئيبة لأبيه.

وكلما تطورت قدرته الموسيقيّة وزادت معرفته بأسرار القبلاه، تعمّق إدراكه بأنّ هناك ألوانًا أخرى ومتنوّعة في الحياة، وأنّها لا تدار بالأبيض والأسود فقط. لذلك قرّر ألّا يسمح لأبيه بالاستمرار في تشكيل حياته على هيئته عديمة المشاعر والموجّهة وفق أسس "افعل ولا تفعل". وأقنع نفسه بأنّ هذه المعارضة لا يمكن أن تُعدّ مساسًا أو خرقًا لفريضة "احترم أباك"، بل على العكس، فإنّ حياته الجديدة سوف تساعده في تطهير روحه، وتجهّزه بصورة أفضل لتطوير مستواه الروحانيّ وتحويله إلى حاخام كبير في التوراة وأسرارها. لقد أدرك أنّه لكي يتمكّن من التحكّم بحياته وتوجيهها إلى الطريق السليم، فإنّ عليه التشاور مع الحاخام ناوي، الذي كان بالنسبة له رجلًا متنوِّرا ومتسامحًا. كان الحاخام ناوي من أنصار تعليم البنات بالعلم الحديث – على الرغم من وجود معارضين له– وضرب مثالًا بذلك عندما أرسل ابنته سارة للدراسة في مدرسة للبنات. علاوة على ذلك، فقد أدرك أنّ عليه التغلّب على خجله والحديث مع أمّه عن سارة، قبل أن يفرض عليه أبوه عروسًا لا يعرفها.

أمّا أَدْوَر فلم يستطع التفكير في أيّ شيء آخر سوى الصوت الداخليّ الذي تردّد في رأسه بلا توقّف وحذّره من فقدان السيطرة على يوسف. هو لم يفهم لماذا يدعو الحاخام ناوي يوسف إلى بيته من دون أن يطلب الإذن منه، وقرّر أنّ عليه أن يضع حدًّا لهذا الوضع، وقرّر أنّه في صباح الغد سوف يتحدّث مع الحاخام وسيخبره أنّه لن يسمح له بمقابلة يوسف خارج المدرسة الدينيّة من دون أن يكون معه. فقد سئم الانتظار خارج البيت بالساعات، يراقب توافد الناس إليه. ملأت ابتسامة يوسف المتكبّرة قلبه غيظًا، وعندما وقف أمامه بائع خردة وحاول إقناعه بالشراء من بضاعته أبعده عنه بالقوّة. سقط البائع وتناثرت كلّ بضاعته على الأرض، لكن أَدْوَر لم يُعِر ذلك انتباهًا، وواصل طريقه ويوسف يناديه بأن يتوقّف. أدرك يوسف أنّ عليه الحديث مع الحاخام ناوي في أسرع وقت، قبل أن يفقد أبوه السيطرة على نفسه.

في اليوم التالي جلس يوسف أمام أبيه عند تناول الفطور وهو ينقر بأصابعه على المائدة اللحن الذي تعلمه خفية وفكّر في سارة. نظر إليه أَدْوَر، وأثارت حركات يده غضبه. فأخذ مسطرة، ومثل المعلم الذي يعاقب تلاميذه، رفع يده لضرب أصابع يوسف؛ لكن يوسف استطاع تحريك يده، وكُسرت المسطرة على الطاولة. قفزت نوريَّة فزعة من مكانها، وصرخ أَدْوَر: "كفى".

"ماذا صنعت لك؟" صرخ يوسف، ولم تعرف نوريَّة ماذا تفعل وخشِيت أن يضرب أَدْوَر ابنها.

"أنت تثير جنوني بهذا النقر بأصابعك؛ وزد على ذلك، لماذا لا تحكي لِي عمّا تفعله في بيت الحاخام؟ ماذا يعلّمك؟ ماذا عنّي؟ ولماذا لم يعد لديك وقت من أجلي؟" صرخ فيه أَدْوَر وأخرج ما تراكم في قلبه في الأسابيع الأخيرة.

دخلت حنيني فجأة إلى الحجرة والتفتت الأنظار إليها. قالت لنوريَّة بقلق إن ليلي مريضة منذ أسبوع وكلّ التعويذات التي تصنعها لها مريم لا تُجدي نفعًا. رفع أَدْوَر يده مستهزئًا.

"الساحرات يعرفن فقط كيف يلحقن الضرر لا أن ينفعن"، قالت نوريَّة وتوجّهت لتصنع لحفيدتها دواء من العسل، والثوم وأنواع من العطارة، لتساعدها في الشفاء. لقد عرفت أنّها لن تستطيع أن تعطيها الدواء بنفسها أو أن ترسله مع حنيني. وعلى الرغم من أنّها كانت تخشى من أن يقابل يوسف بِيرْطَة، طلبت منه أن يأخذ الدواء إلى ليلي، من أجل مئير، فلا بديل سواه. غضب أَدْوَر منها لأنّها تضيع وقته وتُعطّله عن دراسة التوراة، لكنّ يوسف قام من مكانه وقال إنّ بما أنّ الأمر يتعلّق بفريضة عيادة المرضى- بل من الممكن أيضًا إنقاذ نفس- فليس في ذلك تعطيل لأوامر التوراة.

"الله سبحانه وتعالى، زار سيّدنا إبراهيم بعد أن ختَنَ نفسه، لما ورد: "وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا ". لهذا فنحن، بنو البشر مأمورون بفريضة عيادة المرضى"، ولم يهمّه هذه المرّة إذا كان يُخجل أباه أو يطغى عليه بحكمته.

نظر أَدْوَر إلى ابنه بعجب ولم يفهم ماذا يدور في رأسه، ويجعله يعمل على عكس رغبته منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه يعقوب بفكرة زواج اليِبُّوم (الزواج من أرملة الأخ). فكّر في نفسه بأنّه ربّما تكون نوريَّة محقّة في كلامها – وأنه يجب تزويجه قبل أن تضرّه مريم. وقرّر أن يذهب في المساء إلى بيت عمّه ليطلب منه أن يجد ليوسف عروسًا من بنات العائلة.

منظر يوسف الذي يستأذن بدخول بيتها، فاجأ بِيرْطَة. فليس أنّه لم يزرها أبدًا فحسب، بل إنّ مجيئه الآن على وجه الخصوص، عندما رُفض طلب خالها من أبيه بتزويجه لها، أربكها أيضًا. حتّى مظهره فاجأها. فالعباءة والروب التقليديّ والشعيرات الذهبية التي زيّنت ذقنه قد أنضجته قليلًا، ورأته أمامها رجلًا صغيرًا وسيمًا- ليس الفتى الذي عرفته. وفجأة انتفضت فيها المشاعر التي سيطرت عليها عندما اشتهت مئير قبل أن تتزوّج منه. فاقتربت منه وقامت بتمرير يدها على ثوبها لتبرز مفاتنها.

"تبدو جيِّدًا في هذه الملابس – على الرغم من أنّه يناسبك أكثر ارتداء بدلة مثل الأفنديّة. متى استطعت أن تطلق لحيتك؟" تحدّثت إليه بصوت فيه ميوعة، وهي تنظر إليه بعينيها.

لكنّ يوسف تجاهل كلامها وأعطاها الدواء.

"أعدّت أمّي هذا الدواء لمساعدة ليلي في مرضها"، قال بصوت عميق لم تكن فيه أيّ مشاعر.

عبس وجهها عندما سمعت عن أمّه، وأخذت من يده الدواء بعدم رضًا، وتوجّهت لإغلاق الباب.

قال لها: "أيمكنني رؤية ليلي؟". فتحت الباب بتردّد، وأرشدته إلى حجرة الطفلة.

دخل يوسف الحجرة وفزع ممّا رآه: الطفلة ممدّدة في فراشها بلا حول ولا قوّة. كانت شاحبة وأنحف من ذي قبل، وتنادي أباها طوال الوقت. اقترب منها وضّمها إليه. تسلّلت بِيرْطَة وراءه فسمع وَقع خطواتها.

"أتعديني بأن تعطيها ما أرسلته لها أمّي؟ هذا سيساعدها. خسارة أن تبقى مريضة"، قال متوسّلًا إليها.

"مرض ليلي هو موت أبيها. إنّها تشتاق إليه، على الرغم من أنّه لم يهتمّ بها أبدًا ولم يحملها بيديه ولو لمرّة واحدة"، قالت بمرارة.

احتار يوسف هل يردّ على إهانتها لأخيه الميت، لكن في اللحظة نفسها دخلت مريم ونعيمة بيت بِيرْطَة ومعهما سلّة من التفاح والبرتقال. خرجت بِيرْطَة إليهما، وودّع يوسف ليلي بقبلة. اندهشت خالتاه برؤيته وطلبتا منه أن يجلس معهما، لكنّ يوسف رفض عرضهما بأدب قائلًا إن عليه الإسراع إلى المدرسة الدينيّة. مع ذلك طلبت منه مريم الجلوس، وأسرعت إلى غسل عدّة تفّاحات ووضعتها على المائدة، وقدّمت واحدة منها ليوسف.

"هذه فرصتي للتأثير فيه ليتزوّج بِيرْطَة. تعلمين أنّه لم يوافق أحد من العرسان الذين أحضرهم الخاطب، على الزواج منها عندما علم أن لديها ابنة"، همست مريم لأختها، في الوقت الذي غسل فيه يوسف يديه وبارك على أكل التفاحة. حاولت نعيمة إثناءها وقالت لها إنّه لن يوافق أيّ حاخام على تزويجها منه لأنّها محرّمة عليه، لكنّ مريم رفضت السكوت.

"أنت بالطبع تضعين عينيك عليه من أجل دوريس. لابنتي حقّ الأولويّة فيه، ولا تتدخّلي"، همست لها بنبرة مهدّدة.

عندما أنهى يوسف المباركة، سألته مريم عن حال أبيه وتجاهلت السؤال عن أمّه. أومأ يوسف برأسه وقال لها إنّ أمه أيضًا بخير. شعر بعدم الراحة لوجوده مع خالتيه، لأنّه وعد أمّه أنّه لن يجلس معهما أبدًا، لذلك قضم بعض اللقم الكبيرة من التفّاحة وهو يجيب عن أسئلتهما. وفجأة حُشرت في حلقه قطعة تفّاح أراد بلعها. شعر بالاختناق وأسرع إلى الحوض من أجل بصق بقايا التفّاح. فزعت نعيمة وقامت من مكانها لتساعده، وفتحت صنبور الماء على رأسه. أشار لها يوسف بيده أن تتوقّف، لكنّها أصرّت على أمل أنّها تخفّف عنه بهذه الطريقة. أدخلت رأسه تحت الماء، فسقط على الأرض.

"ماذا صنعت؟ الآن قد تورّطنا مع أَدْوَر، وليس فقط مع الملعونة"، صرخت مريم.

"أقسم بحياتي أنّني لم أصنع له شيئًا! اعتقدت أنّ الماء سيساعده"، شدّت شعرها فزعة وبدأت في اللطم على وجهها وصدرها.

حنيني التي كانت تحرس يوسف خارج البيت، فزعت عندما سمعت الصراخ فدخلت مسرعة. لم تتوقّع هذا المشهد: يوسف مبلّل كلّه، وممدّد على الأرض ويديه إلى جانبه. اقتربت منه ووجدت أنّه لا يتنفّس.

"ماذا صنعتما؟ قتلتماه؟ ممّا مصنوع قلبيكما؟" صرخت فيهما، ومن دون انتظار ردّهما ركضت نحو بيت نوريَّة وأخبرتها بما حدث. عندما سمع أَدْوَر أن يوسف مات، أنّهار على الأرض، وبقيت نوريَّة مرتبكة تمامًا بلا حول ولا قوّة. هل تهتمّ بأَدْوَر – أم تركض ليوسف؟ حثّتها حنيني على الذهاب وقالت لها أنّها ستستدعي الطبيب ليعالج زوجها.

في الوقت الذي طلبت فيه نعيمة من مريم وبِيرْطَة أن تساعداها في تجفيف يوسف ووضعه على الأريكة، دخلت نوريَّة كالعاصفة إلى بيت بِيرْطَة. أسرعت إلى يوسف الذي كان ممدَّدا بلا حراك، اقتربت منه وتوسّلت إليه أن يصحو ويعود معها إلى البيت:

"أخطأت عندما أرسلتك إلى هنا. كان عليّ أن أفكّر أنّهما ستأخذانك أنت أيضًا منّي"، صرخت وهي تخدش

وجهها وتشدّ شعرها. دخل الطبيب وأشارت نوريَّة إلى أختيها.

"لقد قتلتا الولد. قتلتا جميع أبنائي"، وانقضّت على نعيمة ومريم تريد أن تصبّ جامّ غضبها عليهما.

بدت نعيمة مرتبكة ولا تفهم ماذا يحدث. نظرت إلى يديها ولم تصدق أنّها قتلت يوسف بهما. احتبس الكلام في فمها، وسُمعت منها كلمات غير مفهومة؛ تسمّرت مريم في مكانها، وصرخت بِيرْطَة أنّ نوريَّة تقتل أمّها. كلّ هذا الصراخ دفع إلى قدوم أخيها فؤاد وأختها جبيبة، وبدأت حركة الجيران الفضوليّين بجوار البيت. جذب الطبيب نوريَّة من أختيها وطلب من حنيني أن تأخذها إلى البيت، ووعدها بأنّه سيفحصها بعد أن يحضر "حرا قاديشا" لأخذ يوسف. توسّلت حنيني إليه ألّا يترك جثمان يوسف وحده مع عمّتيها.

أقدام نوريَّة لم تحملاها فسحبها فؤاد وحنيني إلى بيتها.

"أُتركوني أموت. أتركوني أموت...". همست نوريَّة وتمايل رأسها من جانب إلى جانب.

حاول بعض رجال الحيّ الذين تجمعوا مساعدة حنيني وفؤاد في حمل نوريَّة وأخذها إلى بيتها، لكنّها هاجت وأرادت التمدّد على الأرض لشدّة حزنها.

لم يستطع أَدْوَر أن يقوم من فراشه للمشاركة في جنازة يوسف. ونصحه الطبيب بالبقاء في الفراش كي لا تسوء حالته. واستطاع أَدْوَر بصعوبة أن يحرّك رأسه بغضب.

"ألا تفهم أنّه يجب أن أكون هناك مع ابني؟" أصرّ وطلب من يعقوب والجار نِسيم أن يحملاه.

عندما وصل إلى القبر، زحف أَدْوَر على ركبتيه وعندما بدأ الحانوتي بإنزال يوسف إلى حفرة القبر، حاول أن يلقي نفسه في الداخل، لكنّ يعقوب أمسك قدميه.

"ابني يوسف، من يجعلني أموت بدلًا منك اليوم! عاريًّا خرجت من بطن أمّي وعاريًّا سأعود هناك! منحني الله مئير وحِيِّيم، ويوسف، والله أخذهم منّي. فليكن اسم الربّ مباركًا"، ناح أَدْوَر.

"ما زلت شابًّا ويمكنك أن تنجب أطفالًا"، حاول يعقوب تعزيته، لكنّ أَدْوَر صرخ فيه أنّه بسببه وبسبب بِيرْطَة فقد أولاده.

.23

نظرت دوريس إلى أمّها ولم تستطع أن تفهم ما الذي حدث لها منذ اللحظة التي تركت فيها دكّان المخبوزات وذهبت مع مريم إلى السوق لشراء الطعام لبِيرْطَة.

"كان كلّ شيء على ما يرام في الصباح – إذن كيف ترقد فجأة في الفراش بحرارة مرتفعة؟" سألت هيلة، زوجة خالها يعقوب. وضعت عليها كمّادات الماء لخفض الحرارة، لكن دون جدوى.

أخبرتها هيلة أنّ أمّها فزعت عندما شاهدت يوسف ميْتًا بين يديها، لذلك لن يساعدها أيّ دواء، ويجب أن نحضر لها ما يعالجها من "الطَغْفَة"، "الفزع". "نوريَّة تستطيع مساعدتها، لكن أين هي الآن؟ فلا أحد يستطيع أن يفهم كيف مات أولادها الثلاثة في سنة واحدة. سأرعى نعيمة وأنت اذهبي ونادي موزلي من بيت "شمّا" لتحضر، ربّما تستطيع مساعدتها: ولا تسمحي لمريم الساحرة بالاقتراب من أمّك أكثر. فهي تجلب المصائب فقط". حثّتها هيلة على الذهاب، وأسرعت دوريس في طريقها، على الرغم من قدمها المعوجّة، لكن لم يفلح أيّ من العلاج الشعبيّ الذي أحضرته معها في التخفيف عن نعيمة. فقد رقدت في الفراش تعاني من ارتفاع الحرارة ورعشات البرد، ويخنقها البكاء وتصرخ: "أنا بداله، ماذا فعلت؟" وكانت تستيقظ أحيانًا وتنادي أختها نوريه وتطلب منها السماح. استدعى يعقوب الطبيب لكنّه لم يستطع هو أيضًا معرفة سبب مرضها.

بعد ثلاثة أيّام ظهرت مريم إلى جوار فراش نعيمة، بعد أن حبست نفسها في بيت بِيرْطَة حتّى ذلك الوقت، وطلبت من الجميع الخروج من غرفة أختها. طلبت منها دوريس أن تترك أمّها في حالها. نظرت إليها مريم باحتقار وقالت لها: "عرجاء، من أنت لتخبريني ماذا أفعل في بيتي؟" ثمّ لطمتها على وجهها ودفعتها إلى خارج الحجرة. وقفت الآن فوق رأس أختها ومرّرت يدها فوق وجهها، وعندما وصلت عند رقبتها، صرخت نعيمة بأنّها تختنق. وقفت دوريس في الخارج يشلّها الخوف، في الوقت الذي تصرخ فيه أمّها "إنّها تخنقني". اندفعت هيلة إلى داخل الحجرة وعندما رأت نعيمة تتلوى في قبضة مريم صرخت فيها بقوّة: "أنت ساحرة. لا تعرفين المداواة. تعرفين فقط كيف تؤذين الآخرين".

هرعت حنيني التي كانت في بيت نوريَّة إلى البيت الأزرق بعدما سمعت الصراخ القادم منه وهزّ كلّ الزقاق. دخلت حجرة نعيمة، التي خرجت منها الأصوات المرتفعة وشاهدت أمّها ودوريس تحاولان إبعاد مريم عن نعيمة بالقوّة، لكن دون جدوًى. انضمّت على الفور إليهما وساعدتهما في إخراج مريم من الحجرة. عادت روح نعيمة إليها فنادت نوريَّة مرّة أخرى طالبة منها السماح، وأن تحرّرها من آلامها. وقفت دوريس في الركن تبكي مذعورة. خرجت حنيني من الحجرة وأسرعت نحو بيت نوريَّة.

"يا عمّة نوريَّة، العمة نعيمة مريضة جدًّا، ولا أحد يستطيع مساعدتها، وكادت مريم الساحرة أن تخنقها. وأنت فقط التي يمكنك إنقاذها"، طلبت حنيني من عمّتها. قامت نوريَّة بلا تردد من حدادها وذهبت معها إلى البيت الأزرق.

فزعت دوريس عندما شاهدت نوريَّة ووقفت في ركن الحجرة خلف هيلة. رفعت نوريَّة يدها فوق نعيمة ومرّرتها عدة مرّات على طول جسدها. بعدها ركّزت على منطقة الوجه، ونجحت بالتدريج في أن تعيد إليه لونه. أغلقت نعيمة عينيها، وفزعت دوريس واعتقدت أنّ أمّها ماتت. "ماذا سأفعل من دونها؟ هي كلّ حياتي"، انتحبت دوريس، فمسحت نوريَّة على رأسها وأخبرتها أنّ أمّها ترتاح الآن بعد أن استطاعت تهدئة روحها المعذّبة.

فجأة عادت مريم، ووقفت أمامها وأمرتها بالخروج من بيتها؛ لكنّ نوريَّة لم تخَف، ونظرت إليها مباشرة

وقالت لها أنّها لن تسمح لها هذه المرّة بطردها، مثلما فعلت مع وحيدة، وأنّها ستبقى هنا حتّى تُشفى نعيمة.

"أليس عليك أن تجلسي أيّام الحداد السبعة؟" سخرت منها مريم، لكنّ نوريَّة ردّت عليها بأن أختها تحتاجها وأنّها لن تستطيع استرجاع ابنها. وعندما لوّحت لها مريم بيديها، غضبت وهاجمتها قائلة: "لماذا تسمحين لبِيرْطَة وليلي بالعيش وحدهما، من دون رجل يحميهما؟ أتخافين أن تبدأ النمّامات في الكلام عنها؟" أمسكت مريم يد نوريَّة وحاولت دفعها جانبًا، لكنّ حنيني وهيلة عادتا ودفعتاها بالقوّة إلى خارج الحجرة إلى الردهة. فنزلت الدرج بسرعة وأمطرت الجميع باللعنات.

قالت لهما نوريَّة إنّها ستبقى مع نعيمة ثلاثة أيّام لأنّ حياتها معلّقة بين السماء والأرض لذلك ترتفع حرارتها وتنخفض بسرعة، وطلبت من دوريس وحنيني بأن تسدّا فتحة الباب وتخبراِها إن كانت مريم ستلقى موادًا محرّمة في المنطقة. كما طلبت من هيلة أن تحضر لها ترابًا من فناء بِيرْطَة كي تنزع الفزع من نعيمة. فاقتربت منها دوريس وقبّلت يديها.

أخذت نوريَّة التراب الذي أحضرته هيلة وخلطته بالماء، ومسحت به جسم نعيمة. وبقيت إلى جوارها طوال الأيّام الثلاثة، وفي كلّ مرّة استيقظت فيها مرّرت يدها على جسمها مستخدمة كلّ قواها. استمرّت نعيمة في الهذيان والصراخ بأنّها لم تقصد قتله لكنّها أرادت مساعدته فقط، فحاولت نوريَّة تهدئتها. جلست حنيني ودوريس معًا عند مدخل الباب تحرسانه من مريم. ووقفت هيلة إلى جوار نوريَّة، وساعدتها في خفض حرارة نعيمة وإسقائها الماء عندما تستيقظ بين الفينة والأخرى. وبعد ثلاثة أيّام فتحت نعيمة عينيها ورأت نوريَّة أمامها فغمرتها الدموع.

"سامحيني يا أختي. لم أقصد قتله. أردت مساعدته فقط"، اختنق صوتها. فحاولت نوريَّة تهدئتها. "ليت الله يقطع لساني لأنّني لعنتك، ويديّ اللتّين ألبستا ليلي الملابس السوداء"، قالت نعيمة وطلبت عفوها.

عانقتها نوريَّة وقالت لها: "الله معك. حافظي على نفسك، وعلى دوريس وهيلة من مريم. لقد أصبحتنّ الآن من أعدائها. أنا لم يعد لي أولاد لتأخذهم منّي"، ثمّ توجّهت إلى حنيني طالبة منها أن تساعدها في العودة إلى بيتها لأنّ قواها قد أنهكت.

بعد أن عادت نعيمة إلى الوقوف على قدميها، لم تعد الحياة في البيت الأزرق كما كانت من قبل. فقد خافت هيلة من الإقامة مع مريم، وطلبت من يعقوب مرّة أخرى أن يترك البيت الأزرق وينتقل إلى بيت آخر؛ لكنّه أوضح لها أنّه لن يترك أختيه الأرملتين بمفردهما. وأقسم بروح أبيه أنّه سوف يطلّقها إذا استمرّت في تكرار هذا الكلام، ولن يهمّه حتّى ولو كانت ستهيم على وجهها في الشوارع. سعدت مريم بردّ يعقوب وقالت في نفسها أنّها ستجعل البيت الأزرق سجنًا لهيلة بسبب خيانتها لها. وقرّرت الانتقام من نعيمة أيضًا، وأقنعت يعقوب بضرورة تزويج دوريس. "ماذا سيقول الناس عنّا، إننا لم نستطع أن نجد عريسًا لها؟ لقد أصبحت في الواحدة والعشرين، كبيرة السنّ بما فيه الكفاية. عندما كنت في سنّها كنت قد أنجبت ثلاثة أطفال. إلى متى سنضطرّ إلى الإنفاق عليها؟" قطّبت جبينها ورفعت يدها بحزم.

في اليوم التالي جاء سِلمان الدلّال وعرض تزويج دوريس من أرمل مسنّ من البصرة له خمسة أبناء، جاء خصّيصا إلى بغداد للبحث عن عروس ليأخذها معه إلى محلّ إقامته. "إنّه يكتفي بالمهر، وبجزء من الجهاز. لا حاجة إلى الأثاث وأدوات المطبخ. ولأنّها يتيمة الأب فهو متنازل أيضًا عن الخِلعة، هدايا العريس"، قال الدلّال. سُرّت مريم لأنّه أرسل إليها عريسًا مناسبًا جدًّا لمؤامرتها. وردّت بلا تردد أنّها موافقة على الزواج ودعت العريس المنتظر للحضور إلى بيتهم. وعندما جاء العريس، استدعت مريم نعيمة ودوريس إلى حجرة الضيوف وقالت لهما، بحضور يعقوب، إنّ هذا هو عريس دوريس، وأنّها

ستتزوج خلال أسبوع، لأنّ العريس يجب أن يعود إلى البصرة لأطفاله.

أظلمت عينا دوريس عندما شاهدت العريس المنتظر. فقد كان سمينًا لدرجة أنّ جسمه قد شغل كلّ الأريكة وكان من الممكن رؤية رقبته بصعوبة، وكان الشعر الأبيض يغطّي رأسه الكبير. وعندما ابتسم إليها كشف فمه عن أسنان محطّمة ومعوجّة.

"لماذا لا تزوجّيه ببِيرْطَة؟ إنّه يناسبها أكثر. فكلاهما أرملين، ولديهما أطفال، وستسعد بِيرْطَة بتغيير الجوّ والسفر إلى البصرة"، قالت دوريس؛ وردّت عليها مريم التي كانت مذهولة من كلام الفتاة، أن تخرس، وأنّ أحدًا لم يطلب رأيها.

قامت نعيمة من مكانها ولطمت ابنتها وقالت لها: "كيف تتواقحين مع خالتك بدلًا من أن تقبّلي يدها؟ ألا تفهمين أنّها بدلًا من أن تفكر في ابنتها فأنّها قلقة عليك وفضّلتك عليها؟ اخرجي الآن من الحجرة لأنّك قد سببت لنا الإحراج أمام ضيوفنا"، دفعت دوريس المذهولة إلى خارج الحجرة.

أراد العريس القيام من مكانه، لكنّ مريم شجّعته ووعدته بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. طلبت من نعيمة أن تجّهز الجهاز خلال أسبوع وأن تدفع للدلّال على وساطته الناجحة. أومأت نعيمة برأسها ووعدتها بأنّها ستقوم بكلّ شيء حسب تعليماتها. اعتقدت مريم، التي كانت مندهشة من عدم اعتراض نعيمة على فراق ابنتها – أنّها قد تكون قد استوعبت أخيرًا أنه لا يُسمح لها بمعارضتها. وبحزم تامّ قرّرت أنّ الخطبة والزفاف سيكونان يوم الثلاثاء المقبل. وافقتها نعيمة، وقالت لها إنّها ستكون مستعدّة بجهاز دوريس بحلول ذلك اليوم، واستأذنتها بالبدء في التجهيزات. خرجت من الحجرة وأشارت إلى ابنتها، التي قد استشاطت عيناها غضبًا، وإلى هيلة بعدم الكلام.

"هيلة أنا أحتاجك لتجهيز جهاز دوريس، وأنت يا دوريس تعالي معي الآن، ولا تفضحيني لأنّه لا وقت أمامنا"، أشارت لهما بأن تتبعاها.

دخلت هيلة حجرة الضيوف وطلبت الإذن من زوجها يعقوب بالخروج مع نعيمة لشراء الجهاز، فأشارت لها مريم بيدها أنّه لا بأس.

وبدلًا من الذهاب إلى شارع رشيد أخذت نعيمة هيلة ودوريس إلى بيت نوريَّة.

"يجب أن تساعديني يا نوريَّة. إنّها تريد أن تبعد دوريس عنّي إلى البصرة وتزويجها من أرمل لديه أطفال، يبدو مثل پ بپ مل عمبة، "برميل العمبة"، وبعمر أبيها، وسيكون الزفاف الأسبوع المقبل. ماذا نصنع؟" كان وجهها يائسًا. أمسكت هيلة بطنها وبدأت تضحك عندما كرّرت وصف العريس الموعود بأنّه: "بيب مل عمبة".

"ماذا حدث؟ أسيطر عليك الشيطان؟" سألت نعيمة، لكنّ هيلة لم تستطع التوقّف عن الضحك.

"دعيها تضحك؛ فمنذ أن تزوّجت من يعقوب أصبحت حياتها سوداء طوال الوقت، ولم أسمعها تضحك أبدًا"، ضحكت معها نوريَّة.

"لنتحدث بجدّيّة الآن. عليكما ترك البيت والابتعاد عن بغداد – وإلا ستطاردكما مريم"، قالت نوريَّة. وعرضت عليهما هيلا، بعد أن تمكّنت من تهدئة نفسها، السفر إلى إخوتها في الأرض المقدّسة. "سيحموننا"، قالت ولمعت عيناها السقيمتان.

أجابت نعيمة أنّها مستعدّة للسفر إلى أيّ مكان في العالم– المهمّ هو أن تنقذ ابنتها.

"ماذا عن سمير؟" سألت نوريَّة.

"لم يعد أمره يعنيني. فهو يخصّ زوجته وسحرها. لم يعد بمقدوري إنقاذه. دوريس أهمّ شيء عندي الآن"، أجابت بألم.

وعدتها نوريَّة بأنّها ستتوجه الآن للاهتمام بتأشيرات خروجهما، وطلبت من هيلة أن تُخبر أخيها. قالت نعيمة إن لديها مالًا كافيًا وسيكون لديها المزيد عندما تبيع الدكان.

توجهت هيلة إلى حنيني وطلبت منها أن تصحبها. "أشعر باختناق ولا أستطيع البقاء أكثر في البيت. سوف أُجنّ إذا بقيت مقيمة فيه. تعالي معنا إلى الأرض المقدّسة. يمكنك الدراسة هناك، وتحقيق أحلامك"، قالت محاولة إقناعها.

"وماذا أصنع مع زوجي الجاهل الأمّيّ؟ كيف سأطلّق منه بين عشيّة وضحاها؟" قالت متسائلة.

"إخوتي يعيشون هناك، وسيساعدوننا في بناء حياتنا من جديد، وربّما ننجح في إقناع الحاخامات هناك بتحليلك من هذا الزواج"، قالت محاولة إقناعها مرّة أخرى.

"أخاف أن أبقى معلّقة طوال حياتي. ربّما أنجح في إقناع أبي، عندما أخبره بمن زوّجني، وأن يجبر فؤاد على تطليقي، وإلّا لن أُنجب الأطفال أبدًا. كما أنّني لا أستطيع ترك نوريَّة مع الساحرة وحدها. فهي تحتاجني"، ردّت حنيني.

"أنا أيضًا أحتاجك. أنت ابنتي الوحيدة"، قالت هيلة والدموع في عينيها. "سأحضر إليك عندما تصبح الأمور على ما يرام"، وعدتها.

بمساعدة زيزي التي اهتمّت باستصدار تصاريح السفر في اليوم نفسه، تحدّد يوم سفرهنّ بيوم الأحد، أيّ خلال ستة أيّام. طلبت منهنّ نوريَّة أن يُحضرن إليها، عبر حنيني، الأغراض التي يردن أخذها، وهي ستعمل على نقلها إلى بيت زيزي.

أخبرت نعيمة مريم، بسعادة كبيرة، بما اشترته لابنتها وبأنّها اتّفقت مع خيّاطة جيّدة لتجهّز فستان زفاف على مقاس دوريس. "سيأتي كلّ شيء إلينا حتّى يوم الأحد"، قالت لها نعيمة، وسعدت مريم في داخلها بأنّ الأمور تسير حسب ما خطّطت لها.

في صباح يوم الأحد ودّعت نعيمة البيت الذي ولدت فيهه. ودخلت حجرة سمير ونظرت إليه. كان غارقًا في النوم بعد أن أمضى ليلته في أحضان الراقصات. قبّلته على جبينه، وربطت ساعة أبيه هامي على يده. بعدها نادت هيلة ودوريس وطلبت منهما بصوت مرتفع أن يسرعا للانتهاء من جميع المشتريات في هذا اليوم، لأنّ عليهما الاستعداد للحنّاء وحفل الزفاف. سعدت هيلة بأنّها ستنال حرّيّتها أخيرًا، وكانت على استعداد أن تخلّف وراءها كلّ ما تراكم لديها على مدار خمسة وثلاثين عامًا من حياتها. أخذت معها فقط صور حنيني. خرجت نوريَّة وحنيني لمقابلتهنّ في شارع رشيد، ومنه تأخذانهنّ إلى بيت زيزي.

طوال الطريق أمسكت نعيمة بيد نوريَّة، وودّعت كلّ مكان مرّت به. وعندما وصلن إلى بيت زيزي، شعرت بأنّها تستطيع أخيرًا فتح قلبها وقالت لنوريَّة: "كيف أستطيع أن أتركك وحدك، يا أختاه، بعدما اكتشفتك أخيرًا، واكتشفت طيبة قلبك؟" وبكت على صدرها.

"المهمّ الآن أن تنقذي ابنتك وتبدئي حياة جديدة. ربّما يرسل الله إلى دوريس من تستحقّه، وتكوّن أسرة الأرض المقدّسة، وتكونين سعيدة أخيرًا"، قالت نوريّة مشجّعة أختها.

"أنت منحتني قوّة الكفاح من أجل مستقبل أفضل لابنتي. أنا أشعر لأوّل مرّة في حياتي بأنّي انتصرت على انهزامي، الذي ميّزني وشلّني طوال عمري"، قالت نعيمة وضمّت أختها الصغرى إلى حضنها.

تهاوت حنيني على صدر أمّها، وطلبت منها أن ترسل إليها الخطابات عبر القنوات التي أوجدها أخوالها. ووعدت أمّها بأنّها ستلحق بها هي ونوريَّة بعد أن تُطلّق من زوجها.

نادت زيزي السائق وقالت له ألا يتركهنّ وحدهنّ في حيفا حتّى يجيء أخو هيلة لأخذهنّ. بعدها توجّهت لهيلة وسلّمتها قطعة قماش. "حافظي على قطعة القماش هذه واحرصي ألّا يراها أحد. وعندما تصلين إلى حيفا وتقابلين أخاك، حينها فقط أعطيها للسائق لنعلم أنكنّ وصلتنّ بسلام"، وعانقت هيلة وودّعت ثلاثتهنّ.

"أتدركين ماذا صنعنا اليوم؟" سألت زيزي نوريَّة عندما ذهبت النساء الثلاث في طريقهنّ.

"أجل، أنقذناهنّ من أيدي مريم"، أجابت نوريَّة.

"لا. بل استطعنا تحريرهنّ من قيودهن وأرسلناهنّ إلى الحرّيّة. حتّى الآن كلّ من تحرر من قيود عائلتك كان عليه أن يموت مثل مئير، وحِيِّيم، ويوسف"، أجابت زيزي وقالت لها إنّها سوف تكتب ذلك في كتاب حِيِّيم.

.24

انتهى عام الحداد على يوسف. فنزعت نوريَّة الملاءات التي غطّت الصور والمرايا، وعندما وقفت أمام المرآة الكبيرة في مدخل البيت، ذُهلت لرؤية إلى أيّ مدًى تغيّرت– وهي لم تتم الأربعين بعد. لقد رأت أمامها امرأة لا تعرفها، بدت مهملة ومسنّة. وبرزت عظام وجنتيها من وجه شاحب وذابل، وشفتاها جافّتان ومتشقّقتان، كما أحاطت الهالات السوداء عينيها الخضراوين. تأمّلت شعرها بدهشة، فقد تحوّل من ذهبيّ تملؤه الحياة، إلى شَعر يطغى عليه الشيب، وعندما رأت ثياب الحزن على جسدها، تذكّرت كلمات وحيدة التي تمنّت لها، في اليوم الذي مزقت فيه ثوب عرسها، ألّا تخلع السواد طوال حياتها. "هل حدّد الله مصيري كمصير وحيدة التي فقدت أبناءها الثلاثة؟ هل يريد دفني أيضًا مثلها؟" ركضت مذعورة نحو غرفتها ومزّقت ثوب الحداد وارتدت ثوبًا ملوَّنا بدلًا منه. ثمّ أخرجت كلّ الثياب السوداء من خزانة ملابسها، ومن سلّة الغسيل وأخذتها إلى الفناء. وهناك وضعتها في إناء من الصفيح وأضرمت النار فيها، كانت تلقي الملابس في النار وهي تنظر إلى اللهب الصافي والدخان الأسود بشعور من الارتياح.

تصاعد الدخان أعلى قمم النخيل القليلة، التي استطاعت بصعوبة التمسك بأرض الأزقة الضيقة وتمدّ بأيديها من فوق البيوت. اخترقت رائحته بيوت الجيران ووصلت إلى أنف مريم، التي جلست في فناء البيت الأزرق مع أخيها يعقوب تعيد إليها روحها بشرب التشاي الساخن، فتوجّهت إلى يعقوب وأشارت إلى الدخان القادم من بيت نوريَّة، وانتفض فيها بصيص من الأمل الشرّير.

"أتمنّى أن تكون الملعونة صاحبة العينين المسحورتين قد أحرقت نفسها، كي لا نراها، ونتخلّص أخيرًا من الحظ السيئ الذي جلبته علينا. فهي فقط التي جعلت عائلتنا تتفكّك بفرار هيلة، ونعيمة ودوريس من تحت أيدينا. كيف تركتني وذهبت، ابنة الوغد اللئيم"، قال يلعن هيلة زوجته. "حتّى ابنتها الوحيدة لم تودّعها. من يدري ماذا حدث لهما؟ هل هما على قيد الحياة أم أنّ البدو اغتصبوهنّ وذبحوهنّ في الصحراء؟ من يدري؟" ضرب كفًّا بكفٍّ وسمعت مرارة في صوته، على الرغم من أنّه لو سأل حنيني، لعرف مصيرهنّ.

صعد يعقوب ومريم إلى سطح البيت وأطلّا على فناء نوريَّة، لكنّ خيبتهما كانت كبيرة عندما شاهداها تقف أمام كومة الملابس المشتعلة، وتضحك وهي ترتدي ملابس ملوّنة. رأتهما نوريَّة بطرف عينها، وكانت واثقة من أنّهما يريدان إلقاءها في النيران المشتعلة؛ لكنّها اختارت تجاهلهما، وبعد أن أكلت النيران الملابس حتّى آخرها، أطفأتها وعادت إلى داخل بيتها. غمرها إحساس بالراحة، كما لو كانت قد أحرقت الحزن والشرّ عندها، ودخلت البيت مرتاحة ومبتسمة، تاركة وراءها يعقوب ومريم خائبَي الأمل.

عندما دخلت نوريَّة إلى البيت الخالي، سمعت أَدْوَر يسعل بشدّة. قلقةً عليه قرّرت دخول حجرته التي لم تطئها قدماها منذ عشر سنوات. رفع أَدْوَر عينيه ونظر إليها بدهشة. فقد غمرته ملابسها الملونة ورائحة الياسمين التي فاحت منها، بالحنين وذكريات شبابهما. ولأوّل مرّة منذ زمن طويل ندم في نفسه على عدم إخباره لها من وقت طويل أنّه يحبّها منذ اللحظة الأولى التي شاهدها فيها عندما جاء إلى الحيّ، وأنه كان في المكان عندما هاجمها الفتية المسلمون، لأنّه اعتاد تتبعها وحمايتها من بعيد، عندما كانت تخرج للتجوّل بمفردها في شوارع الحيّ. كما لم يخبرها بدرجة إحباطه وتألمه عندما بقيت في البيت وتوقّفت عن انتظاره، لذلك حثّ أمّه على أن تطلب يدها قبل أن تستجيب لأيّ عرض زواج آخر.

بدت الحجرة لنوريَّة أصغر ممّا تذكرها. على الخزانة كتب صلوات أبنائها الثلاثة، وعلى الأرض أكوام من الأوراق، التي كتب فيها أَدْوَر اكتشافاته في التوراة وفي كتب الهلاخاه (الشريعة اليهوديّة). هاجمه السعال مرّة أخرى فسألته، بقلق، إن كان يريد أن تعدّ له التشاي. فتح علبة التبغ وشمّ محتواها. انتشرت رائحة التبغ في أرجاء الغرفة، واستطاعت نوريَّة بصعوبة أن تسيطر على الغثيان الذي هاجمها.

"بقينا أنت وأنا فقط"، قال أدْوَر متجاهلًا سؤالها، "وما يؤسفني أنّني سأموت ولن يكون هناك من يحمل اسمي ويدعو لي". رغم أنّه كان ينوي أن يخبرها بحبّه وأشواقه، لكنّه لم يجرؤ على فعل ذلك بعد كلّ سنوات العزلة والألم.

غُرست أقوال أَدْوَر في قلبها كالطعنات الحادّة. نظرت إليه عن قرب، وشعرت فجأة كما لو أنّها لم تره منذ سنوات. فأوّل مرّة تلاحظ التجاعيد في وجهه، وعينيه اللتين غاب عنهما التعبير، وشعره الذي شاب، كما لاحظت الشيخوخة التي حطّت فجأة – على الرغم من أنّه كان مثلها في الأربعينيّات من عمره. أشفقَت عليه وتذكّرت كم كانت تحبّه من قبل، واستطاعت للحظة أن تزيح جانبًا كلّ الظلم الذي اقترفه بحقّها على مرّ السنين. أسرعت بالخروج من الغرفة إلى المطبخ، وأخذت قدرًا كبيرًا وغلت فيه الماء، ووضعت الأرزّ في الماء المغليّ، والطماطم، والفول الأخضر، وقطع اللحم وتبّلته بالملح والفلفل الأسمر والأحمر. وعندما أصبح الطبيخ جاهزًا، وضعته على صينيّة خشبيّة، وزيّنته بأوراق البقدونس، ووضعت بجانبه كوبًا من عصير البرتقال. حملت الصينية بيدها إلى حجرة أَدْوَر. تبعها نظراته بدهشة، فوجودها النسائي ونضارتها قد أثارته أكثر من رائحة الطعام التي تفوح من الطبق الساخن. قام من مكانه ورتّب الوسائد خلف ظهره. وضعت نوريَّة الصينيّة أمامه، ونظر بشهيّة إلى الطعام الذي يحبّه، والذي غاب عن مائدته منذ موت يوسف. ملأ الحنان عينيها، وأخذت الملعقة وأطعمته كما لو كان رضيعها الجديد. تعانقت نظراتهما معًا. وعندما انتهى من تناول الطعام، مسحت له نوريَّة فمه، فلمست يده يدها، عن غير قصد. فارتعش جسمها، وأرادت، لأوّل مرّة منذ سنوات، أن تعانقه، لكنّه كان محرجًا وتراجع إلى الخلف. أحنت نوريَّة رأسها وكبتت رغبتها، وأخذت الصينيّة وخرجت.

"ابقي معي"، طلب منها.

"أنا عائدة في الحال"، قالت له. وضعت الصينيّة في المطبخ وأسرعت إلى جارتها عزيزة.

"يجب أن أصبغ شعري، وأزيل الشعر الزائد الذي نبت في جسمي"، طلبت منها.

سعدت عزيزة برؤية جارتها تُنهي حدادها وتتعافى، وأسرعت إلى إعداد الحنّاء للصبغة، والخيط الأبيض لإزالة الشعر. انكبّت على عملها بهدوء، في الوقت الذي تختلس فيه النظرات إلى نوريَّة، وانتشرت السعادة على وجهها عندما شاهدت عينيها تعودان إلى الحياة. شعرت نوريَّة بأنّها مثل الثعبان الذي يستبدل جلده، وبعدما أنهت عزيزة عملها، أسرعت بالعودة إلى بيتها وغمست جسمها في الماء المعطّر بالياسمين. كان جسدها منفعلًا استعدادًا لهذه الليلة، فارتدت ثوبًا يبدو مظهرًا لمفاتنها، وعادت إلى حجرة أَدْوَر، تنشر حوله الرائحة المنعشة. انفعل أَدْوَر بكلّ جوارحه وطلب منها أن تقترب منه وأن تجلس بجواره. مرّت يداه الثقيلتان، اللتان كانت قد نسيتا المداعبة، على كتفيها وشعرها ببطء. أغمضت نوريَّة عينيها مستمتعة. قرّب فمه من أذنها وطلب منها هامسًا أن تعود وتصبح زوجته. نامت إلى جواره، فالتصق بجسدها ولف ذراعيه حولها.

"عزيزتي نوريَّة، أنا أحبّك رغم كلّ ما حلّ بنا"، همس في أذنها. شعرت أنّ كلماته تذيب جسدها فعانقته بحرارة.

ناحوم

بغداد، 1935

.25

بعد ثلاثة شهور، عندما زارت نوريَّة قبر أمّها في مقبرة اليهود في غاس الچول، ركعت على الأرض كعادتها، ووضعت وجهها على شاهد القبر الذي كُتب عليه اسم أمّها بحروف عبريّة كبيرة – نزيمة بنت إسحاق وراشيل. بعدها، مسحت على الحروف التي لم تعرف قراءتها برهبة، وأخبرت أمّها بهمس بأنّها حامل وبأنّها تشعر بأنّ لديها ولدًا في بطنها هذه المرّة أيضًا.

"رُزق الملك غازي هذا الأسبوع ولدًا أسماه على اسم والده فيصل"، أخبرتها. "الملك من عمر مئير وأنا الآن على وشك ولادة الولد الذي كان من المفترض أن يكون ابن مئير"، غمرت الدموع عينيها، ثمّ وقفت بعدها، ورتّبت ثوبها، ومسحت على بطنها بفخر. في أثناء غياب زيزي، التي سافرت لإحياء حفلات في الدول العربيّة، كان قبر أمّها المكان الوحيد الذي تستطيع فيه أن تفضي بمكنون قلبها من دون أن ترمقها عيون الأعداء.

"ماما، الجميع يريد أن يدفنني بعينيه. أنّهم ينتظرون منّي أن أبقى دفينة في بيتي ولا أخرج من بابه حتّى أموت وألحق بأبنائي؛ لكنّني أريد أن أبقى سليمة العقل، لذلك اخترت الحياة، ولا يهمّني ما يقولونه عنّي. سأثبت للجميع أنّني ما زلت امرأة ولّادة، وأستطيع أن آتي بحياة جديدة بدلًا من التي سلبت منّي، لكنّني سأحافظ هذه المرّة على ثمرّة بطني بكلّ ما أوتيت من قوّة".

كلّما تقدّم الحمل، ازدادت نوريَّة قوّة وإصرارًا على إصلاح ما فسد في حياتها. وشعرت بجوار أَدْوَر بالراحة والسعادة كما لو أنّها عادت إلى بداية حياتهما المشتركة، حين عجزت الأرض أن تحمل سعادتها. كان التغيّر الذي طرأ على تعامل أَدْوَر معها كبيرًا، لدرجة أنّها كانت تشكّ في مصداقيّته، وكانت تقرص نفسها أحيانًا لتتأكّد أنّها فعلًا تعيش ما يحدث. من كان يتصوّر أنّ أَدْوَر الجادّ والجافّ سيهمس لها بكلمات حبّ، وينادي باسم "عيوني"، ويعانقها بعينين مداعبتين؟ كانت تتعجب أحيانًا كيف استطاع أن يحذف من قاموسه كلمات "جاهلة"، و"غْمَادَة "، ويخفي نظرته الدائمة المسكتة التي أصبحت جزءًا لا يتجزّأ منه. كما لم تستطع تصور أَدْوَر يحمل الزنبيل، ويذهب لجلب المشتريات، كلّ صباح، من سوق جِنُّونِي، ويحرص على صحّتها ويفضل قضاء معظم الوقت معها بدلًا من الذهاب إلى الكنيس. اعتقدت عزيزة أن موت أبنائه الثلاثة هو الذي صنع هذا التغيير الكبير في سلوكه، وشعرت بالأسى لأنّه كان عليها أن تفقد أبناءها الثلاثة لتشعر بالسعادة مرّة أخرى.

لقد كان خوفها من عدم تغيّر أَدْوَر بالفعل، يصاحبها طوال الوقت، وكانت تصحو كلّ صباح وهي خائفة من أن تجد وجهه الغاضب مرّة أخرة؛ لكنّه استمرّ في معاملتها باحترام، وكان يبتسم لها في كلّ يوم من جديد. ذات صباح فاجأها بإسورتين ذهبيّتين كتعبير عن حبّه لها، وهي التي لم تحصل منه طوال سنين على مثل هذه اللفتة. كانت منفعلة جدًّا عندما أرتهما لعزيزة حتّى إن صديقتها وكاتمة سرّها رشّت الملح عليها كي تحميها من عينها. "فالعين اليمنى قد تحسد أختها اليسرى"، قالت لها.

اشتاقت إلى زيزي، التي غابت عن بغداد سنة تقريبًا، أكثر من أيّ شيء. وعندما علمت بعودتها، أسرعت إليها وأرادت إخبارها بأن كلّ ما تمنّته لنفسها يتحقّق وبأنّها سعيدة على الرغم من الثَكَل والآلام. كما سعدت برؤيتها هي أيضًا سعيدة ومشرقة، واعتقدت أنها ربّما تكون هي الأخرى حاملًا، على الرغم من أنّها لم تلحظ أيّ تغيير في قوامها، وتعجبت كيف أن وجهها بدا شاباً. ضحكت زيزي أخبرتها بأنّها زارت مراكز التجميل في أنحاء أوروبّا التي تجعل أيّ امرأة جميلة ولو كانت قبيحة. لم ترد أن تخبرها أنّها سافرت من

العراق لأنّه كان من الصعب عليها مواجهة فقدان مئير، وحِيِّيم ويوسف، ممّا بعث الألم مرّة أخرى في الفراغ الذي في داخلها، وأنّه بالذات حين كانت بعيدة عنها استطاعت أن تصنع من الفراغ والأشواق أفضل أغانيها. وعندما وقعت عيناها على بطن نوريَّة المستديرة انفجرت فرحًا ومسحت عليها بانفعال.

"هناك أمل ومستقبل، يا عزيزتي نوريَّة، أنت تستحقّين بعض السعادة في هذه الحياة"، قالت ولمعت الدموع في عينيها. "سنذهب هذه المرّة إلى كلّ شيوخ بغداد ونطلب من كلّ واحد منهم أن يصنع "تعويذة" ليحميه من النساء الشرّيرات في عائلتك، وبذلك لا يستطعن المسّ به"، قالت وهي تعدها.

"تغيرت حياتي"، قالت لها نوريَّة. "أَدْوَر يعاملني كالملكة. لا يدعني أقوم بأيّ عمل في البيت، ويتأكّد فقط من أني أستريح بشكل كافٍ وأعتني بنفسي وبالطفل الذي في بطني. لن تصدّقي أنّه أحضر لي غسّالة"، تمدّدت نوريَّة باستمتاع.

"أَشْكُرُكَ يآلله كِيفْ طْعِيتَا لْنُورِيَّة إِيَّامْ فَّغخْ " (أحمدك يا ربي، أنك منحت نوريَّة أيَّاما من السعادة،) قالت زيزي باللهجة العربيّة اليهوديّة، وهي رافعة نظرها إلى السماء، واتّفقت مع نوريَّة على الذهاب في الصباح إلى الشيخ سليمان.

شعرت نوريَّة في تلك الليلة بأنّ بطنها تهبط إلى أسفل، وظهرت عندها من حين إلى آخر علامات ولادة خفيفة. وما إن استطاعت أن تغفو حتّى رأت في منامها زاهد البصرة بملابس بيضاء.

"في كلّ مكان سيتربص بك أعداء آخرون، يريدون أن يأخذوا ثمرّة بطنك"، كرّر عليها بعض الكلمات التي قالها لها في لقائهما قبل أربعة وعشرين سنة.

لماذا تكرّر كلماتك القاسية بدلًا من أن تشجّعني؟" تجرّأت على السؤال، وغمرت عينيها الدموع.

"لا تبكي يا ابنتي. إنّ قوى الظلام أقوى منّي. فقط إذا اتّحدت قواكم سيمكنني محاربتها"، قال.

"قوى من؟" سألت، لكنّه اختفى.

في صباح اليوم التالي أيقظت أَدْوَر مذهولة وأخبرته أنّها تشعر بأنّ ساعة الولادة قد حانت. قفز أَدْوَر من الفراش وعانق بطنها. "هل أنت واثقة؟" سألها بتردّد. "ما زال هناك أسبوعين على موعد الولادة. لم أقم بعد بإدارة دِيك لْفَدَاء فوق رأسك، كي تكون ولادتك سهلة". حاول إقناعها من منطلق الأمل في أنّه ربما تكون هذه آلام وهميّة، وأن تسيطر نوريَّة على نفسها وتؤجّل الولادة.

"أيّ ديك في رأسك؟ ليس هناك وقت كافٍ. ولا تنادي عزيزة، فهي في البصرة ... اذهب إلى حنيني لتحضر سليمة القابلي (القابلة)"، صرخت، وأغرقها العرق البارد.

جلست مريم وبِيرْطَة في فناء البيت الأزرق وسمعتا أَدْوَر يصرخ في حنيني ويحثّها على الإسراع معه. في البداية بقيتا في البيت، لكنّهما لم يستطيعا في النهاية التغلّب على فضولهما، فقامتا من مكانهما واقتربتا من بيت نوريَّة. كان باب البيت مفتوحًا، فدخلتا إلى الفناء وصعدتا بهدوء إلى الطابق الثاني، تنتظران، كالذئب المتربّص لفريسته، خارج حجرة الولادة تنظران من حين إلى آخر، كلّ واحدة بدورها، وتخبران بعضهما بهمس بما تراه أعينهما كالمتآمرتين.

بعد فترة قصيرة أعلنت القابلة سليمة بفرح عن ميلاد طفل ذكر. لم يعرف أَدْوَر، الذي لم يرفع عينيه عن سِفر المزامير، ماذا يصنع من فرط السعادة، وقبّل نوريَّة على جبينها. ملأت المرارة مريم، وتركت المكان هي وبِيرْطَة بغضب. وفجأة أصابت نوريَّة تشنّجات قويّة قطّعتها إربًا. تلوّت من شدّة الألم، وأحاطت بطنها بيدها بقوّة محاولة تخفيف آلامها، لكنّ الألم ازداد. سُمع صراخها الشديد في كلّ الزقاق. حتّى سليمة القابلة المتمرّسة، كانت بلا حول ولا قوّة ولم تعرف كيف تخفيف آلامها – كما كان عليها الاعتناء بالطفل المولود

الآن. ساءت حالة نوريَّة من دون أيّ سبب ظاهر، ولم تتوقّف عن الصراخ والتلوّي. طلبت القابلة، القليلة الحيلة، من أَدْوَر أن يأخذها إلى المستشفى. استدارت حنيني حول نوريَّة، خائفة على حياتها ومحاولة تخفيف آلامها، لكنّها لم تكن تدري ماذا تصنع، لذلك مسحت على رأسها، وجفّفت دموعها والعرق البارد الذي أغرقها. وصل فريق الإسعاف الأوّليّ الذي تمّ استدعاؤه ونقلها على الفور، برفقة حنيني، إلى المستشفى اليهوديّ "مئير إلياس"، في الوقت الذي تجمّع فيه جيران نوريَّة حولها متمنّين لها العودة بسلامة، في حين تابعت مريم وبِيرْطَة ما يحدث من شبّاك البيت.

في المستشفى أدخل الأطباء نوريَّة إلى حجرة العمليّات على الفور، ومن دون أيّ انتظار قاموا باستئصال رحمها، من دون أن يخبروا حنيني، التي كانت معها، بحالتها.

لم يتوقّف الطفل الذي ولد للتوّ عن البكاء، حتّى أنّ صراخه غلب المطر الشديد في الخارج الذي سقط قبل أوانه، وغسل الأرض الجافّة. لم يمنح بكاؤه الراحة لأَدْوَر، الذي بقي وحده، ضائعًا محتارًا كيف يُهدّئ ابن المشيب الغالي. تذكّر الطريقة التي كانت تهزّ فيها نوريَّة مئير من جانب إلى آخر لينام، وحاول تقليدها، لكن دون جدوى: استمرّ الطفل بالصراخ وأغلق عينيه ويديه بعصبيّة شديدة. وقعت عينا أَدْوَر على خمر التقديس، فغمس إصبعه في السائل الأحمر ووضعه في فم الرضيع، الذي مصّه في استمتاع كبير. وعندما ظهرت مريم في مدخل البيت مبلّلة بماء المطر، سعد أَدْوَر بها لأوّل مرّة في حياته، بعد أن كاد ييأس.

"ساعديني. لا أعرف كيف أهدّئه. نوريَّة في المستشفى، وهو بحاجة إلى حليب. وأنا غير متأكّد من أن نوريَّة تستطيع إرضاعه وهي في هذه الحالة، هو بحاجة إلى مرضعة"، قال وهو يحثّها.

"لا أعلم ما الذي حدث. سمعت الآن عن ذلك. كيف حال نوريَّة؟" حاولت التصنّع أمامه أنّها تخاف على سلامة أختها، وهي تمسح على شعرها المبلل.

"إنّها في المستشفى، لكنّ المهمّ الآن هو الولد. يجب الاعتناء به بسرعة"، عاد يحثّها.

نظرت إليه بعينين ماكرتَين ملؤهما الدهاء:

"لماذا نسمح لامرأة غريبة بإرضاع ابننا؟" قالت، "إن ابنتي حبيبة يمكنها إرضاعه. أنسيت أنّها ولدت قبل شهر، وبالطبع لديها حليب كافٍ لابن أختي أيضًا".

"خذيه إليها الآن. الولد لم يأكل شيئًا"، طلب منها أَدْوَر.

عندما فتحت نوريَّة عينيها، بعد أن أفاقت من شدّة المخدّر، وجدت نفسها ترقد في حجرة بيضاء كبيرة مع سيّدات أخريات. حاولت القيام من الفراش، لكنّ آلام بطنها، خاصّة في منطقة الجراحة التي كانت ما زالت مغلقة بالدبابيس، تغلّبت عليها، فعادت وسقطت إلى الوراء. كما آلمتها يدها التي كانت موصولة بإبره وكيس. نادت على أَدْوَر، لكن، بدلًا من زوجها جاءتها ممرّضة عجوز عابسة الوجه. طلبت منها نوريَّة أن تعطيها القليل من الماء، لكنّ الممرّضة رفضت وأخبرتها أنّه لا يُسمح لها بالشرب والأكل حتّى يحضر الطبيب.

"أنا أريد الماء فقط"، توسّلت إليها بصوت ضعيف "جفّت شفتاي، وأشعر بغثيان فظيع".

سمع الطبيب الذي مرّ على الغرفة توسّلاتها.

"بلّلي لها شفتيها، لكن لا تدعيها تشرب. يمكنك بعد عدّة ساعات إنزالها عن السرير، وتحميمها، واجعليها تشرب وتأكل قليلًا"، قال الطبيب للمرّضة في الوقت الذي كان يفحص فيه بطن نوريَّة.

بلّلت الممرّضة شفتيها، وعادت نوريَّة لتنام. وعندما استيقظت أخرجت الممرّضة الإبرة التي في الوريد والمتّصلة بكيس، وأخذتها إلى الحمام. كان من الصعب على نوريَّة الوقوف وكذلك الجلوس بسبب الغرز التي في بطنها. أمسكت بالمقبض المثبّت في الحائط وسكبت الممرّضة الماء على جسمها، ونظفتها، خاصة النصف السفلي من جسمها الذي امتلأ بالدم. فزعت نوريَّة من كمّيّة الدم الذي تمّ غسله؛ فهدّأتها الممرّضة وأخبرتها بأنّها ستشعر بتحسّن خلال بضعة أيّام.

"أريد أن أرى ابني من فضلك"، طلبت منها.

"سأفحص إمكانيّة ذلك، من أجلك، لكن عليك الحرص على صحّتك أوّلًا"، أجابتها الممرّضة بوجه عابس، ثمّ أعادتها إلى سريرها وأعطتها مسكّنات للألم.

استيقظت نوريَّة في اليوم التالي على صوت صراخ الأطفال الذين أحضروهم إلى الحجرة للرضاعة. رفعت الوسادات خلف ظهرها وعدّلت جلستها استعدادًا لإرضاع طفلها، متجاهلة الآلام التي هاجمتها في كلّ حركة قامت بها. وبمهارة شديدة أخرجت ثدييها وضغطت على الحلمة من أجل إنزال قطرات الحليب استعدادًا للرضاعة، كما علّمتها أمّها أوّل مرّة أرضعت فيها مئير. عندما نزلت القطرات أحبطت عند مشاهدة ثديها يخرج الماء، لا الحليب. وخالجها الخوف من أن تكون الجراحة قد أثّرت في حليبها، لكنّها مع ذلك مدّت يدبا يشوق نحو الممرّضات اللواتي حملن الأطفال الرضّع بين أيديهن. ولكن للأسف الشديد تخطّينها وذهبن إلى النساء اللواتي جلسن في الأسِرّة المجاورة.

"أين طفلي؟" سألت. "لماذا لم أحصل عليه؟"

"اعتنِ بصحّتك أوّلًا، ثمّ الرضيع بعد ذلك"، تهرّبت الممرّضة الرئيسية من سؤالها، وحثّت بقية الممرّضات على الخروج من الغرفة.

ردّت نوريَّة على الممرّضة الرئيسة بنظرة تهديد، لكنّ الأخرى نظرت إليها نظرة شفقة أجلستها في مكانها، ثمّ رنّ في أذنها صوت زاهد البصرة الذي قال: "سوف يتربّصون ليأخذوا منك ما يخرج من بطنك". فانفجرت فجأة بصرخة قويّة، كصرخة الحيوان الجريح، هزّت المكان. وفزع الأطفال، وتركوا الرضاعة وصرخوا باكين.

اقتربت منها الممرّضة الرئيسيّة وحاولت تهدئتها، لكنّ نوريَّة هاجت وحاولت القيام من مكانها. حضرت ممرّضات أخريات مسرعات على صوت صراخها وأجبرنها على البقاء في سريرها.

"دعوني أراه فقط. أريد أن أعرف إن كان حيًّا. أعدكنّ بأنّي لن أرضعه"، قالت متوسّلة إليهنّ.

"لا يُسمح لك بالنزول عن السرير من دون مراقبة الممرّضة، فقد تسقطين وتؤذين نفسك"، وبّختها إحدى الممرّضات.

"دعيني فقط أرى أنّه حيّ. أنت لا تقولين لي الحقيقة. لقد قتلوه هو أيضًا. لذلك لم يحضر زوجي إلى هنا، أليس كذلك؟" شدّت شعرها ولطمت على صدرها.

قامت الممرّضة التي لم تعرف ما حالة الطفل الذي ولد خارج المستشفى، باستدعاء الطبيب، الذي أسرع إلى إعطائها حقنة مهدّئة.

.26

امتلأ ثدياها بالحليب، الذي سال من تلقاء نفسه وأغرق ملابسها. نزف جسمها، وفاحت منها كريهة. لم تتوقّف الآم بطنها. وتردّدت في لمسها خشية أن تكتشف الفراغ الذي بقي فيها، بدلًا من الرحم الذي استؤصل. اختفت الحيويّة التي كانت فيها حتّى الولادة، ليحلّ محلّها التعب والوهن الذي سيطر على جميع أجزاء جسدها المعطوب. فنامت خائرة القوى.

عندما استيقظت شاهدت أَدْوَر يقف أمامها وينظر إليها بعينين متعبتين. سكتت للحظة خوفًا من الخبر الذي أحضره لها، لكن قبل أن يفتح فمه، استجمعت قواها وسألته:

"لماذا لم يخبروني أنّ ابني قد مات؟"

"لا قدّر لله! ابننا حيّ"، فوجئ بكلامها.

"إن كان كذلك، فلماذا لا يحضرونه لي؟ أريد أن أُرضِعه!" توسلّت إليه وهي لا تزال غير مصدّقة كلامه.

"إنّه في بيتنا. أحضرت له مرضعة، إلى أن تشفين وتستطيعين الاعتناء به بنفسك"، قال. وخاف أن يخبرها بأنّ حبيبية هي التي ترضعه.

"هل أنت متأكد؟" قالت متردّدة وأضافت "أنت لا تكذب عليّ، أليس كذلك؟"

"ابتعد عن الكذب"، قرّب أَدْوَر منه كتاب التوراة وقبّله. شعرت بتحسّن. ولاحظت أنّ رائحة التبغ التي كانت ملتصقة به أصبحت ضعيفة، فخافت، لوهلة، أن تكون قد فقدت حاسة الشم؛ لكنّها اشتمّت على الفور الرائحة الكريهة التي فاحت منها، وذكّرتها بحالتها. لقد خجلت من النظر في عينيه وإخباره بأنّها تشعر مثل المرأة المعيوبة وغير الصالحة، لأنّها علمت أنّه كرجل متديّن لن يستطيع أن يعاشرها معاشرة الأزواج. ومرّت في رأسها أفكار بأنّ عليها إخباره بأنّها موافقة من جهتها أن يتزوج من امرأة أخرى كي ينجب أولادًا آخرين، لكنّها سألته بدلًا من ذلك:

"كيف يبدو الطفل؟ من يشبه؟"

خاف أَدْوَر أن يزلّ لسانه ويقول إنّ حبيبة تعتني بالطفل، لذلك تهرّب من الإجابة، وأسرع في الخروج بحجّة أنّ عليه العودة إلى البيت ليرى كيف حال الابن الجديد.

*

جاء موعد ختان الطفل، وسأل أَدْوَر الأطبّاء إن كانت نوريَّة تستطيع المشاركة في الحفل، لكنّهم رفضوا إخراجها، وقالوا له إنّها يجب أن تبقى في المستشفى ثلاثة أسابيع أخرى حتّى تشفى تمامًا.

"الأطبّاء لا يسمحون لي باصطحابك إلى البيت، ويجب أن أجري الختان في موعده"، تنهد أَدْوَر.

هدّأته نوريَّة وقالت له إنّ الأيّام تمرّ بسرعة وإنّها ستعود إلى البيت قريبًا. طلبت منه أن يُلبس الطفل الثوب المزيّن بالخطوط الذهبيّة الذي خاطته وطرّزته له قبل الولادة، ثمّ أكدت على مدى أهمّيّة أن تقوم حنيني بغسل الملابس التي أعدّتها للطفل كي لا يصاب بحساسيّة الجلد، وأن تضع عليه، العفصة، التعويذة لحماية الطفل من الشرور. ترك لها أَدْوَر اللوز والتمر وطلب منها أن تأكل منه كي يفيض ثدياها بالحليب، لترضعه عندما تعود إلى البيت. خرج مسرعًا بعدها للاستعداد لحفل الختان. لم تخبره نوريَّة أن حليبها أصبح كالماء مرّة أخرى، وأمَلت في أن تساعد الفاكهة المجففة في عودة لبن الأم الحقيقيّ إلى صدرها. عندما عاد إلى البيت أعطى أَدْوَر مريم الثوب الأبيض، وطلب منها أن تلبسه للطفل في حفل الختان.

"أين نوريَّة؟ لماذا لم تحضر معك؟" قالت بفضول.

قردّ عليها قائلً: "قال الأطبّاء إنّ عليها البقاء في المستشفى ثلاثة أسابيع أخرى، ومنعوها من حمل الطفل حتّى تشفى".

"كيف لا تفهم أن هذه إشارة من السماء؟ إنّ الله لا يريد أن ترضع الطفل من حليبها كي لا تجلب له الحظّ السيئ"، قالت بصوت أجشّ.

"كيف تجرؤين على الحديث عن أختك بهذه الطريقة؟ أليس فيك ذرّة من الشفقة عليها؟ ماذا صنعت لك لتكرهيها إلى هذه ا الحدّ؟" قال أَدْوَر رافعًا صوته.

أرادت إجابته بأنّها ببساطة تحقد على نوريَّة، التي وهبها الله كلّ الجمال الذي في العالم؛ حتّى أنّ وحيدة التي لم تبتسم أبدًا، كانت تذوب عندما تراها. ولقد سمعت وحيدة تعِدُ نوريَّة بأنّها ستعطيها كلّ ذهبها –أمّا هي فلم تَجُدْ عليها وحيدة حتّى ولو بابتسامة صغيرة، رغم أنّها كانت تلبّي لها كلّ طلباتها. لقد أرادت أن تقول له إنّها تكره نوريَّة، لأنّ بِيرْطَة لم تعرف السعادة في حياتها بسببها، وأصبحت أرملة في سنّ مبكرة، وكذلك لأنّها شجّعت نعيمة، وهيلة ودوريس على الهرب من البيت وكسر كلمتها. لذلك ستصنع أيّ شيء لتسلب منها الفرصة الوحيدة التي بقيت لها في الحياة لتكون سعيدة: وستمنعها من سماع كلمة "ماما" طوال حياتها. لكنّها بدلًا من ذلك اصطنعت وجهًا حزينًا وقالت له:

"أنصت إليّ. أنت رجل حكيم ومتعلّم. إنّ الله يحبّك، ويريد أن يُبقي لك ذرّيّة. لذلك هو صنع كلّ شيء... نوريَّة لم تكن مريضة قبل أن تلد الطفل، أليس كذلك؟ وبعد الولادة فقط أمرضها الله كي تكون للطفل مرضعة من العائلة. عليك أن تدرك أنّ الله يقول لك ألّا تترك الطفل لها لإرضاعه، كي يبقى على قيد الحياة، ولا يموت قبل موعده مثل إخوته الثلاثة"، وانفجرت في البكاء لإقناعه بكلامها –في الوقت الذي رافقت فيه أصوات ذهب وحيدة الذي زيّن كلّ جسدها بكاءها.

تململ أَدْوَر بانزعاج. فالسنة الأخيرة كانت أسعد سنة في حياته مع نوريَّة، وأضاف مولد الطفل إليه رضًا خاصًّا. ولقد نجحت نوريَّة في أن تجعله يتخلّص من أخطائه وصفاته السيّئة، التي جعلته يشبه أباه، وجعلته رجلًا أفضل بكثير ومتصالحًا مع نفسه. لذلك لم يتصوّر أبدًا أن يؤذيها. سار في الحجرة ذهابًا وإيابًا، وهرش رأسه وفكر في طرد مريم؛ لكن ما إن نظر في ملابسها السوداء، حيث حاولت أن تشبه وحيدة حتّى في لبسها، تذكّر أن الكثير من أبناء الحيّ يتحدّثون عن نوريَّة كامرأة ملعونة، تنتقم منها الأرواح وتعيد إليها مشاكل كلّ النساء اللواتي تعالجهنّ. تذكّر أنّه هو نفسه قال لها إن المال الذي تكسبه حرام ونجس، وسيجلب الخراب على البيت. وكلما تعمق في التفكير في ذلك، اقتنع إنّ في كلام مريم شيئًا من الحقيقة. كان محتاجًا إلى علبة التبغ ليستطيع التفكير جيدًا، لكنّه لم يذكّر أين وضعها، فالمرّة الأخيرة التي استخدمها فيها كانت قبل عام. راقبت مريم حركاته وقرّرت الصمت وجعله يستوعب كلامها. قلّب الحجرة حتّى وجد التبغ في النهاية، فتمدّد على الأريكة وشمّ التبغ، وفكّر في كلام مريم. وبعد دقائق طويلة قام من مكانه وعاد إليها، ليقول لها:

"قد يكون كلامك سليمًا. فماذا تقترحين؟"

"عليك أن تحافظ على هذا الطفل، لأنّه لن يكون لديك أطفال آخرون. لذلك يجب أن تعطيه لحبيبة، حتّى إذا ما عادت نوريَّة إلى البيت لا ترضعه. وبذلك تنقذه وتنفّذ كلام الله"، رفعت عينيها إلى أعلى، وشعرت في داخلها بالرضا لأنّها استطاعت أن توقعه في شباكها.

"إذا أعطيته لحبيبة، لن يكون ابني. فما الذي سأربحه من ذلك؟" ضرب كفًّا بكفّ بغضب.

"لا قدّر الله! ستكون والد الطفل. أنت ستودعه فقط لديها. وعندما يكبر الطفل وينتهي الخطر، ستعيده إليك وإلى نوريَّة"، قالت لتهدّئه.

"حسنًا، لكن بشرط أن تقسم حبيبة على التوراة أنّه إذا مِتُّ أنا قبل ذلك، فستحرص على أن يتلو الطفل صلاة "القاديش" [15] على قبري"، قال وأخرج كتاب التوراة.

*

سيطر جوّ من الكآبة على زيزي عندما رأت أشجار النخيل تطأطأ قممها وفروعها الجافّة بسبب الرياح الحارّة التي هبت ومحت آثار المطر الذي هطل في شهر آذار في بداية الأسبوع. فمنذ عدّة أيّام لم تسمع شيئًا من نوريَّة، كما أنّها لم تحضر في الموعد الذي حدّدته معها، لذلك قرّرت زيزي الذهاب وحدها إلى الشيخ سليمان وحصلت منه على الحجاب لحماية الطفل الذي سيولد. لم تعرف ماذا تصنع مع عاصفة المشاعر التي اجتاحتها وأقلقت راحتها. ولشدّة فرحتها بحمل نوريَّة نسيت أن تخبرها برحلتها وراء كتاب حِيِّيم. ففي البداية سافرت إلى المصحّة في لبنان حيث خاب أملها عندما علمت أنّ حِيِّيم لم يترك شيئًا؛ لكنّ مدير المصحّة قال لها: ربّما تستطيع ابنة أختي ميري التي كانت ترعى حِيِّيم، أن تخبرك أين ترك دفاتره. وأعطاها عنوان ميري في باريس، وعندما أنهت حفلاتها في بيروت ودمشق سافرت إلى باريس، بحثًا عن ميري. قابلتها هناك في بيتها وقدّمت لها نفسها على أنّها ابنة عمّ نوري عبد الرحمن. قالت لها ميري أنّها تعرف أنّ اسمه حِيِّيم، وإنّها ليست ابنة عمّه، لكنّها دُهشت من أن السيّدة التي كان يراسلها حِيِّيم هي مطربة شهيرة. أخبرتها زيزي بأنّها تبدو كما وصفها حِيِّيم في خطاباته بالضبط، وامتدحتا موهبته في الكتابة. نظرت زيزي إلى إصبع ميري واكتشفت أن به خاتم زواج، وسعدت بمعرفة أنّها واصلت حياتها. أخبرت ميري بأنّها أخذت على عاتقها تحقيق حلم حِيِّيم – وإصدار كتابه – وسألتها إن كانت تعلم أين ترك أوراقه. فتحت ميري الخزانة في حجرة الضيوف وأخرجت من الدرج دفترين.

"هذه هو الدفتر الذي كتب فيه حِيِّيم كتابه في شرفة المصحّة، التي أطلّت على مناظر لبنان الجميلة، ومنه عرفت اسمه الحقيقيّ ويهوديّته. كما أنّ فيه أيضًا رسائلك والتعديلات التي أجراها. لقد كتب بجدّ بلا توقّف حتّى اليوم الأخير الذي سافر فيه، وأنا أكملت بيدي، بعد سفره، وصْف وداعنا. لقد أعطاني حِيِّيم الدفتر لأقرأ قصّة حياته، وطلب أن أستمرّ في بعثه كلّ مرّة من جديد عندما أحكي عنه للمرضى الذين أرعاهم. أنا الآن أعيدها إليك، ليبقى حيًّا من خلال قُرّائه. وهذا ما كان يظنّه هو. أذكر مقولته: "الكتّاب لا يموتون، لأنّهم يواصلون العيش من خلال أعمالهم" لم أحبّ هذه العبارة لأنّني لم أرغب في أن يفكّر بالموت، لكنّني أفهم الآن كم هي عجيبة سبل الربّ، الذي أرسلك من أجل تحقيق رغبته. أمّا الدفتر الثاني فيخصّ حنيني، محبوبة حِيِّيم، وسأكون ممتنّة لك إذا أعدتِه إليها، لأنّها يجب أن تعلم أنّه بقي يُحبّها حتّى عندما كان بعيدًا عنها".

أخرجت زيزي من حقيبتها نسخة لمجموعة من الخطابات التي وصف فيها حِيِّيم مطوّلًا ميزات ميري عندما كانت تعتني به، وأعطتها لها. "هذا من أجلك. لتبقى لك ذكرى من حِيِّيم"، قالت لها، وسألتها عن مشاغلها.

"قبل أن يغادر حِيِّيم بيروت أخبرته أن حلمي هو أن يشفى وأن أعيش إلى جواره؛ لكنّه علم أنّه سيموت وطلب منّي لي أن أحتفظ بأحلامي للأحياء من حولي، الذين يحبّونني أنا فقط. وبالفعل فإنّ زوجي يحبّني أنا فقط وأنا سعيدة معه، لكن حبّي لحِيِّيم سأحتفظ به في قلبي إلى الأبد". شكرتها على الخطابات وطلبت منها أن ترسل إليها نسخة من الكتاب بعد أن تنتهي من كتابته.

"ليكن ما يكون – يجب أن أقابل نوريَّة"، قرّرت زيزي. دخلت بيتها مرتدية عباءة وعلى رأسها طرحة

كبيرة، ووضعت في حقيبتها الحجاب الذي أعدّه الشيخ سليمان الكبير، من أجل الطفل، وتوجّهت إلى بيت صديقتها.

عندما وصلت زيزي دُهشت لمشاهدة الكثير من الضيوف الذين تحلّقوا حول البيت، وبشرّتها رائحة الريحان بأنّها قد جاءت مباشرة إلى طقس "عِقْدِ إلْيَاسْ" الذي يربط فيه الريحان على كرسيّ النبيّ إلياهو (إلياس) في أركانه الأربعة، والذي يبدأ حفل الختان – وغضبت في داخلها من أن صديقتها لم تخبرها أنّها وَلدت. بحثت عن نوريَّة بين النساء، فلم تجدها. وفوجئت بمشاهدة أَدْوَر يقف بجواره امرأتان سمينتان: واحدة كبيرة وقزمة وسمينة، ترتدي السواد من قدمها وحتّى رأسها؛ أمّا الثانية فشابة، وفي يدها طفل رضيع، يرتدي ثوبًا تزيّنه زهور وخطوط ذهبيّة، ويعتمر قبّعة مطرّزة، كما لو كان بنتًا لإبعاد الحسد عنه.

تناول أَدْوَر الطفل من حبيبة. اعتقدت عزيزة، التي كانت قد عادت من زيارتها للبصرة أنّ حبيبة –التي رزقت بالبنات فقط- تقف بجوار أَدْوَر لتفوز بفريضة تقديم الطفل، الخاصّة بالبنين. فرفعت صوتها وصرخت: "لماذا لا تعطون حنيني حقّ تقديم الطفل، لتحصل على البركة وتنجب هي أطفالًا أيضًا بعون الله؟" وانضمّت إليها مجموعة من النساء المؤيّدات، لكنّ أَدْوَر تجاهلهنّ، وأعطى الطفل للمطّر، الذي بدأ بإجراء الطقوس وسأل أَدْوَر عن اسم الطفل.

أعلن أمام الناس: "ناحوم بن أَدْوَر بن موشيه". الحاخام ناوي هو الذي أثّر فيه في اختيار اسم الطفل. ولفت انتباهه أنّ الحروف الأولى من أسماء أبنائه الثلاثة الذين ماتوا كانت شاهدًا على نهايتهم "ي. م. ح" (بالعبريّة يُمحى)، ولقد قضى الله بذلك، وبأن يأتِ من بعدهم العزاء (معنى اسم ناحوم بالعبريّة)"، قال الرجل المتعلّم. أنشدت الجوقة قامت "بشرة خير جاء لنا ولد، وفي عصره سيأتي المخلّص، وليكن السلام في جنودنا ويكون سلامًا في قوّتنا". وزّعت النساء الكعك والخلقون، (أنواع من الحلويات الخاصة بالختان) الكعك والحلقوم، على كلّ الحاضرين، قبل أن يجلسوا لتناول الوليمة.

رأت زيزي كيف أعاد أَدْوَر الطفل إلى أيدي المرأة الشابّة وقال أمام الجميع:

"أنا أعطي ابني وحيدي إلى حبيبة ابنة مريم كي تربّيه كابنها حتّى تبعد عنه الحظّ السيّئ الذي أصاب أبنائي الثلاثة المتوفّين". أصيب الحاضرون بالصدمة، وأطلقت مريم وبِيرْطَة صيحة فرح، أمّا حنيني فصرخت صرخة حزن. تقدّمت زيزي نحو الحاضرين بغضب، ودفعت الناس وشقّت طريقها نحو أَدْوَر، الذي كان مشغولًا للحظة في جعل حبيبة تقسم على كتاب التوراة. ونظرت في عينيه وصرخت فيه:

"أين نوريَّة؟ ماذا فعلت بها؟"

"من أنت؟" نظر في عينيها لكنّه لم يستطع التعرّف إليها.

"ماذا فعلت بنوريَّة؟ أين خبّأتها؟" رفعت يدها تُجاهه بغضب.

"اغربي من هنا!" صرخ فيها، وذهل للحظة من أفعالها.

اقتربت حنيني من الجانب الآخر وصرخت في مريم وحبيبة:

"أنا لا أفهم: ممّ صنعت قلوبكما؟ ألا تخجلن من سرقة الابن الوحيد الذي بقي للعمّة نوريَّة".

"لا تتدّخلي! احرصي على إنجاب أطفال لابني – وإلا سيطلّقك. فالمرأة العجوز استطاعت الإنجاب، أمّا أنت – فلا شيء، مثل شجرة الصحراء"، دفعتها مريم، وأخذت حبيبة الطفل في حضنها وحمته. اقترب يعقوب من حنيني ولطمها على وجهها.

"كيف تجرؤين على التصرّف بوقاحة مع عمّتك؟ متى ستفهمين أنّ كلّ مصائبنا بسبب اللعينة التي تدافعين

عنها؟" ضمّ شفتيه وأنفه في غضب.

"خذي وابلعي هذا وستخلصين بعون الله، وفي العام المقبل ستحملين طفلًا في يديك"، قدّمت لها مريم كوبًا وفيه قلفة الصبي؛ حيث إنّه، حسب المعتقد ابتلاعها، يشفي المرأة من عقمها. أمّا عزيزة التي بدا عليها الارتباك من تتابع الأحداث التي جرت أمامها، فقد صرخت في مريم قائلة إنّ ما قامت به محرّم وإنّه يجب دفن القلفة، وإلّا سيجلب ذلك سوء الحظّ على الطفل؛ لكنّ مريم أصرت على دفع القلفة في فم حنيني، التي أخذتها ووضعتها في يد عزيزة وقالت لمريم:

"كفى مع خرافاتك. ألا تدركين أنّ المشكلة ليست عندي، لكن عند ابنك. تحدّثي معه، لربّما تستطيعين مساعدته". تجاهلت مريم كلمات حنيني وحثت حبيبة على الإسراع إلى البيت مع الطفل قبل أن يتراجع أَدْوَر، أمّا حنيني فغادرت المكان.

صمت جميع المدعوين. وانتظرت الراقصة إشارة من رئيس الجوقة لتستمرّ في رقصها، وقام يعقوب واقترب من أَدْوَر وصافحه.

"كلّ شيء بأمره"، قال أَدْوَر، وأمر الجوقة بالاستمرار في العزف. ركضت زيزي نحو حنيني وأمسكت بطرف ثوبها.

"أتعلمين أين نوريَّة؟" قالت وهي ترتجف.

"إنّها في مستشفى مئير إلياس. سأذهب لإخبارها أنّهم قد سرقوا منها ابنها"، استمرّت في سيرها السريع، حتّى أنّها لم تنظر إلى الوراء لترى مع من تتحدّث.

"انتظريني لحظة سآتي معك"، أمسكت بها زيزي من كتفها.

"من أنت؟" قالت حنيني مستغربة.

أزاحت زيزي الطرحة من على رأسها، فتسمّرت حنيني في مكانها عندما شاهدت المطربة التي هرّبت أمّها. بعين تستشيط عضبًا نادت زيزي سائقها الذي انتظرها في السيّارة خارج أزقة الحيّ، وأمرته بأن يأخذهما إلى المستشفى.

عندما وصلتا أسرعتا إلى الغرفة التي فيها نوريَّة. وعندما اقتربتا من فراشها سمعتاها تتوسّل إلى الممرّضة، أن تأخذ منها الزجاجة التي ملأتها بحليب ثدييها. فوجئت برؤية زيزي وحنيني معًا، ونظرات عيونهما تبشّر بالسوء. سقطت الزجاجة من يدها، وسُكب كلّ الحليب على الأرض.

"لا تقولي. أعلم أنّ ابني قد مات"، صرخت وهاجت في الفراش.

"أمسكت زيزي بيدها محاولة تهدئتها، ونادت الممرّضة لتستدعي الطبيب.

"ابنك حيّ، يا عمّة"، هدأتها حنيني.

"هل هو حيّ حقًّا؟" سألت بتردّد.

"أجل، يا عمّة، لا تقلقي. أظنّ أنّه يذكّرنا بمئير بعض الشيء"، نظرت حنيني إلى زيزي ولم تدر ماذا عليها أن تصنع. قبل ذلك بلحظة أرادت أن تخبرها ما الذي حدث مع الطفل، لكنّها خشيت الآن أن يقع مكروه لنوريَّة. وصل الطبيب الرئيسيّ بسرعة عندما سمع من الممرّضة أنّ المطربة المعروفة موجودة في قسمه. ذهبت زيزي معه إلى نهاية الغرفة وطلبت منه أن يبقى، إذا هاجت نوريَّة مرّة أخرى.

"من ترضع طفلي؟" سألت نوريَّة.

"حبيبة"، زلّ لسان حنيني، وندمت على ذلك.

"أَدْوَر أعطي طفلي لمن أكرههنّ؟" قالت واحمرَّ وجهها.

نظرت حنيني إلى زيزي مرّة أخرى، وسألتها عيناها إذا كانت تكمل. أومأت لها برأسها وكلّ جسدها يرتعد، وتذكّرت اللحظة نفسها قبل عشر سنوات، عندما أخذت أسرتها ابنها منها وطردتها من بيتها. ومنذ ذلك الحدث، الذي انطفأ النور في حياتها، وقرّرت ألّا تنجب أطفالًا مرّة أخرى.

"أخذوا الطفل ... معهم إلى البيت"، تمتمت حنيني.

"لا أفهم. اشرحي لي: لماذا أخذوه؟" طلبت منها نوريَّة بوجه مستعر.

لا أعرف كيف أحكي لك، لكن... في الختان أعطى أَدْوَر الطفل إلى حبيبة لتربّيته...". قالت متلعثمة.

"لا أفهم. لماذا أعطاه؟" قاطعت كلامها.

"قال أنّها سترضعه، كي يبتعد عنه الحظّ السيّئ الذي أصاب مئير، وحِيِّيم ويوسف"، قالتها دفعة واحدة، وتوقّفت لشدّة الألم الكامن في الكلمات التي خرجت من فمها.

"دعوني أذهب إلى البيت. يجب أن أسترجع ابني"، هاجت نوريَّة وحاولت النهوض من الفراش. سيطرت عليها الممرّضة بمساعدة زيزي وأعادتها إلى مكانها، وأسرع الطبيب إلى حقنها بحقنة مهدّئة أخرى.

الخبر عن مصير الطفل أساء إلى حالة نوريَّة؛ فتوقّفت عن تناول الطعام، ونظرت إلى السقف طوال الوقت. اضطرّ الطبيب إلى أن يعيد الإبرة إلى الوريد ليوصلها بكيس المحاليل مرّة أخرى. اشتدّت آلام بطنها، وانتفخ ثدياها وتصلّبا من كمّيّة الحليب والمياه التي تجمّعت فيهما. اضطر الأطباء إلى إعطائها أدوية لوقف إدرار الحليب في ثدييها، وقال مدير المستشفى لزيزي إنّه لا يستطيع أن يخرجها من المستشفى طالما لم تُشفَ من الجراحة. لم تستسلم زيزي، وطلبت نقلها إلى أفضل قسم في المستشفى التي كان يرقد فيها أثرياء الطائفة. وحرصت أن توفّر لها أفضل الأطبّاء واستأجرت لها ممرّضات خصوصيّات ليشرفن عليها ليلا ونهارًا خشية أن تؤذي نفسها.

خاف أَدْوَر أن يقابلها بعد أن عرف أن حنيني أخبرتها بأن حبيبة أخذت الطفل؛ لكن الذكرى الطيّبة للسنة الفائتة مع نوريَّة قادته، بالرغم من حوفه، إلى المستشفى. وصل حتّى باب الغرفة ونظر داخلها بخوف. وبعد أن أنصت لفترة إلى أنينها، اكتشف أنه لا يستطيع مواجهتها عاد إلى بيته رغم حضوره، وفي الطريق دخل الكنيس وصلّى من أجل سلامتها. بعد عدة أيّام استجمع قواه مرّة أخرى وذهب لزيارتها في المستشفى، لكن هذه المرّة أيضًا – ومرّات أخرى كثيرة بعدها – لم يجرؤ على الاقتراب منها وراقبها من بعيد.

بعد مرور شهر، أعطى الطبيب لزيزي تصريح خروج من المستشفى، وأقراصًا مهدّئة لعلاج الاكتئاب الذي أصيبت به نوريَّة. جمعت حنيني كلّ متعلّقات نوريَّة، أمّا زيزي فكانت تدور في الغرفة قلقة. وعندما قامت نوريَّة على قدميها بمساعدة حنيني، وكانت مستعدّة للتوجّه إلى بيتها، ركعت زيزي على ركبتيها أمامها وأمسكت يديها، وبصوت باكٍ تحدّثت معها لأوّل مرّة باللهجة العربيّة اليهوديّة:

"أنَا مَا أطِيقْ أخِلِّيكِي تْرجْعِينْ لِمْكَانْ □لْبِينُو أوِّادم يْأَدوكِي. إنْتِي ما تِسْتِهْلِين تْعِيشِينْ هِيكِذْ عِيشِي. يْضِلْ بَالِي عْلِيكِي إنْتِي كِلْ أهْلِي. تَالِي عِيشِي وِيَّايِي بِـ□لْبِيتْ"، (لا يمكنني أن أسمح لك بالعودة إلى المكان الذي يؤذيك الناس فيه. أنت لا تستحقّين العيش هكذا. سأعتني بك، أنت عائلتي الوحيدة. تعالي وعيشي معي في بيتي).

وقفت حنيني ودهشت لسماع زيزي تتحدّث بلغة اليهود؛ لكن نوريَّة نظرت إليها بعينين فارغتين، ورفضت اقتراحها، ورأت زيزي أنّ نوريَّة لم تعد كما كانت المرأة القويّة التي عرفتها، بل شاهدت أمامها امرأة فقدت كل رغبة في الحياة، وطلبت من حنيني أن تحافظ على نوريَّة وتخبرها بحالتها. وعند وقوفها على بابِ الغرفة تذكّرت الحجاب، الذي أعطاه لها الشيخ سليمان من أجل طفل نوريَّة؛ لكنّها قرّرت إبقاءه معها مؤقّتا.

.27

عادت نوريَّة إلى بيتها محطّمة، بعد غيابها عنه فترة طويلة لأوّل مرّة. بدت علامات الإهمال على كلّ ركن في البيت، وذبلت حديقة عطارتها، وجفّت أوراق النباتات وسقطت على الأرض. تخطّت حجرة النوم التي كانت تنام فيها مع أَدْوَر في السنة الأخيرة، وقادتها قدماها مباشرة إلى حجرة ابنيها. نامت في الفراش، ووضعت حنيني وسادة طرية تحت رأسها، بعد خلعت نعليها، وغطّتها بملاءة بيضاء مطرّزة بالزهور الحمراء. جلست حنيني إلى جوار نوريَّة ومسحت على جبينها ورأسها. سقط نظر حنيني على فراش حِيِّيم، ورأته بروحها يجلس على فراشه يبتسم إليها ويناديها أن تجلس إلى جواره. أرادت معانقته وإخباره بأنّها علمت أنه سيعود إليها، لكن خاب أملها عندما اكتشفت أن ذلك كان مجرّد سراب. غطّت الدموع وجهها. ومدّت يدها تحت السرير وأخرجت الكتب والدفاتر التي درسا فيها معًا وضمتها إلى صدرها وأنفها وحاولت أن تجد فيها رائحة حِيِّيم ويده المداعبة. علا صراخ مريم على ابنها فؤاد من البيت الأزرق: "أعِد حنيني إلى البيت – ولو بالقوّة، إذا تطلّب الأمر. ماذا سيقول الناس عنّا، إن امرأتك هي صاحبة الشارب في البيت؟" وبّختَه. لكنّ حنيني علمت أنّ فؤاد لن يجرؤ على أن يؤذيها، لذلك تجاهلت الصراخ وعادت للاستمتاع بمداعبة حِيِّيم ورائحته.

سمع أَدْوَر الذي استعدّ لعودة نوريَّة، خطواتها لكنّه خاف أن يخرج من حجرته ليستقبلها، لأنّه كان واثقًا من أنه لن يستطيع مواجهتها. كان من الصعب عليه مشاهدتها في مرضها. وعندما توقّف الضجيج في غرفة الأولاد تجرّأ على الخروج من غرفته والنظر هناك. شاهد حنيني تنام في فراش حِيِّيم وكتبه بجوارها، ونوريَّة ممدّدة في فراش مئير. وفجأة بدأت نوريَّة تتأوّه من الألم. أيقظ تأوهها حنيني وجعل أَدْوَر يقفز. اقتربت حنيني منها وسألتها ما يؤلمها. لكنّ نوريَّة نظرت إلى السقف وبقيت تتأوّه. مسحت حنيني على رأسها، وجفّفت الدموع التي ذُرفت من عينيها.

"كيف حالها؟" سأل أَدْوَر حنيني، وهو متردّد في الدخول إلى الغرفة. "كما ترى: لا تتكلّم ولا تأكل. تنظر إلى السقف وتنادي أطفالها أن يأتوا ليأخذوها". انهارت حنيني وانفجرت بالبكاء، على نوريَّة وعلى مصيرها هي على حدّ سواء.

"ماذا عليّ أن أفعل؟" سأل أَدْوَر.

"أنت تعلم ما عليك فعله: أعد إليها ابنها، الذي أعطيته لعدوّتها"، استجمعت قواها سريعًا ووبّختَه.

اقترب أَدْوَر من نوريَّة، لكنّها انفجرت بالصراخ ولوحت بيديها لتبعده عنها. ففزع وخرج من الغرفة، فأسرعت حنيني لإعطائها قرصًا مهدِّئا ولم تتحرّك من فراشها.

استمرّت نوريَّة في المعاناة من الاكتئاب فترة طويلة، واعتادت زيزي زيارتها كلّ صباح، بعد أن يخرج أَدْوَر لعمله – على الرغم من تعبها من الحفلات التي كانت تنتهي في الساعات الأولى من الصباح. كانت تتفقّد البيت إذا كان ينقصه شيء، لكنّ أَدْوَر كان يحرص على ألّا ينقص البيت شيء وملأه بالخير كله. كانت زيزي تحضر الطبيب معها مرّة في الأسبوع ليفحص نوريَّة ويعطيها المسكّنات وأقراصًا لعلاج الاكتئاب. وكانت تحدثت مع نوريَّة باستمرار، مثلما كانت تتحدّث معها قبل أن تمرض، وشجّعتها وحاولت أن تعيد إليها الرغبة في الحياة - لكنّ نوريَّة بقيت تنظر إلى السقف نظرة جوفاء لا تحمل أيّ تعبير. قالت عزيزة لحنيني إنّ نوريَّة مريضة بمرض " الطَغْقَه" (الفزع)، لذلك يجب إحضار دلّاقة (معالجة شعبيّة) لتعالجها. "كل الأقراص التي تعطوها لها تخدّرها فقط ولن تشفيها"، قالت بعينين جادّتين عالمتين، مثلما اعتادت أمّها رحمة إم كِلُو الكلام، لكنّ حنيني ردّت عليها قائلة إنّه لا توجد أيّ دلاقة تستطيع معالجتها نظرًا للقوّة التي في يديها.

في أحد الأيّام دخلت مريم إلى بيت نوريَّة، وهي تلطم على صدرها، وتشدّ رأسها وتتمتم بكلمات الأسف على مُصاب أختها المرّ. كان فضولها لمعرفة حالة نوريَّة وهويّة المرأة الثريّة التي تزورها هو سبب تظاهرها بالقلق على أختها. ارتجف جسم نوريَّة بشدّة عندما سمعت صوتها الأجشّ، فأصدرت أصوات حشرجة. غطّت زيزي رأسها بطرحة كبيرة، ووضعت يدها حول نوريَّة لتحميها، أمّا حنيني فخرجت إلى مريم وطلبت منها الذهاب.

"لن أتحرّك من هنا حتّى أرى أختي؛ وأنت امرأة عاقر وبالية، يجب أن تعودي إلى بيتك وتعتني بزوجك"، قالت لها مريم ودفعت حنيني من مكانها؛ لكنّ حنيني وقفت في الباب، ومنعت مريم من الدخول.

تلوّت نوريَّة بين يدي زيزي التي احتضنها، وجزّت على أسنانها، واستمرّت في إطلاق أصوات الحشرجة. لطمت مريم حنيني على وجهها وبصقت فيه، لكنّها استمرت في الوقوف قويّة في مكانها وسدّت الطريق أمامها. "زانية! أنت مثل أمّك، التي هجرت أباك وذهبت إلى الأرض المقدّسة. وإذا لم تعودي إلى فؤاد الآن، سأحرص على أن يطلّقك. من سيرغب في الزواج بامرأة طلّقت مرّتين. كما أنّها عاقر. حتّى المجنونة التي تعتنين بها، أفضل منك في نظر الناس"، قالت مريم محذّرة إيّاها.

"شكرًا جزيلًا. ستصنعين بي معروفًا عظيمًا. أخيرًا سأتخلّص من □لْخَصِي الذي لفّقتماه لي أنت وأبي. ألا تعلمين أنّي ما زلت عذراء. من حُسن الحظّ أنّ حِيِّيم مات في ليلة دخلتي وكنتم مشغولين كلّكم في دفنه – وإلّا لاكتشفتم عار فؤاد. وأيّ حاخام سأذهب إليه سيطلّقني منه على الفور، وسيصبح ابنك محلّ سخرية الجميع. علاوة على ذلك، أنت تتحدّثين عن الزانيات، راقبي ماذا يحدث مع ابنتك بِيرْطَة جيًّدا. فكلّ النساء يتحدّثن عنها. وإذا كنت لا تصدّقيني، اسألي عزيزة. فهي تعلم كلّ شيء"، قالت لها، وجرؤت لأوّل مرّة على أن تبوح بسرّ زواجها الكئيب. حاولت التركيز على الاهتمام بنوريَّة وتجاهل حياتها البائسة، لكنّ مريم نجحت في أن تطعن نفسها وتثير ألمها بأنّها لن يكون لديها أبناء أبدًا.

تركت مريم التي فوجئت بكلام حنيني البيت، لكن ليس قبل أن تمطرها بوابل من اللعنات. ركضت حنيني خلفها وأغلقت الباب كي لا تسمح لأحد بالدخول من دون إذن. وبعد أن رأت حنيني أمامها مرّة أخرى هدأت نوريَّة، وتوقّفت عن الحشرجة وعادت لترقد في سرير مئير.

جلست زيزي على الكرسيّ منهكة القوى. وفتحت حقيبتها وأخرجت منها صندوقًا خشبيًّا. ودعت حنيني إلى الجلوس بجوارها وقالت لها:

"أنت فتاة طيّبة، وتستحقّين أن تكوني سعيدة. أريد أن أعطيك شيئًا ما"، ووضعت الصندوق الخشبيّ في يدها.

"أنا لست بحاجة إلى هدايا. أنا أهتمّ بنوريَّة بكلّ الحبّ، لا من أجل الهدايا"، خجلت حنيني من صنيع زيزي.

"لا علاقة لهذا بنوريَّة. هذا من أجلك. أنا أريد أن تفتحيه"، طلبت منها.

فتحت حنيني الصندوق بيدين مرتعشتين، ودهشت لتجد فيه كومة من الخطابات. فعرفت على الفور خطّ اليد، وقرّبتها إليها وقبّلتها بشفتين مرتجفتين.

فسألت زيزي: "أيمكنني قراءتها؟".

"هذا من أجلك"، ابتسمت لها.

جلست حنيني في فراش حِيِّيم، وطوت قدميها واتّكأت بظهرها على الوسائد البيضاء. وبين خطاب وخطاب توقّفت للحظة لتجفيف الدموع في عينيها. أنزلت نوريَّة عينيها من السقف ونظرت إلى حنيني. ودمعت

عيناها هي أيضًا. اقتربت زيزي منها ومسحت دموعها. وعندما أنهت حنيني قراءة الخطابات، ضمّتها إلى صدرها، ثمّ وضعتها في الصندوق مرّة أخرى.

"شكرًا على المعروف الذي صنعته بي. أنا أعلم الآن أنّه لم يتوقّف أبدًا عن حبّي. هذا سيخفف عنّي لأواصل العيش من أجله ومن أجل نوريَّة"، مسحت دموعها وأعادت الصندوق لزيزي. ذهبت زيزي إلى حقيبتها وأخرجت منها دفتر حِيِّيم وأعطته لحنيني. "سافرت حتّى فرنسا لأعيد إليك ما يخصّك"، قالت زيزي. نظرت حنيني إلى الدفتر واحتضنت زيزي طويلًا لأنّها أعادت إليها روحها.

.28

في صباح أحد أيّام الربيع، بعد أن رقدت في فراشها أيّاما طويلة، بلا حراك، نهضت نوريَّة وطلبت من حنيني أن تُعدّ لها طشت ماء دافئ، وتنادي عزيزة لتزّتب لها شعرها. دُهشت حنيني من الطلب المفاجئ، لكنّها أسرعت لتنفيذه، بل إنّها وضعت بعض قطرات من عطر الياسمين الذي تحبّه نوريَّة في الماء، قبل أن تخرج لتنادي عزيزة لتحضر معها الحنّاء الحمراء والمقصّ.

بعد أن انتهت من قصّ شعرها وصبغه، ربطت نوريَّة شريطًا على رأسها، وارتدت فستانًا يزدان بالزهور. قبّلت نوريَّة حنيني وشكرتها على كلّ ما صنعته من أجلها، وطلبت منها العودة إلى بيتها.

"أمتأكّدة أنّك بخير، يا عمّة؟ يمكنني البقاء معك"، قالت حنيني بتردّد.

"لن أخرج لوقت طويل. أريد أن أتنفّس الهواء الطلق"، قالت نوريّة مطمئنة حنيني. "سأذهب لأرتدي ثيابًا جيّدة وسآتي معك"، حاولت حنيني إقناعها بعدم السير وحدها.

"لا، أُفضّل التجوّل وحدي"، قالت لها وخرجت من البيت.

خرجت نوريَّة إلى الشارع، وملأت رئتيها بالهواء المنعش الذي ابتعدت عنه فترة طويلة. فكّرت في الذهاب لإشعال شمعة على قبر الشيخ إسحاق ألگاؤون في سوق جِنُّونِي، لكنّ صوت الطفل الذي خرج من البيت الأزرق جذبها إليه. فبعد أن هاجرت نعيمة انتقلت بِيرْطَة وليلي للعيش فيه مع مريم ويعقوب، بعد أن لم يجدا لها عريسًا. ترك سمير، ابن نعيمة، الذي كان متزوَّجا من حبيبة، البيت مع عائلته بعد هروب أمّه وأخته، لأنّه لم يكن باستطاعته سماع لعنات مريم لأمّه التي باعت الدكّان وأخذت المال معها. أرادت مريم أن تسكن حنيني في البيت مع ابنها فؤاد، لكنّ حنيني رفضت، ولم يُصرّ فؤاد على ذلك.

وقفت بجوار باب البيت، وسرى الصوت اللطيف في عروقها وانتشر في كلّ جسمها. لقد أرادت رؤية وجهه، فدخلت من الباب المفتوح ووقفت في وسط الفناء، تبحث عن الحجرة التي سمُع منها صوت الطفل. وبدلًا من ذلك وقع على مسامعها صوت بِيرْطَة الأخنف، التي امتدحت أمّها على نجاح خطّتها الباهرة، التي نجحت من خلالها في أخذ ناحوم من أَدْوَر وأن تجعله يدفع لحبيبة على رعايتها لابنه.

"الساحرة الملعونة تستحقّ ذلك. وطالما أنا على قيد الحياة سأحرص على ألّا تعرف الفرحة في حياتها"، قالت مريم مبتهجة.

اقتربت نوريَّة من حجرة الضيوف، فدهشت بِيرْطَة لرؤيتها عند باب الحجرة.

"تعالي يا أمّي وانظري من خرجت من القبر"، نادت بِيرْطَة مريم وحالت دون دخولها إلى الحجرة.

قفزت مريم من مكانها ودُهشت لرؤية أختها.

"من أين ظهرتِ لنا فجأة؟ قال الجميع إنّك قد جُننتِ"، دُهشت مريم. "أنا معافاة الآن وأريد أن آخذ ابني"، حاولت نوريَّة الدخول إلى الحجرة، لكنّ بِيرْطَة صدّتها، ومريم ضربتها وأسقطتها على الأرض.

"اخرجي من هنا! لا أولاد لك هنا. أنت دفنتهم جميعًا. أخرجي يا ساحرة يا ملعونة، كي لا تجلبي لنا الحظّ العثِر"، صرخت مريم، وأضافت بِيرْطَة بصوتها القويّ:

"لا رحم لديك. أنت امرأة معطوبة وفارغة. اخرجي من هنا كي لا تحسدي أختي حبيبة، لا قدّر لله. ألا يكفي أنّك جعلتني أرملة، وجعلت ابنتي يتيمة؟" ركلتها بقدمها وبصقت في وجهها وحذّرت حبيبة من رؤية وجهها، كي لا يصاب حليبها من عين نوريَّة.

فزع الطفل من الصراخ، وبدأ بالبكاء بصوت يمزّق القلب. قامت نوريَّة من مكانها وحاولت مرّة أخرى أن تجد طريقها إليه، لكنّ مريم جذبتها من شعرها، وأسقطتها أرضًا.

أسرعت حنيني عند سماعها صوت الصراخ، وانتهزت بِيرْطَة الفرصة لتضرب زوجة أخيها، إلّا إنّ حنيني نجحت في الإفلات من يدها وركضت لتنادي أَدْوَر لمساعدة نوريَّة.

"إنّهنّ يقتلن نوريَّة. أنقذها"، توسّلت إليه.

وصل أَدْوَر مسرعًا ورأى نوريَّة تتدحرج على الأرض، وشعرها منفوشًا، وثوبها ممزَّقا، ووجهها وقدماها مصابَين. كان المكان يملأه الفضوليّون، الذين وقفوا جانبًا ولم يفرّقوا بين الطرفين.

"خذ الملعونة من هنا. سأقتلها ولن أسمح لها بأن تلمس ابنك"، قالت له مريم.

شعر أَدْوَر بالشفقة على نوريَّة، وملأه الغضب من تصرّف مريم معها، لكنّه لم يدر ماذا يصنع – إن كان يوبّخ مريم ويأخذ الولد ويعيده إلى نوريَّة، أم يتمسّك بمخطّطه ويبعد الولد عنها. في النهاية اقترب من نوريَّة وساعدها في الوقوف على قدميها وحاول إقناعها بالعودة إلى بيتهما.

"لماذا تقول إنّني ملعونة؟ إنّ حقدها هو الذي قتل أولادي، والآن سلبت منّي ناحوم. لقد شُفيت الآن، وأريد طفلي ثانية، كما وعدتني"، انتحبت وركعت على ركبتيها، ورفضت التزحزح من مكانها حتّى يعيد إليها طفلها. انفطر قلبه عندما رآها منهارة، لكنّه قرّر إبقاء الولد مع حبيبة، لأنّه ظنّ أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذه. جذبها من يديها وأعادها إلى البيت عنوة. حاولت المقاومة والعودة مرّة أخرى لأخذ الولد، لكنّ أَدْوَر دفعها مرّة أخرى إلى البيت وقال لها:

"أمنعك من الاقتراب منهنّ أو من الطفل. أنا أريد أن يعيش هذا الطفل. ألا تفهمين أنهنّ محقّات في كلامهنّ؟ أنت امرأة مات أولادها الثلاثة في عام واحد، لذلك هنّ محقّات في قولهنّ إنّك امرأة ملعونة قد استفزّت الجان. لقد حذّرتك، لكنّك لم تصغي إليّ. كلّ شيء بسبب مالك الملعون الذي كسبته".

نظرت نوريَّة إلى أَدْوَر، رافضة التصديق أنّه بعد أن وثق فيها في السنة الماضية، عاد ليخونها ثانية. فسدّت أذنها وصرخت فيه:

"لتخجل من نفسك! فأنت تعلم أنّني غير ملعونة ولا أتعامل مع الجانّ. فلماذا تكذب؟ هنّ الساحرات ويتعاملن مع الجانّ. هنّ اللواتي من لعنَّني، وآذى أبناءنا. يجب معاقبتهنّ هنّ، وحرقهنّ كما هو مكتوب في التوراة، – لا أنا".

بغداد، 1939

.29

كانت أوّل مرّة شاهدت فيها نوريَّة ناحوم فقط بعد مرور أربع سنوات من ولادته. وذلك بعد دخولها المستشفى مرّات عديدة. ولقد نجحت حنيني في إقناعها بالخروج من البيت؛ وعندما رأت ناحوم يلعب في الشارع مع بقيّة الأطفال قالت لها من دون تفكير، من أجل تشجيعها:

"يا عمّة نوريَّة، هذا هو، هذا ابنك. أُنظري إليه جيِّدا. إنّ لك ولدًا وهو حيّ. اِسعدي به يا عمّتي حتّى وإن كان لا يعلم أنّك أمّه. المهمّ أنّك أنت تعلمين". فزعت حنيني من زلّة لسانها ونظرت في وجه نوريَّة وخافت أن يكون كلامها المفاجئ قد سبّب لها صدمة، وتعود إلى الاكتئاب والهذيان من جديد؛ لكنّها، لدهشتها، هدّأتها الابتسامة التي غطّت وجه نوريَّة.

منذ ذلك اليوم، زادت رغبتها في الحياة. فبدأت بالبحث عن ابنها في وجه كلّ طفل صغير يلعب في أزقّة الحيّ. ووقفت ساعات طويلة تنظر من شبّاك الشناشيل إلى الأطفال الذي يمرحون في الجوار، مثل چحلة التي تنتظر عريسها بدري، وحاولت سماع كلّ صوت يأتي من بيت حبيبة، وكلّما سمعت صوت صراخ سمير، زوج حبيبة، هُيّئ لها أنّها تسمع بعده بكاء ابنها. فكانت تجلس في الحال أمام ماكينة الخياطة كي يبتلع صوتها الصراخ والبكاء. كان قلبها يعتصر في داخلها عندما كانت تراه يمشي في الشارع من دون رعاية، يرتدي ملابس متّسخة واسعة. وغير مرّة وجدت نفسها تقترب من فناء سمير وحبيبة وتستعدّ للدخول وأخذ ابنها بالقوّة وتخبره بأنّها أمّه الحقيقية، وتطعمه من طعامها، وتلبسه ملابس جميلة ونظيفة، لكنّ خوفها من أن تحل مريم اللعنات عليه كان يمنعها، مثلما حدث مع أبنائها الذين ماتوا، من تنفيذ خطّتها. مثلما لم تستطع أخذ قفل مئير من عنق بِيرْطَة. لم تنظر أبدًا في عينيه لأنّها علمت أنّها إذا قامت بذلك فلن تستطيع الصمود والثبات أمامه.

"أعلم، على الأقلّ، أنّه حيّ؛ وطالما هو معهنّ، فلن تجرؤ مريم على إيذائه. فهذه هي طريقتها للانتقام مني، ويجب ألّا أستفزّها كي تحافظ على حياة ابني – حتّى لو لم أسمع منه كلمة "ماما"، اعترفت لزيزي، معزّية نفسها، وتبرّر بذلك تعايشها مع أعمال أفراد عائلتها. سعدت زيزي بأنّ نوريَّة عادت إلى سابق عهدها، لكنّها استشاطت، في داخلها، غضبًا لاستسلامها لعائلتها. وعندما خرجت نوريَّة إلى الفناء، استغلّت زيزي ذلك لتبدي رأيها لحنيني في تصرّف نوريَّة.

"ربّما هذا أفضل"، هدّأتها حنيني، "من الأفضل أن تكون عاقلة ومنهزمة بدلًا من أن تؤذي مريم الطفل".

"لا أصدّق أنّك أنت التي تقولين هذا الكلام – أنت التي تتجاهلين عائلتك وتستهزئين بها"، قالت لها زيزي متحدّية.

"أجل أنا هي البطلة التي تحارب عائلتها، لكنّني بطلة مكسورة الجناح، لأنّه على الرغم من جرأتي، إلّا إنّني أعود كلّ يوم إلى سجني. مع ذلك استطعت، بطريقة ما، أن أجد حرّيّتي في هذا السجن بأن أكون مع نوريَّة، طالما لم أكشف عارهم أمام العالم كله، وأجد في ذلك عزائي. أنت لا تعرفين ما الذي يمكنهنّ فعله. لقد نشأت معهن في البيت وشاهدت بأمّ عيني مكائدهنّ. لقد تسببن في عذاب الكثير من الناس بسحرهنّ الأسود، ولحق بنا، نحن أيضًا الذين كبرن في البيت الأزرق، الأذى نتيجة ذلك. فكلّ أبناءٍ وحيدة ماتوا مرضًا؛ ولا أحد من أبناء نعيمة ومريم سعيد في حياته؛ ونوريَّة فقدت كلّ أبنائها؛ وأنا لن أُنجب الأطفال أبدًا. من حُسن الحظّ أنّنا هرّبنا أمّي ونعيمة ودوريس. فهنّ سعيدات هناك، على الأقلّ، في الأرض المقدّسة"، ردّت عليها حنيني.

"كيف حالهنّ؟"

"فتحت أمّي ونعيمة دكّانا للمخبوزات العراقيّة في سوق القدس، وتزوّجت دوريس من بائع خضراوات في السوق، عراقيّ مثلنا، وهي حامل. لكنّ الوضع هناك غير آمن مع العرب، وأنا قلقة عليهنّ"، ردّت عليها حنيني.

"الوضع عندنا أيضًا لم يَعُد جيِّدا. فأنا أُصاب بالجنون عندما أسمع الوزراء في الحكومة يتحدّثون ضدّ اليهود في العراق، كما لو كنّا نحن سبب ما يحدث بين الصهاينة والعرب في فلسطين. وما كان ينقصنا أن يأتي أناس من الخارج ويوقعوا بيننا وبين المسلمين هنا، فهناك حاج جاء من فلسطين يدعى أمين الحسينيّ طرده البريطانيّون يثير الكراهية ضدّنا. لقد سئمت من سماع المذيع يونس بحري يحرّض في الراديو ضدّ اليهود، ويخيفني رؤية أبناء الشبيبة عندنا يسيرون في الشارع بالزي الكاكي، مثل صغار الجنود، ويصيحون بصوت واحد ضدّ اليهود والإنجليز. لقد تغيّر كلّ شيء هنا. هذا ليس العراق أيّام الملك فيصل وفي عهد الإنجليز. أنا خائفة فعلًا من الوضع، بل إنّني توقّفت عن الغناء في نوادي اليهود منذ أن ألقوا هناك قنبلة يدويّة"، قالت زيزي وخافت أن تقول بصوت مرتفع أنّها تخشى اليوم الذي يكتشفون فيه أنّها يهوديّة، وستجد من يتّهمها بالتجسّس لصالح الصهاينة بسبب كراهية اليهود.

فجأة قطعت أصوات المؤذّنين الهدوء: "مات الملك غازي في حادث طرق"، نادت مكبّرات الصوت التي تصمّ الآذان، وسمعت أصوات الصراخ في كلّ مكان. انتزعت روح نوريَّة من مكانها.

"ابن عمّه، عبد الإله قتله. انتظر اللحظة المناسبة –ستّ سنوات بعد وفاة أبيه الملك فيصل، وقتله"، دخلت نوريَّة إلى بيتها وهي منفعلة. "مثلما قتلت عائلتي مئير، وحِيِّيم، ويوسف، والآن القتلة سيأخذون فيصل الصغير من أمّه، مثلما أخذوا منّي ناحوم".

عانقتها حنيني، وأجلستها على الأريكة في حجرة الضيوف وأعطتها كوب ماء لتشرب. ارتعشت يد نوريَّة، ولم تتوقّف عن ترديد عبارة: "قتلوه وأخذوا منها الولد. مثلما حدث لي".

لم تنم نوريَّة كثيرًا في الليل، وعندما كانت تغفو كانت تحلم دائمًا بأبنائها الموتى، وفكّرت في ناحوم، متسائلة إن كان قد أكل قبل أن ينام، وإن كانت حبيبة قد حرصت على تغطيته. هل تعانقه عندما يرى كابوسًا؟ عادت الهالات السوداء لتحيط عينيها مرّة أخرى، ولكي توقِفَ عذابها بسبب التفكير في أنّ ابنها ربما لا يلقى العناية الكاملة، طلبت من حنيني أن تحصل لها على صورة له ولو حتّى ثوبًا من ملابسه. كانت حنيني واثقة من أنّها لن تجد مثل هذه الصورة، لأنّها لم تكن تظنّ أبدًا أنّ حبيبة أو سمير أخذا ناحوم إلى المصوّر ليصوراه أو التقطا لهما صورة معه. لذلك تتبعت ناحوم وهو يلعب في الشارع على أمل أن ينسى شيئًا ما، وبالفعل نجحت في أن تحضر لنوريَّة منديلًا سقط من جيبه. أخذت نوريَّة المنديل وقبّلته كما لو كان ابنها، وكانت تتواصل معه من خلاله وتشعر به في عروقها عندما يحتاج إلى مساعدة. رسمت في مخيّلتها عباءة بيضاء طويلة، تغطّيه بها عندما يشعر بالبرد في الليل، وتلفّه بها في النهار لتحميه من أيّ أذًى. كما كانت ترسم في مخيّلتها أحيانًا مثلّثًا حوله وتغمره بالضوء وبدفء يديها وتردّد ثلاث مرّات كلمة "حامي إسرائيل". لقد أرادت الاعتقاد بأنّ قواها التي لم تؤثّر في أبنائها ستؤثّر هذه المرّة في ناحوم، لأنّها لم تربِّه. كانت تدعو الله كلّ يوم أن يحمي ابنها، وتعدُه بأنّها سوف تستمرّ في القيام بدورها وتعالج كلّ من يتوجّه إليها طلبًا للمساعدة. أمّا الأجر الذي كانت تحصل عليه، فقد تبرّعت به للعرائس الفقيرات.

بغداد، 1941

.30

منذ أن أهانته نوريَّة، خاف أَدْوَر أن يقابلها وجهًا لوجه. فقد كان يخرج مع الفجر لقراءة سفر المزامير، على قبر أبنائه، ويعود في الليل، بعد أن يمضي نهاره في العمل وفي الكنيس. وعندما كان يصل أخيرًا إلى البيت، كان يخلع نعليه، ويقترب بهدوء من حجرة زوجته وينظر إليها وهي نائمة في فراش مئير. كان قلبه يتمزّق كلّ يوم من جديد، عندما كان يراها وبين ذراعيها ملابس أولاده وبدلة طفل خاطتها لناحوم. عندما كان يسقط الغطاء من عليها أحيانًا، كان يتجرّأ ويدخل الغرفة ويغطّيها. كان يقضي أيّام السبت والأعياد في الكنيس منذ الصباح وحتّى المساء، أو يجبس نفسه في حجرته. حتّى الطعام كان يتناوله خارج البيت، لكنّه كان يترك لها المال في صندوق على الطاولة. كان يُحبط كلّ يوم عندما يكتشف أنّها لم تستخدمه، لكنّه كان يهدأ عندما كان يرى أن هناك طعامًا في البيت. "هي على الأقلّ لا تجوّع نفسها". كان يهدّئ نفسه ويتمنّى أن تبدي يومًا ما تفهُّما لصنيعه وتعود لتكون زوجته مرّة أخرى. كان يتبعها أحيانًا ويراها تخرج من البيت وتذهب مع النسوة، اللواتي كنّ يطرقن بابها قبلها، ولم تَعُد هذه الأفعال تغضبه كما كان في الماضي. سعد في داخله عندما رأى أنّها لا تبقى في البيت. أحيانًا كان يراها تراقب ناحوم من بعيد، وضميره يؤنّبه في تلك اللحظة وتغرق الدموع عينيه، فيسرع إلى الكنيس من أجل ليُنعِمَ في الصلاة وطلب المغفرة.

في هذه الفترة ركّز أَدْوَر في مشكلاته وتوسّلاته إلى الله ليعفو عنه ويجعل نوريَّة تعود إليه، لدرجة أنّه لم يلحظ أن الكنيس قد أصبح يعجّ في الشهور الأخيرة بالمصلّين الذي يدعون الله في صلواتهم ليخلّصهم ويبعد عنهم شرّ حكم أعداء اليهود، أنصار الألمان، الذين سيطروا على العراق، برئاسة رئيس الحكومة الجديد، رشيد عليّ الكيلانيّ، وبتشجيع من المفتي الحاجّ أمين الحسينيّ، وأدّوا إلى هرب عبد الإله، الوصيّ على العرش، ورئيس الحكومة نوري السعيد، أنصار البريطانيّين، إلى الأردنّ. تجاهل أقوال التحريض التي سمعت في الراديو وفي شوارع بغداد، والشائعات التي انتشرت حول أنّ الحكومة الجديدة ستعمل على القضاء على يهود بغداد الخوَنَة، بعد أن أبعدت نهائيًّا الوجود البريطانيّ عن أرض العراق، وألغت المعاهدة المهينة التي وقّعها الملك فيصل الأوّل معهم مقابل الاستقلال.

عندما بلغ ناحوم سنّ السادسة وكان عيد نزول التوراة على الأبواب، أعدت نوريَّة فطيرة كاهي طريّة مدهونة بالزبد وعسل التمر، وطلبت من حنيني أن تعطيها لناحوم ليأكلها. تذكّرت أن أختها لم تعرف كيف تعدُّ فطيرة العيد مثلما كانت أمّها تصنعها في بيتها، وبدلًا من خبز الكاهي ومنحه قوامًا رقيقًا وطريًّا ونثر السكّر عليه، تقليه وتغمره بالزيت. انتشرت رائحة الكاهي في البيت وذكّرتها بأمّها. وعندما كانت مشغولة في شرح مُفصّل لحنيني عن أهمّيّة الفروق في طريقة إعداد فطيرة العيد، دخل أَدْوَر إلى البيت وأمسك يدها وحثّها على ترك المكان بسرعة، لأنّ المسلمين ثائرون في الشوارع ويهدّدون بقتل كلّ يهودي يقابلونه في طريقهم.

"ماذا حدث؟" سألت وارتعدت من إمساكه بيدها، بعد ستّ سنوات لم يتجرأ فيها على الاقتراب منها.

"سأشرح لك في ما بعد"، دفعها إلى الخروج.

"ماذا عن ناحوم؟ يجب ألّا نتركه وحده"، أوقفته وتوسّلت إليه أن يذهب ليأخذه. تردّد أَدْوَر للحظة، لكنّه فكّر بسرعة وسحبها من يدها وصعد أعلى سطح البيت. "حبيبة سترعاه"، قال، "لقد وعدت بذلك".

ذُهلت حنيني من كلامه وخرجت مسرعة تبحث عن ناحوم.

خافت نوريَّة عندما رأت الجيران الفزعين يلوذون بأنفسهم عبر أسطح المنازل خوفًا من تهديد المسلمين. بحثت بين الفارّين من أبناء عائلتها وأملت في أن ترى ناحوم بينهم، لكن لم يكونوا هناك. وبعد أن ابتعدوا، توقّف أَدْوَر وسمح لها بالاستراحة.

"سننام هنا الليلة، وأتمنّى أن يهدأ المسلمون ونستطيع العودة إلى بيتنا في الغد"، حاول تهدئتها.

"هل يمكنك أن تخبرني الآن ما الذي حدث، ولماذا يفرّ اليهود من بيوتهم؟" سألته.

"المسلمون غاضبون لأنّ اليهود فرحوا بعودة الوصيّ عبد الإله من الأردنّ مع البريطانيّين، بعد أن فشلت ثورة رشيد علي الكيلانيّ الذي كان يكره اليهود"، أجابها باختصار، وشعرت بارتباك لأنّها لم تكن تعي إطلاقًا لا للثورة ولا هروب الوصيّ إلى الأردنّ. لم تفهم لماذا وقف الرجال حولها فوق أسطح المنازل يحملون في أيديهم حجارة ثقيلة وطناجر فيها زيت مغليّ، وفقط بعد أن سمعت صوت إطلاق النار وعويل النساء، لفّها خوف كبير من المجهول.

"أنت واثق من أنّ ناحوم بخير؟" سألت فجأة بخوف، كما لو أنّها استيقظت من كابوس.

"نامي. سأحرسك، وسنعود إلى بيتنا قريبًا"، أجاب، ولم يصدّق كلامه. وندم على أنّه عزل نفسه عن جميع الأحداث التي جرت من حوله على مدى الشهور الأخيرة، وعن الدعاية السامّة التي كان يذيعها الراديو في بغداد.

فرشت نوريَّة طرحتها على الأرض وأدارت ظهرها لأَدْوَر. وهو خلع عباءته، التي اختفت رائحة التبغ منها، وغطّاها بها. أخرجت منديل ناحوم من صدريتها وطلبت من الله ومن إخوته الثلاثة أن يحرسوه هو وحنيني.

عندما عادا بعد حوالي يومين، فوجئا بأنه وُضعت على بيتهما علامة كفّ يد باللون الأحمر، مثل سائر بيوت اليهود في المنطقة، وأنّ المشاغبين قد سلبوا كلّ محتواه: الأثاث، والسجاد، وأدوات المطبخ، والحُليّ، ولم يُبقوا ولو إناءً واحدًا. حتّى إن الرائحة الذكيّة لفطيرة الكاهي قد اختفت أيضًا. فملأها شعور بالحزن والأسف عندما اكتشفت أنّ من بين الأغراض التي سُلبت كانت ملابس أمّها وكمان يوسف، ودُهشت من التغيير الكبير في تعامل المسلمين مع اليهود، الذي كان جيِّدا حتّى قبل عدّة سنوات، وتميّز في أيّام الملك فيصل بالاحترام والتعاون. حتّى محاولة بعض الشباب المسلمين إيذاءها في شبابها لم تكن، في نظرها،

لكونها يهودية، بل سلوك شبابيّ أرعن. مزّق أدْوَر ملابسه عندما شاهد كتب التوراة ملقاة على الأرض مدنّسة وممزّقة، وصور عظماء حاخامات بغداد، الحاخام يوسف حِيِّيم، والحاخام عبد الله سوميخ، محطّمة. لكن عزاءهما كان أنّهما اكتشفا أنّ صور أبنائهما بقيت معلقة في مكانها على الحائط، وصناديق كتب حِيِّيم بقيت أسفل فراشه. كانت نوريَّة واثقة من أن أمّها هي التي حافظت عليها من أي سوء. ظهرت حنيني في المدخل وسعدت برؤية نوريَّة وأدْوَر بخير. وهدّأتهما وأخبرتهما أن ناحوم بخير، ويلعب في فناء البيت. وبعد أن ودّعت حنيني ذهبت نوريَّة إلى حجرة أدْوَر لتشكره على إنقاذه لها مرّة أخرى من أيدي المسلمين، لكنّه كان قد نام. فكّرت في أن تطلب منه أن يعيد ناحوم، لكنّها خافت من أن تبني آمالاً ثمّ يؤذيها ردّه مرّة أخرى.

*

ساد الخوف والدهشة بين اليهود بعد الفرهود – اللقب الذي أطلقه اليهود على شغب المسلمين ضدّهم في عيد الأسابيع، والذي قُتل فيه على مدى يومين الكثير من اليهود، واغتُصبت النساء، وسُمّم المرضى في المستشفيات، وبُقِرت بطون النساء الحوامل، ودُنّست الكنس ونُهبت البيوت والدكّاكين. أدت الصدمة وعدم الاستقرار في الطائفة اليهودية إلى ثورة بين أبناء الجيل الشابّ على الزعامة التقليديّة، التي تمسّكت بالولاء الأعمى للعراق، وظهر التصدع في الجدار الذي أغلق على المجتمع اليهوديّ على مدى مئات السنين، ولم يعد رجال الحرس القديم قادرين على إيقاف كرة الثلج التي بدأت تتدحرج. وجدت الحركة الصهيونيّة والشيوعيّة لها أرضًا خصبة للعمل بين الشباب الآن. فدعا الصهاينة إلى الهجرة إلى أرض إسرائيل، أمّا الشيوعيّون فقد شجّعوهم على البقاء وإقامة نظام حكم جديد في العراق قائم على المساواة بين جميع المواطنين. لم يجد هؤلاء أو هؤلاء طريقهم إلى بيت نوريَّة الخالي من الشباب. وحاولت نوريَّة التفكير كيف كان سيتعامل مئير، حِيِّيم ويوسف مع هذه الحركات، وكانت واثقة من أن حِيِّيم كان سينضمّ إلى إحدى الحركتين وربّما سيكون أحد قادتها، مع أنّها لم تكن لتعلم أيًّا منهما.

جعلت أحداث الفرهود روح المصير المشترك تسود بين اليهود. فقد سمح لها منشّي المعلّم، الذي علّم يوسف، ثمّ انتقل ليدرّس في المدرسة الابتدائية، بعد أن انخفض عدد الأطفال في الكتّاب، بأن تسترق النظر، بين الفينة والأخرى، إلى ناحوم الذي جاء ليدرس عنده. استطاعت نوريَّة أن ترى في عيني ناحوم الحالمتين شبهًا بمئير، وذكّرتها ابتسامته بيوسف، وجبينه القاسي يشبه في نظرها جبين حِيِّيم. لكنّ الفرق كان أكبر من الشبه. فقد كان ناحوم داكن اللون، ويشبه أكثر أبناء أختيها بوجهه الأسمر، وبعينيه السوداوين، ولون شعره الأسود؛ وعلى عكس أولادها الذين أحبّوا الدراسة، وأمضوا وقتهم في قراءة الكتب وإعداد دروسهم، كان ناحوم ولدًا همجيًّا يكثر من اللعب في الشوارع. قال لها المعلّم إنّه يعتقد بأنّ ناحوم لن سيستمرّ في الدراسة عنده، لأنّ الشارع يجذبه أكثر من الكتب. "ولو لم تخبريني أنّه ابنك، لما صدّقت أنه من عائلتك"، قال المعلّم بإحباط شديد.

انقبض قلبها بعد أن علمت أنّ ناحوم تسرّب من المدرسة بعد الصفّ الثالث، وبدأ بمصادقة أطفال مسلمين، وأنّه قد تعلّم التحدّث بلغتهم. لقد شاهدته أكثر من مرّة يدخّن، فدفعت لفتوّة الحيّ كي يراقبه ويحافظ عليه من الفتية في شوارع المسلمين.

بدأ ناحوم العمل في سنّ صغيرة كفتى إرساليّات في الأسواق ودكاكين البقّالين. لم تره نوريَّة يذهب في أيّام السبت والأعياد إلى الكنيس. أرادت سؤال أَدْوَر إن كان سعيدًا بسلوك ابنه وبإهمال حبيبة له، لكنّها تراجعت عندما أدركت أنْ لا شيء سيغيّر رأيه، ودعت الله أن يهدي ابنها. أكثر ما كانت تخافه هو اليوم الذي يصل فيه إلى سنّ التجنيد، حينها سيضطرّ إلى الخدمة في الجيش العراقيّ لأنّه لم يدرس. فمنذ أن سُنّ

قانون التجنيد الإلزاميّ عام 1936، يحرص الكثير من يهود العراق على الدراسة في المدارس الثانويّة، التي كانت تمنحهم شهادة الثانويّة العامّة من الحكومة، وبذلك يحصلون على إعفاء من الخدمة الإلزاميّة. مجرّد التفكير في الجيش كان يجعلها ترتعد، وتشاهد صورة حِيِّيم تمرّ أمامها.

عندما بلغ سنّ الثانية عشرة بدأ العمل كمساعد للسائقين الذين سافروا على خطّ بغداد - فلسطين، وكان يغيب عن نظر نوريَّة أسابيع طويلة. أخبرتها حنيني أنّ هذا العمل قد غيّره، فبدلًا من البقاء بصحبة المسلمين في المقاهي أصبحت تشاهده يجلس في حجرته في بيت حبيبة في الأيّام التي لا يسافر فيها يتصفّح الكتب. أسعد كلامها نوريَّة جدًّا وفتحت صندوق كتب حِيِّيم وطلبت من حنيني أن تعطيها له يقرأ فيها. قربت حنيني الكتب منها وشمت فيها بعض ما تبقى من رائحة حِيِّيم.

"أردت لسنوات أن أطلب منك أن تعطيني كتب ودفاتر حِيِّيم لكنّني لم أجرؤ"، قالت حنيني وغمرت الدموع عينيها، لكنّها استفاقت على الفور.

"سأعلّم ناحوم القراءة والكتابة بالعبريّة والعربيّة، كما علّمني حِيِّيم، على الرغم من حظر تعليم العبريّة اليوم"، قالت بحماسة وسارعت إلى تجفيف دموعها، وسعدت لأنّها وجدت لنفسها هدفًا، تستطيع أن تملأ به فراغ حياتها.

بغداد، 1948

.31

دهش ناحوم عندما رأى الشاحنة المحمّلة بالبضائع مستعدّة للسفر إلى أرض إسرائيل من دونه. وملأ قلبه الخوف، من أن يكون السائق زكي قد قرّر أن يشغّل مكانه مساعد سائق آخر، فذهب إليه بخوف وسأله بتردّد إن كان غير راضٍ عنه.

"لا، لا قدّر لله، لقد أردت أن أوفّر الوقت، لذلك حمّلت الشاحنة بالتمور. هيّا بنا، علينا التحرّك"، قال. لم يقتنع ناحوم بكلامه، وكان واثقًا من أنّ رئيسه لا يخبره بكلّ الحقيقة. كانت عصبية زكي أثناء التفتيش عند المعابر، وإصراره على أن يرطّب التمور بنفسه، ليحافظ عليها طازجة، قد زادت من شكوكه في أنّ رئيسه يخفي بضاعة ممنوعة في الشحنة الخلفيّة. وعندما وصل إلى جسر بنات يعقوب بعد ساعات طويلة من الهدوء المشوب بالتوتّر والعصبيّة المضنية، أوقف زكي الشاحنة فجأة، وشاهد ناحوم في المرآة رجلًا يقفز من الخلف. نظر ناحوم إلى زكي ولم يقل شيئًا. وعندما أفرغوا التمور في حيفا، شاهد مجموعة من الكتب تمّ إخفاؤها هناك، كانت تخصّ على ما يبدو المسافر الخفيّ الذي كان في الشاحنة. خبّأ ناحوم الكتب بين أغراضه، وعندما ذهب زكي في المساء لينام، نظر فيها ورأى أنّ بعضها كتب لتعليم اللغة العبريّة، ومجلّة "صهيون" باللغة العربيّة، وكرّاسة تحمل عنوان "الحركة الطلائعيّة الصهيونيّة".

عندما عاد إلى بغداد أخرج الكتب من المخبأ، واستعان بها بشغف في تعلّم اللغة العبريّة، مع الدروس التي تلقّاها من حنيني بالعبريّة والعربيّة. هكذا أصبح في مقدوره القراءة عن الحركة الطلائعيّة في العراق، وأهدافها، وعن المسألة الصهيونيّة. عندما كان محاطًا بأصدقائه المسلمين في الماضي، كان يسخر من زملائه في الحيّ الذين انضموا إلى الصهاينة أو الشيوعيّين. لقد بدأ يفهم الآن الحماسة التي شاهدها في عيونهم.

كلّما تعمق في قراءة الكتب التي وصلت إلى متناول يديه، زادت لديه الرغبة في الاقتراب من رجال الحركة الصهيونيّة. بدأ يرتاد الأماكن التي كان يقضي فيها أبناء جيله في المدارس اليهوديّة وقتهم، وحاول الانضمام إليهم، لكنّهم ابتعدوا عنه خشية أن يكون قد جاء للتجّسس عليهم والوشاية بهم لدى الشرطة السرّيّة العراقيّة. لكنّ موريس، أحد المرشدين في الحركة والذي كان يعرف حِيِّيم –جنّده لحركة الشباب التابعة للحركة السرّيّة الصهيونيّة بعد أن تتبعه وعلم صدق نواياه.

بعد شهرين من انضمامه إلى الحركة الطلائعيّة، وهو في الثالثة عشرة من عمره تقريبًا، تمّ إعلان قيام الدولة اليهوديّة وتوقّفت حركة التجارة بين العراق والدولة الجديدة. وجد ناحوم نفسه عاطلًا عن العمل، واضطرّ إلى العمل لكسب الرزق ومساعدة سمير وحبيبة، في أعمال مؤقتة اضطر وفّرها له أصدقاؤه في الحركة. في إطار الحركة تعلّم القراءة والكتابة باللغة العبريّة، وسمع محاضرات عن الصهيونيّة، وعن الحياة في إسرائيل، وعن التاريخ اليهوديّ. سعد باكتشاف أنّه على عكس المدرسة التي درس فيها حين كان ولدًا صغيرًا، لم تكن هناك حواجز بين الأولاد والبنات وجلسوا جميعًا معًا.

أعربت حنيني لنوريَّة عن قلقها وقالت لها إنّها لا تعرف أين يختفي ناحوم في الأيّام التي لا يعمل فيها. "فهو لا يتجول بصُحبة الصعاليك، لكنّني لم أعد أعلم إلى أين يذهب"، قالت. هدّأتها نوريَّة وقالت لها أنّها لا تشعر بأنّ ابنها في خطر – على الرغم من أنّ كلّ يهود العراق أصبحوا في خطر يهدّد حياتهم، حتّى أولئك الذين لا يؤيّدون الحركة الصهيونيّة، لأنّه لم يعد هناك فرق في نظر المسلمين بين يهود العراق وبين الصهاينة في أرض إسرائيل. ازداد الوضع خطورة في الشارع، وقام القوميّون العرب بإشعال حماسة

الجماهير وأصبحت تَسمع صيحات "الموت لليهود" في كلّ مكان؛ ووصف البرلمان العراقيّ الحركة الصهيونيّة بالنشاط الهدّام، الذي قد تبلغ عقوبته الموت؛ وتطوّع الرجال للخروج إلى الحرب لتحرير فلسطين من أيدي اليهود، كما تبرّعت النساء بحليّها للمجهود الحربيّ. حتّى الإعلام العراقيّ حرّض الجماهير ضدّ اليهود الذين عاشوا بهدوء وسلام في بلاد ما بين النهرين لألفين وخمسمائة عام منذ العصر الذي كانت تسمّى فيه بابل. فُصل الكثير من اليهود من وظائفهم في الوزارات، وأوصدت أبواب العراق أمام خروج اليهود من البلاد، وتمّ إيقاف حركة البريد بين أرض إسرائيل ويهود العراق، وأصبح استلام الرسائل ذريعة لتوجيه تهمة خيانة الوطن. بذلك انقطعت العلاقة بين حنيني وأمّها وعمّتها نعيمة، وخافت ألّا تراهما أبدًا.

*

مرّ عامان على انضمام ناحوم إلى الحركة الصهيونيّة. وشعر كيف تغيرت حياته بشكل كبير، وأصبح زملاؤه ومرشدوه يقدّرونه ويعتمدون عليه – على عكس أفراد عائلته الذين لم يعاملوه أبدًا باحترام. كان سمير، أبوه، يعامله دائمًا باستهزاء، وأمّه حبيبة كانت تتجاهل وجوده. لم يتذكّر مرّة أن احتضنته أو قبّلته؛ فقط صراخ ولعنات وعنف. وذات ليلة عاد ناحوم من نشاطه في الحركة يحمل حقيبة على ظهره. لاحظه سمير وتبعه، وما إن وجده يخبئ الحقيبة في قبو البيت، حتّى صرخ فيه، ولطمه وركله، وهو يجرّه أعلى الدرج. وسكت ناحوم.

"انظري أي مجرم أدخلته إلى بيتي: يخفي سرقته في الأسفل، في القبو"، صرخ في حبيبة وفتح الباب وطرد ناحوم بالحقيبة التي أحضرها معه.

"اخرج من هذا البيت. لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم، يا لصّ". صرخ في وجهه وأغلق الباب بقوّة.

"ماذا صنعت؟ لماذا طردته؟ ألا تعلم أنّه بسبب هذا الولد لدينا طعام في البيت من المال الذي يعطيه لي أَدْوَر، يا عاطل يا سكّير؟ ماذا تظنّ، أنّ العاهرات اللواتي تقضي وقتك معهنّ هنّ اللواتي من يطعمن أطفالك؟" صرخت فيه حبيبة وخرجت غاضبة من البيت تبحث عن ناحوم. ندمت لأنّها سمعت في شبابها كلام أمّها مريم ووضعت في طعام زوجها السحر الذي أصابه بالجنون، وبدلًا من أن يحبّها ويكون إلى جوارها، أصبح عاطلًا عن العمل وسكّيرا. "ما الجدوى من حياة كهذه؟ بيرْطَة فقدت زوجها، وأنا أعيش اليوم في جهنم"، قالت لنفسها في مرارة. "إذا عاد إلى هنا، سأقتلك وأقتله"، صرخ فيها سمير. فلقد سعد بالتخلّص من ناحوم، لأنّ وجوده كان يذكّره كلّ يوم بأمّه وأخته اللتين هرّبتهما نوريَّة، وفشله في حمايتهما بنفسه من مريم.

خاف ناحوم من أن يتجوّل في الخارج بحقيبة الموادّ الدعائيّة، لذلك توجّه مباشرة إلى بيت حنيني وطلب منها أن تسمح له بأن ينام عندها. وشرح لها كيف أنّ أباه طرده من البيت. لكنّه خلال وقوفه عند مدخل البيت جاءت حبيبة.

"ناحوم، عد إلى البيت ولا تسبّب لنا الفضائح"، نادته حبيبة وأعربت عن استيائها من قربه من حنيني التي تكرهها أختها بِيرْطَة.

"لا أريد العودة إلى هناك، لأنّني غاضب ومن الممكن أن أضرب أبي. فهو يسيء معاملتي طوال السنين، ويضربني"، تورّمت عيناه من الضرب الذي أكاله له سمير، كما سال الدم من أنفه. نظّفت حنيني وجهه واعتنت به بهدوء من دون أن تنبس ببنت شفة.

"إنّه يحبّك. لماذا تسيء إليه؟" أسكتته حبيبة. "أخبريني: أيّ أب يضرب ابنه ويسيء معاملته؟ أنا لا أظنّ

أنّه أبي. لقد سئمت ضربه لي. لماذا لا تساعدينني أبدًا؟ هو يعود سكيرًا وغاضبًا بعد أن خسر كلّ ماله في لعب الورق، أنا ضحيّته دائمًا. لماذا فضّلت، حسب رأيك، الهروب إلى الشوارع بدلًا من البقاء في البيت؟" قال لها متحدًّيا. وقفت حنيني إلى جانبه وأرادت أن تكشف له الحقيقة عن والديه –وأنّ أباه وأمّه موجودان وراء هذا الفناء، وأنّ أمّه تحرسه من بعيد، وتخاف على سلامته، لكنّ قلبها منعها من القيام بذلك، فسكتت.

"لا تتفوّه بهذه الترّهات. ولا تفضحني! تعال وعد معي إلى بيتك. أعدك بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام"، قالت حبيبة متوسّلة إليه؛ لكنّه أقنعها بأنّه سيمتنع عن العودة إلى البيت لفترة ما، كي لا يثير غضب سمير، ودخل إلى بيت حنيني وأغلق الباب خلفه بقوّة. سعدت حنيني باستضافته واعتبرته ابنها الذي لم تنجبه. وكانت تحرص في الأيّام التي لم يعمل فيها على تلبيه كلّ ما ينقصه: أعدّت له الطعام الذي أحبَّه، وغسلت ملابسه وجلست معه لقراءة الكتب. أخفى ناحوم عنها موضوع انضمامه إلى الحركة الطلائعيّة، وبرّر تأخّره ليلًا بأنّه اضطرّ إلى العمل حتّى وقت متأخّر في مكتب محام شغّله عنده.

كان انتقال ناحوم إلى بيت حنيني كالشوكة في عين زوجها فؤاد، الذي غار من الاهتمام الكبير الذي منحته إيّاه حنيني، وقرّر استغلال مطاردة النظام العراقيّ للصهاينة ليتخلّص منه إلى الأبد. ذات صباح ذهب إلى مكتب الشرطة السرّيّة، وأخبرهم بكلّ بساطة أنّ ناحوم عضو في الحركة الصهيونيّة.

وفي منتصف الليل، جاء رجال الشرطة إلى بيت حنيني، ومن دون أيّ تفسير دخلوا وألقوا القبض على ناحوم بتهمة الانضمام إلى نشاط صهيونيّ مخالف للقانون. بحثوا بين أغراضه وفي أنحاء البيت عن سلاح، أو وثائق وكُتُب باللغة العبريّة، لكنّهم لم يعثروا على شيء. حاولت حنيني منعهم من القبض عليه وأخبرتهم أنّه ولد أرعن يقضي وقته في الملاهي، لكنّهم دفعوها، وطلبوا منها ألّا تزعجهم وإلّا اعتقلوها هي أيضًا. ركضت حنيني بكلّ قوّتها إلى بيت نوريَّة وطرقت الباب بقوّة.

قفز أَدْوَر ونوريَّة من فراشهما في فزع عندما سمعا الطرق القوي. وقفت حنيني عند الباب بملابس النوم وشعرها منفوش. دُهشت نوريَّة لرؤيتها في مثل هذه الساعة وهي في حالة هياج عارية اليدين والقدمين. "لقد اعتقلوا ناحوم، يا عمّة"، لهثت في صعوبة ودخلت إلى الداخل.

"من؟ من اعتقله؟" سأل أَدْوَر في خوف.

"الشرطة السرّيّة العراقيّة. شخص ما وشى به، وأخبرهم بأنّه ناشط صهيونيّ. قلت لهم إنّه صعلوك يقضي وقته في الملاهي، وأنّه ليست له أيّ علاقة بالصهاينة. كيف يمكن أن يصبح ناحوم صهيونيًّا، يا عمّة؟ فقد أخبرني بكلّ ما يصنع!" تعجّبت حنيني، وتمنّت في داخلها ألّا تكون قد دفعته إلى الانضمام إلى الصهاينة بعد أن علّمته القراءة باللغة العبريّة.

"ماذا أصنع؟ مع من أتكلم؟" لطم أَدْوَر وجهه.

"هل تعلمين إلى أين أخذوه؟" قالت نوريَّة مستجمعة قواها وهي تجول في الغرفة بعصبيّة.

"لا. لقد صفّدوه، وقلبوا لي البيت رأسًا على عقب، لكنّني لم يجدوا شيئًا. كنت وحدي معه. ولم يكن فؤاد الأحمق بالبيت". غمرت عينيها الدموع.

أسرعت نوريَّة إلى حجرتها لترتدي ملابسها.

"إلى أين أنت ذاهبة؟" سأل أَدْوَر.

"إلى من يستطيع مساعدتي في إطلاق سراحه"، أجابت.

"من يكون؟ سآتي معك"، قال من دون أن يتلقّى منها ردًّا.

"لا. لا حاجة. سأذهب بمفردي"، قالت بحزم.

"إلى من أنت ذاهبة؟ إلى مطربتك؟" سأل.

"نعم"، ودهشت من معرفته بعلاقتها بزيزي.

"سآتي معك"، قال دون أن يطلب وذهب ليرتدي ملابسه.

أسرع الاثنان إلى بيت زيزي، لكن لسوء حظهما قال لهما البواب أنّها لم ترجع بعد من الحفل. قالت نوريَّة له أنّها تريد الحديث معها على وجه السرعة، فأدخلهما إلى بيتها وطلب منها الانتظار في حجرة الضيوف.

"ماذا حدث؟" سألت زيزي نوريَّة بعدما عادت، ودُهشت لرؤية أَدْوَر معها. مرّ زوج زيزي عليهم فابتسم إلى نوريَّة ودخل حجرته. "الشرطة السرّيّة العراقيّة اعتقلت ناحوم. يتّهمونه بأنّه صهيونيّ"، قالت نوريَّة ويكاد نفسُها أن يتوقّف.

"يا ويلي! يجب العمل سريعًا قبل أن يشنقوه"، فزعت زيزي.

اتّصلت زيزي بموظّفة السنترال وطلبت منها أن توصلها إلى قائد الشرطة. دُهش الضابط بسماع صوتها، ومن دون أيّ مقدّمات أخبرته أنّها بحاجة إلى مساعدته.

"كلّ ما تريدين، يا ملكة القلوب"، تملّقها.

" لم أطلب أبدًا مثل هذا الطلب، لكنّني أقوم بذلك من أجل خادمتي، التي تكرّس حياتها من أجلي ومخلصة للعراق. لقد ألقي القبض على قريب لها اليوم وقالوا عنه إنّه صهيونيّ. وأنا أعرف هذا الولد. فهو من النوع الذي يحبّ الخروج والسهرّ. فما له والصهاينة؟"

طلب قائد الشرطة معرفة اسمه.

"اسمه؟" تردّدت زيزي، لأنّها لم تعرف إن كان ناحوم قد سُجّل باسم عائلة نوريَّة.

"ناحوم سمير أبو الچِرَگْ"، قال لها أَدْوَر. قالت نوريَّة لنفسها: "حتّى اسم عائلته على اسم عائلة حبيبة".

قال لها قائد الشرطة إنه سيعود ويتّصل بها.

"أنا آسفة لأنّي قدّمتك على أنّك خادمتي. أنت تعلمين أنّه لا أحد يعلم أنّني يهوديّة"، اعتذرت بهمس لنوريَّة.

استغرب أَدْوَر عندما سمع أنّ المطربة يهوديّة وليست مسلمة، أمّا نوريَّة فاقتربت منها وعانقتها.

مرّت عدّة دقائق ورنَّ الهاتف بقوّة. أسرعت زيزي بوضع السمّاعة على أذنها. وعلى الجهة الأخرى من الخطّ أخبرها قائد الشرطة، أنّ شابًّا يهوديًّا يدعى فؤاد روبين أبو الچِرَگ هو الذي أخبر الشرطة بمعلومات قال فيها إنّ ناحوم ناشط صهيونيّ؛ لكنّه أمر بإطلاق سراحه على الفور، لأنّهم لم يجدوا عنده سلاح، ولأنّه غير مسجّل على قوائم الشرطة السوداء.

"إنّه زوج حنيني! الخائن!"، صرخ أَدْوَر عندما سمع كلام زيزي.

"يجب أن تحذّروه من فؤاد والحرص على ألّا يعمل بأشياء محظورة. سيكون من الصعب عليَّ جدًّا إطلاق سراحه في المرّة القادمة إن اعتقلوه مرّة أخرى. رأيتم كيف شنقوا شفيق عدس في البصرة – وقد كان صديق وليّ العهد وشخصيّات كثيرة رفيعة! حافظي على ابنك الوحيد يا نوريَّة"، قالت زيزي بقلق وعانقتها.

شكرها أَدْوَر وطلب منها مسامحته على طرده لها من البيت في يوم ختان ناحوم. دُهشت زيزي من أنّه ما

زال يذكرها منذ ذلك اليوم، عندما دخلت بيته ووجّهت له كلمات قاسية. بعد أن خرج أدْوَر ونوريَّة من بيتها، ندمت زيزي لأنّها لم تعطها الحجاب، الذي أعدّه الشيخ سليمان لناحوم قبل أن يُولد.

انتظرت حنيني نوريَّة وأَدْوَر عند مدخل بيتهما وأخبرتهما بأنّهم أطلقوا سراح ناحوم. عانقتها نوريَّة وطلبت منها أن تحرص على أن يجمع ناحوم أغراضه ويأتي إليها.

"أتنوين إخباره بأنّك أمّه؟" سألت حنيني.

"لا. لا. ببساطة يجب أن يترك هذا المكان ليحافظ على نفسه"، ردّت عليها نوريَّة، ولم تستطع أن تخبرها بأنّ زوجها هو الذي وشى به.

تعجّب ناحوم لماذا تأخذه حنيني إلى ذلك البيت بالذات الذي حذّرته جدّته مريم من دخوله، منذ أن كان طفلًا صغيرًا، لأنّ فيه عفاريت؛ لكنّ حنيني أخبرته أن نوريَّة هي التي أطلقت سراحه من السجن بفضل علاقاتها، وأنّها تريد الحديث معه.

منذ اللحظة التي دخل فيها البيت، لفتت نظره صور مئير، وحِيِّيم، ويوسف، التي استقبلته في حجرة الضيوف. ولم ينزل عينيه عنها، وسأل حنيني عن الأشخاص في الصور، فأخبرته بأنّهم أولاد نوريَّة وأَدْوَر الثلاثة، الذين ماتوا وأشارت إلى صورة حِيِّيم. "هذا حِيِّيم. لقد أحبّ قراءة الكتب، وقريبًا سيصدر له كتاب كتب هو جزءًا منه"، قالت بفخر، ولم تستطع أن تقول له إنّ مولده هو الذي أخّر صدور الكتاب، لأنّ زيزي لم ترغب في أنّهاء الكتاب بموت الإخوة الثلاثة.

لم تسع الفرحة نوريَّة وأَدْوَر عندما شاهدا ناحوم في بيتهما. أرادت نوريَّة معانقته، لكنّ يديها تجمّدتا. طلب منه أَدْوَر بهدوء أن يجلس معهما، ودُهش ناحوم لرؤية الناس الذين تحدّثت عنهم مريم بالسوء، ليسوا سيّئين، بل هادئين جدًّا. ولقد سُحر من منظر البيت النظيف والمرتّب، الذي تفوح منه رائحة الياسمين بدلًا من رائحة الغسيل المتّسخ التي عرفها في بيته.

"ناحوم أنت غير آمن حيث أنت الآن. ففؤاد هو الذي وشى بك لدى الشرطة السرّيّة العراقيّة"، قال أَدْوَر، ونسي وجود حنيني.

صرخت حنيني.

"كنت أعلم أنّ جذور عائلة مريم متعفّنة ولا يمكن الاعتماد عليها. من حُسن حظّي أنّ الله لم يجعلني أنجب وعطف علي"، بكت حنيني. "أنا آسفة، يا ناحوم، لم أعرف. أنا مستعدّة لتقديم روحي فداك، مثلما كنت مستعدّة لتقديمها ل-...". قالت وأسكتت لسانها على الفور ولم تكمل.

"المهمّ الآن أنّ كل شيء انتهى على خير، لكن يجب ألّا تبقى هنا، لأنّ الشرطة العراقيّة سوف تراقبك؛ وإن كنت منضمًّا حقًّا إلى حركة سرّيّة صهيونيّة، فأوقف نشاطك أو اهرب إلى إسرائيل، لأنّه لن يكون في المستطاع تخليصك مرّة أخرى إذا تمّ القبض عليك"، حذّره أَدْوَر وأعطاه صرّة من المال.

"أنا لا أفهم: كيف أنّه من بين كل أفراد عائلتي أنتما اللذان تساعداني؟ أبي رماني من البيت، وأخو أمي سلّمني للشرطة. فلماذا أنتما اللذان تعتبران أعداء أسرتي تساعداني؟" تعجّب ناحوم.

"ليس هناك مثل أَدْوَر ونوريَّة، أنت ببساطة لا تعرفهما. إنّهما طيّبان. جدّتك سمّمت أفكارك بلا داع"، قالت حنيني محاولة أن تشرح له.

" لن أنسى لكما المعروف الذي صنعتماه من أجلي"، قال ناحوم وأخذ المال من أَدْوَر. وعندما وقف بباب البيت سألته حنيني إلي أين ينوي الذهاب الآن.

"إلى أبعد مسافة عن عائلتي"، أجاب بعينين غاضبتين.

"وماذا عنّي؟ كيف أطمئنّ عليك وأعرف أنّك بخير؟" أصرّت حنيني على المعرفة.

وقفت نوريَّة هناك وهي متردّدة بينها وبين نفسها إن كانت توقفه وتخبره: "ناحوم، نحن عائلتك؛ لا تذهب إلى أيّ مكان". لكن أَدْوَر الذي عرف نظراتها جيِّدا، أسرع وهمس لها:

"نوريَّة، لا تفعلي ذلك. ستسببين له صدمة".

"سأحرص على إرسال أخباري إليك عندما أستقرّ في مكان آمن. لكن لا تخبري عائلتي، ولا حتّى أمّي". عانق حنيني، واتّجه صوب باب الخروج. قامت نوريَّة من مكانها. وأرادت اللحاق به، وأن تمسكه بيديها أخيرًا، لكنّ أَدْوَر منعها.

توقف ناحوم بجوار الباب فجأة، ثم استدار وعاد إلى الحجرة. شاهد نوريَّة تبكي وحنيني تحتضنها وتهدئها.

"ما هي أسماء الناس الذين في الصورة؟" سأل ناحوم.

"هؤلاء أولادي الثلاثة، يا ابني: مئير، حِيِّيم، ويوسف، رحمهم الله"، أجاب أَدْوَر واختنقت فيه الكلمات لأنّه قال كلمة "ابني".

"أنا متأسّف، لم أقصد أن أؤلمكم"، قال وخرج في طريقه.

سقطت نوريَّة على ركبتيها وضربت الأرض بقبضتيها.

"لماذا لم تتركاني أخبره أنّي أمّه؟ لماذا تركتماه يذهب؟ من يدري إن كنّا سنراه ثانية؟ كيف سمح لك قلبك بأن تمنعني من إرضاعه، وأمسكه بيدي؟" انفجرت ببكاء مرير.

رفعها أَدْوَر وحنيني من على الأرض وأجلساها على الأريكة في حجرة الضيوف. أسرعت حنيني لتحضر لها كوب ماء، ووضع أَدْوَر رأسها على صدره، وسقاها.

"ماذا أصنع الآن؟ كيف يمكنني العودة والعيش مع الخائن"، اشتكت حنيني عندما رأت تحسّن حال نوريَّة بعض الشيء.

"لا تصنعي شيئًا. سينتقم الله منه ومن أمه وإخوته"، وعدتها نوريَّة.

أُحبطت حنيني من كلام نوريَّة، فقد توقعت في داخلها أن تقول لها بأن تتركه. قامت للذهاب، وطلب منها أَدْوَر أن تنتظر ليصحبها إلى بيتها، لكنّها طلبت منه أن يبقى مع نوريَّة ليعتني بها.

نامت نوريَّة وهي منهكة جدًّا من هذه الليلة القاسية، وبقي أَدْوَر بجوارها يمسح على شعرها ووجهها. لقد أراد أن يهمس لها بأنه يحبها، لكنّه خاف من ردة فعلها. استيقظت مع الفجر ورأته يجلس على الأرض، بجوار الأريكة، ورأسه موضوع بجوارها. تذكرت فجأة كلام زاهد البصرة وقفزت من الأريكة في فرح. استيقظ أَدْوَر مندهشًا برؤيتها تضحك فجأة.

"اتّضح كلّ شيءٍ لي الآن. لقد نجا هذا الولد، لأنّنا وحَّدنا قوّتنا لأوّل مرّة في حياتنا، وعملنا معًا"، احتضنت نوريَّة أَدْوَر. ارتعد كلّه من الفرحة وحمد الله على أنّه أعادها إليه.

أسرع ناحوم من بيت أبويه إلى بيت موريس، مرشده في الحركة الطلائعيّة، وأخبره بما حدث. أخذه موريس إلى قبو للاختباء في بيت أحد أعضاء الحركة، وحذره من الخروج من هناك، لأنّ الشرطة سوف تراقبه. ووعده بأنّه سيدرس مع قادته إن كانوا يبقوه في بغداد أم يهرّبوه إلى إسرائيل عبر إيران. كما اهتمّ

بمعرفة إن كان يعرف من وشى به للشرطة، كي يحترس منه أعضاء الحركة.

وفي اليوم التالي انتظر فؤاد رجلان قويّان في الزقاق المؤدّي إلى بيته وأبرحاه ضربًا في كلّ جسمه.

"هذا عقاب من يشي باليهود"، صرخا فيه وألقياه عند مدخل بيته.

قفزت حنيني عندما سمعت صوت طرق الباب وأسرعت لفتح الباب، وفوجئت بمشاهدة فؤاد يتدحرج على الأرض، وهو مصاب والدم ينزف منه. وعندما اقتربت منه سمعته يقول:

"أنا أكرههما".

"من؟" سألت.

"حِيِّيم، وناحوم ...".

ملأ الغضب حنيني فضربته بكلّ ما أوتيت من قوّة.

"لتكن فداء حِيِّيم! لماذا أخذه الله وليس أنت؟ يا خصيّ. بسببك لا أطفال لي"، صرخت بكلّ بأعلى صوتها.

فزع يعقوب إليهما.

"أجننت؟" صرخ فيها.

"أجل. أنا مجنونة لأنّي وافقت على الزواج من هذا الخصيّ الذي يشي باليهود. طلّقني منه الآن، مثلما طلّقتني من حِيِّيم، قبل أن أفضحكم في كلّ الحي وأقول إنكم وشاة للشرطة، وسيأتي كلّ اليهود ويطردونكم من هنا"، صرخت في وجه أبيها، ولأوّل مرّة في حياتها تشعر بأنّها حرّة.

بعد مرور أسبوع عاد موريس المرشد إلى ناحوم، وأخبره بأنّ القادة قرّروا أن يهرّبوه إلى إسرائيل عبر إيران. أسف ناحوم على أنّ نشاطه في الحركة السرّيّة الصهيونيّة سوف ينتهي، لكنّ موريس هدّأه بقوله إنّ كلّ اليهود سوف يهاجرون إلى إسرائيل في القريب.

طلب ناحوم أن يسمحوا له قبل سفره إلى إسرائيل بأن يذهب إلى بيته كي يأخذ الحقيبة التي فيها الموادّ الدعائية التي خبأها جيِّدا في قبو بيت حنيني ولم تستطع الشرطة العراقيّة العثور عليها.

تأكّد من أنّ أحدًا لا يراقبه، وقبل أن يدخل بيت حنيني تسلّل سرًّا إلى بيت سمير وحبيبة وأخذ، من دون أن يراه أحد، كتب حِيِّيم. في طريقه إلى الشارع رأى حبيبة قادمة إليه. فلم يعد باستطاعته الاختباء منها، واضطرّ إلى الوقوف أمامها. "إلى أين أنت ذاهب؟" سألته.

"أنا ذاهب. لا يمكنني البقاء هنا"، قال لها.

"تعال. عد إلى بيتنا. وأعدك بأنّي لن أسمح لأبيك بضربك مرّة أخرى. سوف أحميك بجسمي. فليضربني أنا"، حاولت إقناعه.

"أنا لا أريد البقاء هنا، لأنّ أخاك وشى بي للشرطة، وأنا لا أريد أن أدخل السجن مرّة أخرى بسببه"، قال بغضب، وأراد الذهاب.

"على الأقلّ دعني أعانقك قبل أن تذهب"، أوقفته. وقف في مكانه واندهش من طلبها، لأنّه لا يذكر أنّها عانقته أو قبّلته طوال حياته. أنزل الحقيبة من على ظهره ولفّ يده وراء ظهرها. فأثار دفء جسده عطفها فقبلته على وجنتيه. رجع إلى الوراء من قربها المفاجئ إليه، ونظرت في عينيه ورأت الرقّة التي لم ترها أبدًا في سمير. لم يسمح لها قلبها بأن تدعه يذهب من دون أن يعرف سرّ حياته. فهي أرادت منذ وقت طويل

أن تخبره، لكنّها خافت من أمّها ومن سمير، أمّا الآن فلم يعد يهمّها أمرهما بعد أن أدركت أنّ كلّ حياتها بجوار سمير هي ذنب واحد كبير، وخسارة أنّها سمعت كلام أمّها ودمّرت حياتها بيديها. طلبت من ناحوم أن يعود إلى البيت في المساء، عندما لا يكون سمير في البيت لأنّ هناك سرًّا تريد أن تخبره به قبل أن يذهب.

وعندما عاد في المساء، والفضول يملأه من الأشياء التي أرادت حبيبة إخباره بها، دُهش لرؤية أَدْوَر يقترب من البيت. وكي لا يراه تسلّل إلى البيت عبر السطح. اعتقدت حبيبة أن ناحوم هو الذي يطرق الباب، لكنّها دهشت عندما شاهدت أَدْوَر. وقف عند الباب ورفض الدخول.

"لماذا لم تحافظي على ابني؟ كيف أعلم أين هو الآن، بعد أن طردته من بيتك؟" وبّخ حبيبة.

"هذا غير صحيح! لم يطلب منه أحد الذهاب". رمشت بعينيها وخافت أن يصل ناحوم في أيّ لحظة.

"لقد تجاهلت سنوات الطريقة التي تتبعينها في تربية ابني. كم من المال أعطيتك – ولم تلبسيه حتّى ثوبًا نظيفًا. وكان مهملًا في الشارع طوال الوقت، يرافق المجرمين ويأكل طعام المسلمين. لينتقم الله منك ومن عائلتك! لا أعرف لماذا سمعت كلام أمّك وصدّقت هراءها الذي قالته لي عن نوريَّة. إنّ حقدكنّ قد أعماكنّ. أمّا إخواني فقد غدروا بي مثل الغدير. مثل ساقية الوديان يعبرون. لكن اعلمي أنْ لا سلام للأشرار"، قال لها وخرج إلى الشارع.

نظرت حبيبة إلى الشارع وخافت أن يقابل أَدْوَر ناحوم. وعندما أدارت رأسها نحو البيت فوجئت برؤية ناحوم يقف وراءها متسمرًا في مكانه.

"أطلب منك السماح"، قالت له وحاولت معانقته، لكنّه أبعد يديها عنه. فقد صدمته الحقيقة المرّة.

"ليس بهذه الطريقة أردت أن تكتشف حقيقة حياتك. أردت أن أبوح لك بالسرّ قبل أن نفترق وأن أطلب منك السماح على الطريقة التي عاملناك بها. إنّ حياتي البائسة مع سمير جعلت من الصعب عليّ أن أكون أمًّا طيّبة ...".

لم يرغب ناحوم في سماع المزيد منها، لكنّها أوقفته بالقوّة ولم تسمح له بالخروج من البيت.

"قبل أن تذهب. يجب أن تعلم لماذا أعطاك والداك لي. دعني أصنع معروفًا واحدًا لك على الأقلّ"، توسّلت إليه. "إن إخوتك الثلاثة الكبار ماتوا في شبابهم، وأمّي أقنعت أَدْوَر، أباك، أنّ أمك نوريَّة، هي امرأة ملعونة؛ ومن أجل إنقاذك من اللعنة أودعك أبوك لديّ. اعلم أن أبويك غير مذنبين، لأنّهما أرادا مصلحتك. هذا هو. يمكنك الآن الذهاب، وأتمنّى أن تسامحني يومًا ما"، أنهت كلامها وخلّت بينه وبين الباب. خفق قلبه وهو في طريقه إلى شقّة الاختباء. تذكّر أنّهم قالوا له في طفولته في الحيّ إنّ والديه قد تخلّيا عنه، لكنّه لم يفهم معنى ذلك، واعتقد أنّهم يمزحون معه. لم يكن قادرًا على استيعاب الحقيقة التي تكشّفت له، لأنّه لم يفهم لماذا تركه والداه لسمير يعامله معاملة سيئة. "من حُسن الحظّ أنّي سأترك هذا المكان"، قال بغضب، وكُتُب حِيِّيم في يديه.

في أثناء محاولة تذكّر الكلمات التي قالتها له حبيبة، جاء موريس إلى شقّة المخبأ وقال له هذا النبأ الصادم:

"ستسمح الحكومة العراقيّة بداية من 9 مايو 1950، لكلّ اليهود بمغادرة العراق – شريطة التنازل عن الجنسيّة. لا حاجة الآن إلى تهريبك عبر إيران. سأرسلك الآن إلى البصرة لتساعدنا في إخراج اليهود، ثمّ تعود إلى بغداد بعد أن تنهي المهمّة".

بغداد، 1951

.32

"أنا لن أترك أبنائي"، قالت نوريَّة لأَدْوَر الذي فقد صبره من كثرة محاولته إقناعها أن تسافر معه إلى إسرائيل. "أنا لا أعرف البلد الجديد، الذي يجب أن أذهب إليه، كما أنّني لا أريد، في الوقت نفسه، ترك ناحوم وكلّ أحبّائي المدفونين هنا في الأرض التي ولدنا فيها"، وأدارت لها ظهره ودهشت من التغييرات التي طرأت على فكر أَدْوَر، الذي كان يفتخر طوال حياته بأنّه جزء من الشعب العراقيّ.

"لماذا لا تفهمين أنّه لم يبقَ لنا أيّ شيء هنا؟ كلّ اليهود مغادرون إلى إسرائيل، ولم يَعُد حتّى ما يمكننا العيش منه. فبعد قليل لن يكون هناك في الكنيس عدد كاف لإتمام الصلاة، وعلاوة على ذلك أنا أريد أن أرى القدس -المدينة المقدّسة- قبل مماتي. فعندما نُفي أجدادنا إلى العراق بعد خراب الهيكل الأوّل، وعد الله بأن يعيدنا بعد سبعين سنة. وبالفعل وفّى بوعده، لكنّ كثيرًا من أجدادنا فضّلوا البقاء في بابل. وآن الأوان الآن أن يمنّ الله علينا ثانية ويعيدنا جميعًا إلى الأرض التي نفينا منها منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة". أوقف للحظة سيل كلامه، ودمعت عيناه عندما تذكّر كلام يوسف، فغيّر نبرة كلامه، وتحدّث إلى نوريَّة بحزم: "أنا ذاهب لأتمدّد على قبر النبي يحزقيل، وسأعود في مساء الغد. وحتّى ذلك الحين عليك أن تقرّري إذا كنت ستسافرين معي أم لا". وتمنّى في قرارة نفسه إن تصحو إذا تحدّث معها بحزم وتخاف أن تبقى وحدها.

استدارت نوريَّة في بيتها هنا وهناك، ثمّ عادت ونظرت في صور أبنائها المعلّقة في حجرة الضيوف، واستصعبت القرار. "مئير، حِيِّيم، يوسف، كيف يمكنني أن أترككم؟ أنتم حياتي. أنتم جزء لا يتجزّأ مني. من سيغطيكم أيّام البرد؟ من سيسقيكم أيّام الخماسين؟" قلقة وقليلة الحيلة أخذت معها إبريق ماء وخرجت لريّ حوض العطارة الذي عاد ليمنح بيتها لون الحياة. صعد إلى أنفها خليط من رائحة النعناع والريحان اللذين ارتويا من يديها، وشعرت كيف عادت إليها روحها. لكن لم يكن ذلك كافيًا ليخفّف من تفكيرها المزعج.

"يجب أن أستشير زيزي"، فكّرت في نفسها وأسرعت إلى بيت المطربة، تاركةً خلفها باب بيتها مفتوحًا على مصراعيه. وجدت زيزي تجلس كعادتها على المكتب وتفكّر كيف تنهي كتاب حِيِّيم، بعد أن قضت في كتابته أكثر من ستّ عشرة سنة.

"كلّ من أعرفه تنازل عن جنسيّته العراقيّة، حتّى حنيني، وخلال عدة أيّام لن يبقى يهود في العراق"، قالت لها. "أنا أعلم أنّ عليّ الذهاب إلى أرض اليهود، لكنّني لا أستطيع ترك أولادي من دون رعاية. وأنا لا أعلم ماذا أفعل. أَدْوَر يضغط عليّ"، قالت نوريَّة وانتظرت كلام صديقتها.

خافت زيزي أن تذهب كاتمة سرّها بلا عودة، لكنّها علمت أنّ القرار يجب أن يكون قرار نوريَّة فقط.

"في خطاب حِيِّيم الأخير إليّ علم أنّي سأعتني بك ولن أتخلّى عنك أبدًا. فإذا قرّرت البقاء في العراق، فيمكنك العيش معي، لأنّه لا أحد لي في الدنيا سواك، أنت وزوجي وابني، الذي لا أعلم أين هو"، قالت لنوريَّة وعانقتها.

"أنت أيضًا تعلمين جيِّدا أنه ليس لي أحد سواك أنت وأَدْوَر وناحوم الذي لا أعلم أين هو"، عانقتها نوريَّة هي الأخرى، وقرّرتا اللقاء ثانية في المساء في بيت نوريَّة.

سارت نوريَّة نحو بيتها ببطء. وقفت بجوار نهر دجلة، ونظرت إلى تدفّقه المعتدل كما لو كانت تريد أن

ترسم في عقلها مناظر حياتها. فقد كانت منشغلة لفترة ما بنفسها وبعائلتها، وأصبحت بيئتها المحيطة بها في نظرها عبارة عن خلفيّة كئيبة عديمة الأهمّيّة. والآن عندما فُرض عليها وداع العراق، أرادت تعميق الصورة. فالنهر يبدو لها أكبر وأعرض ممّا كان دائمًا؛ والصيّادون في مراكبهم هادئون وسعداء بعد أن اصطادوا رزق يومهم؛ ومرح الأطفال الذي يسبحون في النهر يذكّرها بمرح أبنائها في طفولتهم. انتشرت رائحة النهر في داخلها وملأت قلبها بالحنين إلى أيّام السعادة والبراءة. نظرت إلى الناس الذين مرّوا عليها وهيّئ لها أنّهم أيضًا يكتشفون معها جمال النهر والهدوء الذي يحيطه، ومن ينظر إليه. استمرّت في السير ببطء بين الجنود العراقيّين الكثيرين الذين ملأوا الشوارع الرئيسة ليدافعوا عن نظام الملك فيصل الثاني، الذي أطلّت عليها صورته من كلّ مبنى في العراق. كما مرّت على مناطق تجمّع اللاجئين الفلسطينيّين الذين ملأوا العراق بعد هزيمة إسرائيل للدول العربيّة واستيلائهم على البيوت والمباني العامة التي أخلاها اليهود. وعندما اقتربت من بيتها، وصلت إلى منطقة الكنيس الكبير، المكان الذي كان يعج بالناس عادةً، وأصبح مهجورًا، حتّى عبد الله الشحاذ، الذي كان جزءًا لا يتجزّأ من المنطقة، لم يعد موجودًا. بحثت عن الحجر الذي أحضره الحاخام يوسف حِيِّيم من أرض إسرائيل ووُضع عند مدخل الكنيس قبل أكثر من ثمانين سنة، لكنّها لم تجده، فأسرعت الخطى كي تبعد عنها جو الكآبة.

عندما وصلت إلى بيتها، أسرعت إلى جمع القليل من أغراضها في حقيبة صغيرة، وأبناؤها الأحباء يطلُّون عليها من على حائط البيت. وقفت للحظة متسمرّة في مكانها، ونظرت إليهم وقالت:

"لا تقلقوا! لن أترككم أبدًا، ستأتون معي إلى كل مكان أذهب إليه"، ثمّ استلقت بعدها على الأريكة، وجعلها الهدوء تغفو. بعدها بفترة استيقظت قصيرة فزعة. فقد شعرت أنّها تحترق من شدة التيّارات الساخنة التي تتدفّق في كفّتي يديها، ممّا أثار قلقها، كما لو كانت زرعت في جسمها أعضاء غريبة غير مسيطر عليها. خلعت ملابسها ونزلت في مغطس مياه باردة. غطّت المياه أذنيها، وملأت رئتيها بأنفاس طويلة وعميقة حتّى هدأت. وبدأت يداها تطفو على الماء، والحرارة الكثيرة التي خرجت منها رسمت أمواجًا صغيرة عليها. أعاد لها التنفّس ونسيم المياه الخفيف هدوءها، وشعرت كالجنين يتحرّك في رحم أمّه. أغمضت عينيها ببطء، ومرّت أمامها سنوات عمرها الستّة والخمسين. ودوّختها الذكريات المرّة، فأسرعت بالخروج من المغطس، وارتدت ملابسها بسرعة، ووضعت داخل صدريتها المنديل الأزرق، الذي وضعت فيه شعرات أولادها من أول حلاقة لهم، ومنديل ناحوم، ثمّ عادت وتمدّدت منهكة على الأريكة في حجرة الضيوف.

فُتح الباب فجأة فاعتقدت أن زيزي قد جاءت، مثلما اتّفقتا، لكن وقف بالباب فتًى شاب. تسمّرت في مكانها لأنّها اعتقدت للحظة أنّ مئير ابنها البكر هو الذي دخل بيتها ونظر إليها نظرته العميقة المتلألئة، وتمنّت أن يخبرها عن حياته الحرّة من دون القفل الذي كبّل حياته. وفي النهاية قامت من مكانها، وفي الضوء الخافت الذي دخل من الشبّاك الخشبيّ المغلق لاحظت أنّ الشابّ هو ناحوم، ابنها المتروك. أرادت نوريَّة أن تركض إليه وتعانقه. نظر إليها ناحوم نفس النظرة المعروفة. "لقد عاد لي، لقد عاد لي". ابتهج قلبها. أثارت رائحة ناحوم مشاعرها، وفاض قلبها، كما لو كان يفكّر في أن يقفز من جسمها من الألم والأسى. لم يتمهّل ناحوم، على الرغم من أنّه كان يبدو لها أنّه يقف في الغرفة منذ وقت طويل؛ فاقترب منها وقفز على الأريكة، ومدّ يده ومن دون أن ينبس ببنت شفة، أنزل من على الحائط صور إخوته الكبار الواحدة تلو الأخرى. وتوجّهت إليه بدهشة وسألته:

"ناحوم، يا حدقة عيني، ماذا تفعل؟"

اقترب منها ناحوم، وأمسك يدها، ونظر بعينيه –عين مئير- في عينيها:

"ماما، جئت لآخذكم معي إلى إسرائيل"، همس لها، وشفتاه عذبتان كشفتي حِيِّيم، وصوته – صوت يوسف

العذب...

ارتعدت أوصالها تحتها، وسقطت عند قدميه وضمّته إليها بكلّ قوّة. رفعها ناحوم وضمّها إليه، وغمرته بالقبلات: "ابني ناحوم، لم أسمع هذه الكلمة لسنوات: "ماما". أجل يا ناحوم، أنا أمّك ...". انتحبت بانفعال. "لم أصدّق أنّني سأعيش هذه اللحظة". وقفا متعانقان، وعرفا أنّه لن يستطيع أحد التفريق بينهما.

فُتح باب البيت ببطء. وفَّت زيزي بوعدها ودخلت البيت عارية الرأس ونظرت إلى نوريَّة وناحوم المتعانقين وصور الأولاد حولهما. فغرت فاهها من الدهشة المشوبة بالفرح، وشقّ الألم صدرها. فلقد شاهدت في داخلها للحظة ابنها تحتضنه بين ذراعيها. بحثت في حقيبتها، وأخرجت منه حجاب الشيخ سليمان ووضعته في المكان المخصص له – في جيب ناحوم.

****

---

[1] من طقوس الجنائز في اليهوديّة حيث يمزّق أهل الميت ملابسهم ويجلسون سبعة أيّام في البيت حزنًا عليه.

[2] آية من الصلوات اليهوديّة، وتقابل الشهادة في الإسلام، كما تستعمل لحماية الشخص من الحسد والأضرار.

[3] القيدوش (تقديس): دعاء يتلى على كأس من الخمر قبل الطعام لتقديس يوم السبت

[4] قبلاه - التصوّف عند اليهود.

[5] ببلوغة سنّ الـ 13 عامًا يصبح الابن مكلَّفًا بالالتزامات الدينيّة عند اليهود.

[6] الكتاب الأساسيّ في الصوفيّة اليهوديّة.

[7] طقس يهوديّ يجرى عشيّة رأس السنة العبريّة يتحلّل فيه الشخص من النذور التي لم يستطع الوفاء بها خلال العام.

[8] شهر الصفح والغفران

[9] شاعر يهوديّ عاش في العصور الوسطى في الأندلس

[10] أحد كبار الحاخامات الذي عارض التوراة ورفض تنفيذ الوصايا.

[11] كلمة آراميّة. من الحاخامين الكبار في القرنين الأوّل والثاني للميلاد

[12] عبارة تُستخدم للحماية من عين الحسد. في التقاليد اليهوديّة يوسف الصدّيق يعتبر محميًّا من حسد الخلق.

[13] طقس تقوم به أرملة الأخ المتوفّى بالبصق في وجه أخيه بعد خلع نعله، بعدما رفض الزواج منها ليقيم نسل أخيه. ويكون ذلك أمام الحاخامات، بعدها يسمح لها بالزواج من آخر.

[14] صلاة من أجل إصلاح روح الإنسان.

[15] صلاة يهوديّة تتلى لتسبيح الله والدعاءً للمّيت.